الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري قسنطينة

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ والآثار

رقم التسجيل:.................................

الرقم التسلسلي:................................

العنوان

الأوراس في العصر الوسيط

من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر

27 -362هـ/ 637-972م

دراسة إجتماعية

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ

تخصص تاريخ المجتمع المغاربي

إعداد الطالب :

موسى رحماني

تحت إشراف الأستاذة:

د/ بوبة مجاني

أعضاء اللجنة المناقشة

تاريخ المناقشة..../...../2007م

	الاسم واللقب	الرتبة	الصفة	الجامعة الأصلية
01	مسعود مزهودي	أستاذ التعليم العالي	رئيسا	جامعة العقيد الحاج لخضر – باتنة
02	بوبة مجاني	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة منتوري – قسنطينة
03	إبراهيم بحاز	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة منتوري – قسنطينة
04	إسماعيل سامعي	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة
05	نجيب بن خيرة	أستاذ محاضر	عضوا مناقشا	جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة

السنة الجامعية 1427-1428هـ/2006-2007م

فهرس الموضوعات

µ

لا يزال كثير من خبايا تاريخ المغرب الأوسط ملغّزًا، بسبب الغموض الذي يحيط بالكثير من فصوله، وهو ما يجعل الدارس لهذه الفصول والمتابع لهذه الأحداث يلحظ ظلالاً كثيفةً تحجب جوانب مهمة من هذا التاريخ.

ولا أدل على ذلك من بقاء جهات ومناطق عديدة لم يبحث تاريخها بعد، وأحداث ستظل مُشكَلة على الفهم ما لم توَّضح وتدرس من قبيل:

- طول المدة التي استغرقها الفتح العربي الإسلامي للمغرب الأوسط عامة، و الأوراس على وجه الخصوص، وتأثير الوضع الاجتماعي وتركيبة السكان في اشتداد هذه المقاومة.

- اعتناق سكان الأوراس للمذهب الخارجي الإباضي دون غيره من المذاهب، وتوظيفه كسلاح لمواجهة المظالم التي أصابتهم من ولاة بني أمية، ومن عمال الفاطميين بعد ذلك.

- الصراع السياسي والقبلي بين قبيلة زناتة الأوراس وقبيلتي كتامة وصنهاجة، مما أدخل المغرب الأوسط في حالة احتراب وصراع، وهو الصراع الذي تجلى بوضوح في عهد الخلافة الفاطمية عندما انحاز كل طرف إلى أيديولوجية مناقضة لأيديولوجية الطرف الآخر.

و لعل من الجوانب التي أهملت بشكل أساس وواضح في تاريخ المغرب الأوسط ومناطقه المختلفة: المجتمع، فالدارس لا يكاد يظفر ببحث يتناول هذا المجتمع ويدرسه من خلال أنسابه وأنساله، ونظمه وأنماط حياته، والعلاقة بين شعوبه وقبائله، وعاداته وتقاليده. لأن المتاح لا يعدوا أن يكون فصولا متناثرة هنا وهناك، أو نصوصا شحيحة في بطون المصادر، قد لا تكون كافية لتقديم تصور صحيح عن المجتمع البربري في فترة العصر الوسيط.

ولما كانت الكتابات السياسية قد استغرقت حيزا كبيرا من التآليف التاريخية، والتي رصدت الأحداث السياسية والمعارك والحروب، وأبرزت مآثر الخلفاء والسلاطين والأمراء، فقد أصبحت هذه الدراسات قليلة النفع محدودة الفائدة، لأن هذه المؤلفات غابت عنها المجتمعات، أو غُيبت. فلا نجد لها ذكرا إلا في القليل من المصادر، ولولا المؤلفات الفقهية والجغرافية وكتب الطبقات والتراجم والأنساب لما عرف عن المجتمعات شيئا، إلا ما تعلق بسياسات الحاكم وعلاقاته بالرعية.

هذه الكتابات السياسية والمآثر السلطانية وتراجم القادة لم تعد تلقى الرواج والقبول الـــذي عرفته في فترات سابقة عندما كانت الأولوية تقضي تدون التاريخ وحسب.

لذلك فالضرورة تقتضي الاشتغال بالدراسات الاجتماعية، وبيان موقع المجتمعات من تطور الأحداث التاريخية، ودورها المؤثر، لأنها الدراسات الوحيدة القادرة على إبراز الجوانب الخفية التي ظلت في منطقة الظل بعيدا عن الضوء، فلم تعط حقها من الدراسة والبيان، لذلك فالدراســـات الاجتماعية هي الوحيدة التي تمكننا من تفسير الكثير من الأحداث التاريخية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية متى ربطت بديناميكية تطور المجتمعات، ولأن القوى المحركة، أو بـــالأحرى الدوافع في التاريخ هي دائما من المجتمع وفيه؛ أي أن التغيرات التي تحدث إنما تحدث أساســـا في المجتمع ومقوِّماته، فتظهر بعد ذلك في أشكال دينية واقتصادية وثقافية وسياسية.

فهي بالتالي الدراسات الوحيدة القادرة على إبراز المجتمع باعتباره مادة أولية للتـــاريخ، ولأن لمجتمع البشري هو الذي يتعرض للهزات والتقلبات، و يواجه المحن ويعيش الاضـــطرابات، فـــلا سلطان يقوم ولا حضارة تزدهر وتدوم إلا بوجود مجتمعات وشعوب يبذل أفرادها جهودا متصلة لتحقيق ذلك، وهذا هو الأمر الذي أدركه ابن خلدون عندما ربط جميع أحداث التاريخ بالمجتمع من حيث شكل العمران ونمطه، وجعل الحكم لا يقوم إلا إذ استند إلى العصبية الدينية أو العرقية كما اعتبر أساس الحياة الاجتماعية هو النشاط الإنتاجي المشترك بهدف تلبية احتياجاتهم الماديـــة عندما قال:« العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلّة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباع الناس من التعاون على المعاش...»[1]

والمجتمع المغرب أوسطي في العصر الإسلامي الوسيط شهد تقلبات، وعرف تطورات بتـــأثير أفكار ومذاهب وصراعات، لكن دوره في ذلك لم يظهر في الكتابات التاريخية بوضوح وجلاء بما يكفي لمعرفة عوامل هذا التطور، والنتائج المترتبة عنه، وهذا نتيجة لما تعرض له من إغفال خـــلال هذه المرحلة

ومن المناطق التي تجاهلها الدارسون فلم يولوها العناية الملائمة مناطق الجبال أو المناطق الواقعة على الأطراف، والتي ظلت قليلة التأُثر بما يجري في الحواضر الكبرى في إفريقية والمغرب الأوسط. فبقي سكانها محافظين على شخصيتهم واستقلالهم، مستفيدين من البعد عـــن مركـــز الدولـــة

---

(1) المقدمة، دار الجيل ، بيروت بلاتا، ص45؛ وانظر في ذلك محمد إسماعيل: إشكالية تفسير التاريخ عند المؤرخين المسلمين الأوائل، عالم الفكر، عدد خاص بالفكر التاريخي،المجلد 29، الكويت، أبريل-يونيو 2001، ص45.

متحصنين بالطبيعة الجبلية التي تمنعهم، وتوفر لهم الاستقرار. فكانت هذه المناطق بالتالي ملجأً لكل معارض وثائر، أو لكل داع إلى نحلة من النحل، أو مذهب من المذاهب.

هذه المناطق – مناطق الأطراف والجبال- هي أحوج ما يكون إلى دراسة تبعثها إلى الوجود بعدما طواها النسيان لقرون عديدة، ومن أهم هذه المناطق (جبل أوراس) الذي صنع فصولا من أحداث المغرب الأوسط، وأحداث إفريقية، لكنه لم يلق العناية اللائقة، ولم يبرز بشكل يكافئ هذا الدور الذي لعبه، فأردت من خلال البحث أن أظهره، وأن أبين خصائصه الاجتماعية والثقافية في العصر الإسلامي الوسيط.

دوافع اختيار البحث:

تعود صلتي بالموضوع إلى مرحلة الدراسة الجامعية، خاصة عندما كنا نعد البحوث والعروض المقررة علينا في تاريخ المغرب الإسلامي، فقد لمست حجم الدور الذي لعبه جبل أوراس في تاريخ المغرب الإسلامي، فهو يظهر مع بداية الفتح العربي للمغرب كمنطقة رفض لمدة نيفت عن الخمسين سنة، مما كلف العرب المسلمين خسائر كبيرة في الأرواح والأموال. ثم وجدته بعد ذلك ينخرط في الاضطرابات التي وقعت في مرحلة عصر الولاة بمشايعته للثائرين على ولاة بني أمية، ثم ساند ثورة الخوارج النكار في العهد الفاطمي باحتضانه الثورة، وإمدادها بالرجال. وهي الثورة التي أقضّت مضاجع الخلفاء العبيديين وأضرت باستقرار دولتهم. فاعتزمت منذ ذلك على جمع ما كتبته المصادر عن الأوراس في العصر الوسيط الإسلامي، وكنت منيت النفس بتقديم مذكرة في نهاية السنة الرابعة الجامعية تتوّج هذه الأمنية، لكن المعهد لم يكن قد أقرّ بعد إلزامية مذكرات التخرج.

ولما يسر الله لي النجاح في مسابقة الماجستير انبعثت تلك الأمنية من جديد فاغتنمت الفرصة لتحقيقها بانجاز مذكرة الماجستير في تاريخ الأوراس في العصر الوسيط .

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع ما وجدته من إهمال لمنطقة الأوراس فلم يكتب تاريخها، فأردت أن إبراز جوانب من هذا التاريخ وأن أظهر الدور الذي قام به الأوراس في تاريخ المغرب الأوسط وإفريقية من خلال تأثيره في تاريخ المنطقة ومشاركة سكانه في صناعة وتحريك أحداثها.

كما أردت دراسة المجتمع الأوراسي من خلال تنظيماته القبلية وتركيبة سكانه، وأنماط حياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم وعلاقاتهم، والعوامل التي ساهمت في جعل جبل أوراس قبلة لكل معارض وثائر.

كما أشير أيضا إلى رغبة شخصية تدفعني للكتابة في تاريخ منطقة الأوراس التي أنحدر منها شاعرا بديّن في عنقي وجب عليَّ الوفاء به، بإبراز بعض الجوانب من هذا التاريخ الحافل، لعلـــي أكون بذلك قد فتحت الطريق لمن أراد البحث في ماضي الأوراس وتراثه خصوصـــا في العصـــر الإسلامي الوسيط.

الموضوع والإشكالية والمنهج:

رأيت أن يكون عنوان البحث« الأوراس في العصر الوسيط من الفتح إلى انتقـــال الخلافـــة الفاطمية إلى مصر 27-362هـ/ 637-972م – دراسة اجتماعية.»

لأن سنة 27هـ/637م تمثل بدايات الفتح العربي لإفريقية وبلاد المغرب، وهـــي فتـــرة الخليفة عثمان بن عفان الذي أسلم أمير مغراوة على يديه. كما ذكر ابن عبد الحليم في كتـــاب الأنساب أن أقواما من البربر وصلوا إلى النبي ع وآمنوا به، كما وصل بعضهم إلى الخليفة عمر بن الخطاب. وهؤلاء كانوا من سكان المغرب الأوسط والأقصى، فليس من المستبعد إذا أن يكـــون سكان الأوراس قد عرفوا الإسلام قبيل حملة عبد الله بن سعد بن أبي السرح إذا صحت روايـــة ابن عبد الحليم.(1)

و تمثل سنة 362هـ/972م التاريخ الذي قرر فيه المعز لدين الله الفاطمي الانتقـــال إلى مصر بعدما فتحها، وبني مدينة القاهرة لتكون عاصمة جديدة للدولة. ولا يمكـــن إغفـــال دور الأوراس وتأثيره في هذا الانتقال، فقد كانت أعظم ثورة واجهت الدولة الشيعية وأوشـــكت أن تقوض بنيانها، هي تلك الثورة التي أشعلها سكانه فأقنعت المعز أن المقام بالمغرب سيكون مكلفا، فآثر التحول إلى مصر، ليعود المغرب من جديد إلى السيادة البربرية تحت حكم الزيريين.

هذه الفترة الطويلة من تاريخ المغرب الإسلامي تعج بأحداث هامة على مختلف الصُّعد، ممـــا أدي إلى نقل المنطقة بكاملها من حالة السكون إلى حالة من الحركة والدينامية، تميزت بحـــدوث تقلبات اجتماعية وسياسية وفكرية أثرت تأثيرا عميقا على المغرب الإسلامي بكامله.

والأوراس لم يشذّ عن هذا الإطار، بل كان أكثر المناطق تأَثُرًا وتأثِيرًا؛ لطبيعتـــه الجغرافيـــة الجبلية الوعرة، وتكوينه البشري القائم على النظام القبلي، فكان له الصدى الكـــبير في تـــاريخ المغرب في العصر الوسيط.

---

(1) تح: محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي ، مدريد 1996، ص69-71.

وأهمية منطقة الأوراس تتجلي في كونها منطقة طرفية، بعيدة عن الحواضر الكبرى خاصة عواصم الدول التي تعاقبت على حكم إفريقية والمغرب الأوسط، الأمر الذي جعلها دوما تستقطب كل ثائر ومعارض، كما كان الحال بالنسبة للأطراف الأخرى في الدولة الإسلامية، لذلك كانت مثار متاعب واضطراب.

وقد زاد التوافد الأجنبي عليها والهجرات الاضطرارية التي قصدتها زخماً كبيرا في تنوع التركيبة السكانية للأوراس مما زاد في بروز عوامل الاضطراب وتنامي أسباب الصراع.

كما أن قبيلة زناتة بفروعها التي سكنت الأوراس هي التي تحملت تبعات ونتائج جميع الأحداث التي مرت بالأوراس منذ المراحل الأولى للفتح، مرورا بالحروب والصراعات التي خاضتها المنطقة بفعل انتشار الفكر الخارجي خاصة المذهب الإباضي والذي انقسم على نفسه بسبب التنافس والصراع، كما شاركت في مجمل هذه الأحداث، وارتبطت بها جميع الحركات الثورية ضد ولاة بني أمية ثم ضد الدولة الشيعية الفاطمية.

لذلك رأيت أن أبرز **مدى إسهام الطبيعة الجغرافية والتكوين العرقي والقبلي للأوراس، ونمط حياة سكانه، وتطوره الفكري والمذهبي في صياغة شخصيته، وتشكيل ذهنية سكانه ما جعلهم محافظين على استقلالهم نزّاعين للتمرد، معتصمين بجبلهم الذي وفر لهم المعتصم والمأوى، فكان الأوراس بذلك نموذجا لجبال المغرب بما شهده من أحداث، وعرفه من تطورات تستدعى منا الوقوف عندها.**

وقد حاولت دراسة هذه الإشكالية من خلال:

- أوضاع الأوراس قبيل الفتح، وكيف كانت هذه الأوضاع سببا في إضعاف الوجود البيزنطي في عموم المغرب، ومنطقة الأوراس على وجه الخصوص، بسبب المظالم الاجتماعية التي لحق السكان فدفعتهم إلى التمرد والثورة واعتناق المذهب الدوناتي لمعارضة المذهب الرسمي للدولة البيزنطية، والتحالف مع حركة الدوارين التي رفعت لواء المقاومة، فمثلت بذلك ثورة اجتماعية تنتصر للبربر الفقراء، وتقف في وجه السياسة الاجتماعية التي سلكتها بيرنطة.

- طول المدة التي استغرقها الفتح الإسلامي للمنطقة، إذ كانت الفتوحات تحوم حول الأوراس ولا تتوغل فيه، كما ظلّ يردّ العرب إلى خارج إفريقية خاصة في عهد الكاهنة، وهذا نتيجة للطبيعة الجغرافية التي منحت الأوراس الحصانة ضد كل غاز، كما ساهم النظام القبلي الذي كان عليه الأوراس ، خاصة قبيلة زناتة البترية في تقوية عنصر المقاومة.

• التركيبة السكانية للأوراس، والتغيرات الجديدة التي أفرزها عملية الفتح، وأثر ذلك في التحولات الاجتماعية التي شهدها الأوراس فيما بعد والتي ستصبغ شخصيته بصبغة جديدة.

• اعتناق الأوراس للمذهب الخارجي الإباضي، وتبنيه كإيديولوجية في مقاومة ظلم ولاة بني أمية، ثم من بعدهم الدولة الفاطمية بتحالفهم مع مالكية إفريقية، وتحت قيادة أبي يزيد مخلد بن كداد اليفرني الزناتي.

• التنظيم الاجتماعي لسكان الأوراس وأنماط العيش، وعادات السكان وتقاليدهم ومدى تأثرها بالإسلام واصطباغهم بصبغته بعد استقراره واعتناق السكان له.

هذه جملة من النقاط حاولت قدر استطاعتي الوقوف عندها من خلال الخطّة التي رسمتها للبحث والقائمة على تمهيد وخمسة فصول:

خصصت **التمهيد** للتعريف بالأوراس من خلال المدلول اللغوي والتاريخي للكلمة، ثم عرّفت بالمنطقة جغرافيا بدراسة الموقع والتضاريس والمناخ والمجاري المائية، لأن ذلك سيقربنا كثيرا من فهم الموضوع، خاصة وأن البيئة الجغرافية ساهمت في صناعة شخصية المنطقة وصبغت مجتمعها بصبغة مميزة هي التي أظهرت الأوراس أو ظهر بها.

ودرست في **الفصل الأول** أوضاع الأوراس الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية قبيل الفتح الإسلامي وتأثير هذا الوضع في الفتح الإسلامي للمنطقة.

وفي **الفصل الثاني** استعرضت مراحل فتح الأوراس، والجهود المضنية التي بذلها الفاتحون العرب من أجل إحكام السيطرة على المنطقة، كما بينت كيفية إسلام البربر واعتناقهم للدين الجديد بعد أن عرفوه، والعوامل التي دفعتهم إلى التعّرب، وختمت الفصل ببيان حكم فتح أرض الأوراس وعامة بلاد المغرب، لأن الفتح نقل بلاد المغرب كلها من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال؛ فقد أصبحت الدولة الإسلامية تتحكم في الأرض وتتعامل معها وفقا لطريقة فتحها. فكان ذلك سببا في انتقال القبائل وانتشارها في عموم المغرب.

وفي **الفصل الثالث:** درست فيه الحركات المذهبية في الأوراس والعوامل التي جعلت بربر الأوراس يعتنقون المذهب الخارجي ثم وظفوه في الثورة ضد ولاة بني أمية بدافع الوقوف أمام ظلم ولاتهم، كما أنخرط سكان الأوراس في ثورة النكار بقيادة أبي يزيد مخلد بن كداد اليفرني الزناتي و الذي تحالف مع أهل السنة في محاربة الدولة العبيدية، كما بيّنت الأثر الذي تركه الخوارج على

الأوراس في مختلف الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما تعرضت إلى علاقة الأوراس بالحكومات والأنظمة التي قامت في إفريقية والمغرب الأوسط والقوى المعارضة لها.

أما **الفصل الرابع:** تعرضت لتركيبته السكانية فعرفت بسكانه الأصليين، ثم العناصر الجديدة التي وفدت علية بعد الفتح، ثم بيّنت نوع العلاقة القائمة بين بربر الأوراس والقبائل البربرية خارجه خاصة قبيلتي كتامة و صنهاجة.

وخصصت **الفصل الخامس** لدراسة أهم المظاهر الاجتماعية في الأوراس مشيرا إلى شكل النظام الاجتماعي الذي ساد المنطقة، ومكانة المرأة والأسرة، والأحوال المعيشية للسكان، وأنماط حياتهم، والعادات والتقاليد التي درج عليها السكان، وختمت الفصل بمحاولة بيان ذهنيات سكان الأوراس والعوامل التي ساهمت في تكوينها وصياغتها.

وأنهيت بحثي **بخاتمة** استعراضت فيها أهم النتائج التي خلص إليها البحث، ثم أرفقت الدراسة بعدد من **الملاحق** في شكل نصوص وخرائط وصور زيادة في التوضيح.

وقد اعتمدت في إنجاز هذا العمل على توظيف نصوص استقيتها من العديد من المصادر الأساسية، جمعتها وحاولت مناقشتها وتحليلها ومقارنتها ببعضها البعض من أجل الوصول إلى أفكار ونتائج تخدم موضوع البحث. معتمدا على منهج زاوجت فيه بين الوصف وأنا أقوم بجمع المادة الخبرية القليلة، راصدا حركة الأحداث المتسارعة التي شهدتها منطقة الأوراس. ووظفتُ الاستقراء حتى أتجاوز قلة المادة التاريخية، بل ندرتها في بعض فصول البحث، واعتمدت التحليل من أجل تفسير هذه الحوادث والوقوف على آثارها ونتائجها.

وخلال إنجاز هذا العمل واجهتني العديد من الصعاب منها:

o قلة المادة الخبرية المتعلقة بمنطقة الأوراس خلال الفترة محل الدراسة، وما وجد يغطي فترات الفتح، ثم فترات الصراعات والثورات التي قامت بها الحركة الخارجية. كما أن هذه القلة تظهر بوضوح في الجانب الاجتماعي، إذ لا يكاد الدارس للمنطقة يجد للمرأة ذكرا عدا حديث المصادر عن الكاهنة التي قادت قبائل الأوراس لحرب العرب، وهو حديث متشابه، مما يؤكد اعتماد هذه المصادر على بعضها البعض، أو على مصادر واحدة.

ولما كانت المادة الخبرية قليلة فقد اضطرني ذلك إلى توسيع الفترة الزمنية والتي امتدت إلى أزيد من ثلاثة قرون، ورغم هذا التوسيع فإن هذه المادة تزداد قلة كلما تعلق الأمر بالمجتمع، لأن المصادر في معظمها تتكلم عن الأوراس في فترات الاضطراب والثورة، فتتحدث عن الأطراف

المتصارعة، والقوى المتحاربة، ولا تشير إلى سكان المنطقة إلا إذا تعلق الأمر بهذه الحروب وتلك الثورات.

o كما واجهتني أيضا صعوبات أخرى لا تقل عن السابقة والمتمثلة في صعوبة التحديد الجغرافي لمنطقة الأوراس والتداخل الحاصل بينه وبين المناطق القريبة منه كبلاد الزاب وإفريقية. فالكثير من المصادر التاريخية تجعل الأوراس جزءًا من بلاد الزاب وبدايته، فيما تجعله أخرى آخر إفريقية والحد الفاصل بينها وبين الزاب.

وقد كانت الأحداث تقع في هذه المناطق مجتمعة أو تمر بها طولا أو عرضا، وربما بدأ الحدث بإفريقية وانتهى في الأوراس، وقد يحدث العكس فيبدأ من الأوراس ثم يعم كامل إفريقية والمغرب الأوسط، كما حدث في مقاومة الكاهنة للفاتحين، وثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري على الفاطميين، الأمر الذي يجعل الفصل بين هذه المناطق يكاد يكون مستحيلا نتيجة هذا التداخل. ولا ننسى أيضا أن القبائل البربرية في المنطقة لم تكن مستقرة في أماكن محددة معلومة، فهي في الغالب قبائل غير قارة، تتحرك تبعا للعوامل الطبيعية من خصب وجدب، أو نتيجة للاضطرابات الواقعة في إفريقية والمغرب الأوسط.

o ويبقى أن أقول بأن اختياري البحث في تاريخ الأوراس كان مجازفة حقيقية، لصعوبة البحث في مناطق الأطراف عامة و المناطق الجبلية بصفة خاصة، ولأن أحداثها غالبا ما تكون مجرد رجع صدى لأحداث الحواضر الكبرى، وعواصم الدول والمقاطعات، وبالتالي فهي مهملة من طرف الكتاب والمؤلفين، وبخاصة إذا كانت المنطقة مثل الأوراس التي كانت مثار متاعب للسلط الحاكمة المتعاقبة في إفريقية والمغرب الأوسط. و تزداد المجازفة صعوبة عندما يفتقد المرء إلى الوسائل والأدوات التي تمكنه من التغلب على المصاعب والمشاق التي تعترض سبيله. ويعلم الله أنني كثيرا ما وقفت أمام مشكلة من مشكلات البحث أياما أو أسابيع باحثا لها عن حل، فأقلب مئات الصفحات من أجل الظفر بخبر أو إشارة مفيدة وكنت في كثير من المرات أعود خاوي الوفاض.

أهم المصادر والمراجع عرض وتحليل

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على عدد من المصادر العربية الأصلية المطبوعة خاصة، والتي استفدت منها كثيرا في إنجاز هذا العمل، كما اعتمدت أيضا على مراجع حديثة عربية وأجنبية، وعلى دراسات وبحوث نشرت في دوريات ومجلات ودوائر المعارف.

وسوف أقتصر هنا على عرض أهم مصادر البحث ومراجعه مرتبة حسب الأهمية ومـــدى صلة المصدر أو المرجع بالموضوع وقدر الاستفادة منه.

المصادر الأساسية:

أولا: كتب الرحلة والجغرافية:

1.**اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284هـــ/897-898م) كتاب البلدان، والذي زار المغرب وسجل مشاهداته، ونقل عن أهله، وقد قـــدم لنـــا معلومات دقيقة عن طبيعة المغرب، وعمرانه وسكانه ومنتجاته وأسواقه، وحدد المســـافات بـــين البلدان، وقد استفدت منه في جوانب عديد من البحث.

2.**ابن حوقل**، أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت368هــ/990م) كتاب صورة الأرض، وابن حوقل من الجغرافيين الذين زاروا المغرب وسجلوا ملاحظـــاهم ومشـــاهداهم، وقـــد زار الأوراس كما يقول، إذ وصل إلى بلدة دوفانة في قلب جبل أوراس، وتتمثل أهمية الكتاب في غناه بالتفاصيل الجغرافية والاقتصادية، فقد وصف طرق التجارة والسلع والبضائع، وذكـــر أصـــول السكان والصراعات القائمة بينهم، كما وصف الحواضر والمدن ومـــا تحويهـــا مـــن منشـــآت ومؤسسات. لذلك يعد كتاب صورة الأرض من المصادر التي لا غنى للباحث عنها، خاصة وأنه عاصر الدولة الفاطمية واهم بالولاء لها، وهو الأمر الذي لا يكاد يخفى عندما تحدث عن حركـــة صاحب الحمار الذي يتهمه بالكفر والنفاق، في حين يسمي الخليفة الفاطمي المنصور بمولانا أمير المؤمنين ويجعله في فئة أهل الإيمان.[1]

3.**المقدسي**، شمس الدين أبو عبيد الله (ت388هــ/998م) أحسن التقاســـيم في معرفـــة الأقاليم وهو الكتاب الذي استفدت منه خاصة في حديثه عن عادات البربر ومعتقداهم، وأنمـــاط حياهم، ومذاهبهم. وفائدة الكتاب تعظم لأن صاحبه زار المغرب هو أيضا وطاف به على غرار اليعقوبي وابن حوقل.

4. **البكري**، أبو عبيد الله بن عبد الله البكري الأندلسي (ت487هــ/1094م) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، وهو قطعة من كتابه الكبير المسالك والممالك. والبكـــري جغـــرافي أندلسي، لم يكتب مشاهداته لرحلة قادته إلى بلاد المغرب، ولكنه جمع ما توافر لديه من معلومات

---

(1) منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت1992، ص73-74.

جغرافية وتاريخية عن بلاد المغرب من خلال إطلاعه على مؤلفات، ووثائق أندلسية. لذلك جـــاء وصفه لبلاد المغرب وإفريقية وافيا دقيقا. كما زاوج بين المعلومات الجغرافية والتاريخية، مما جعـــل الكتاب مهما في وصف المدن المغربية، والطرق التجارية، والسلع والبضائع، والموازين والمكاييل، وأنماط العيش وأساليب الحياة مما جعلنا نعتمد عليه في معظم فصول البحث.

5. **مجهول**: الاستبصار في عجائب الأمصار، وكاتبه مراكشي من كتاب القـــرن الســـادس الهجري، الثاني عشر الميلادي. والذي خصص جانبا مهما لوصـــف بـــلاد المغـــرب وتســـجل مشاهداته، كما زار الأوراس ووقف على بعض أثاره من حصون وقلاع و أضرحة، وقد خـــدم البحث من خلال المعلومات التي أوردها عن الأوراس وحواضره الكبرى وطرقه ومنتجاته.

6.**الإدريسي**، الشريف محمد بن عبد الله (ت 560هـــ/1166م) القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وقد نسج الإدريسي كتابـــه علـــى منوال البكري، فوصف المدن وعمارتها، والطرق التجارية والسلع والأسواق، كما ذكر مـــواطن البربر وقبائلهم، وتحدث عن المياه ومصادرها، وأنواع المزروعات، وذكر بعض أنشطة الســـكان وحرفهم، لذلك كان المؤلف مفيدا في الجوانب الجغرافية والاجتماعية.

7.**الحميري**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (توفي في أواخـــر القـــرن التاســـع الهجري/15م): كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، وهو عبارة عن موسوعة جغرافية شاملة استفدت منها في جوانب عدة من البحث فهو يورد تفاصيل تاريخية كثيرة عن مراحـــل الفـــتح الأولى خاصة ما تعلق بالكاهنة وحربها لحسان، كما يورد خبر صاحب الحمار، ويصـــف مـــدن الأوراس وغلالها وبضائعها، وطرقها وأسواقها مما لا غنى للباحث عنه.

ثانيا: كتب الأنساب:

1.**ابن حزم**، أبو محمد علي بن أحمد المتوفى سنة 456هـــ/1064م وكتابه جمهرة أنساب العرب، والذي أخد عنه ابن خلدون وغيره، خاصة ما تعلق بأنساب البربر، وهو من الثقاة المعتمد عليهم، أفاد البحث في تركيبة السكان وقبائلهم وأصولهم إذ خصص جزء يسيرا مـــن الجمهـــرة للحديث عن نسب البربر في المغرب والتعريف ببعض رجالهم وإن كان ذلك مقتضبا لأنه ألـــف الكتاب للتعريف بالقبائل العربية والبربرية الساكنة بالأندلس، وقد جاءت المادة التي وفرها الكتاب عن القبائل البربرية قليلة رغم أهميتها.

2.**مجهول:** كتاب مفاخر البربر. لا نعرف عن المؤلف شيئا سوى أنه كان حيا سنة 712هـ، وكتابه يعد في نظري هو ردة فعل من المؤلف الذي لا شك أنه بربري من المغرب الأقصى أو الأندلس كتبه دفاعا عن بني قومه نتيجة للمطاعن التي وجهت إلى البربر، والأوصاف والنعوت التي حفلت بها بعض الكتب التي استهدفت الانتقاص من شأنهم والحط من قدرهم، فكأن الكاتب أراد أن يبين مآثر البربر ومحاسنهم، فشحن الكتاب بالقصص والروايات التي تؤيد نظرته على ما فيها من علل. وقد تحدث المؤلف عن أصول البربر ومواطنهم، وثوارهم وعلمائهم وزهادهم والمتنبئين منهم، وسبقهم للإسلام وفخرهم به، وبيوتات البربر بالأندلس، والكتاب يفتقد إلى الترتيب والتبويب وهو ما يؤيد ما ذهبنا إليه من القول بأن الكتاب كُتب للرد على الخصوم وتفنيد أرائهم في البربر، لأن الكاتب يختمه مؤلفه بذكر فتح القيروان والمغرب، ثم أصل البربر وقدومهم إلى المغرب ثم ينتهي بذكر خلفاء الدولة الموحدية. في حين بدأ بذكر أخبار الخلفاء الأمويين وثورات البربر في الأندلس والمغرب. والكتاب على قدر كبير من الفائدة لأنه يقدم لنا وجهة النظر البربرية، كما يتحدث عن أصول البربر، وقبائلهم، ورجالهم، وملوكهم قبل الإسلام وبعده.

3.**ابن عبد الحليم،** (القرن 8هـ/14م) كتاب الأنساب. لا نعرف كثيرا عن المؤلف سوى أنه كاتب مغربي من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. اعتمد ابن عبد الحليم على كتب أنساب مغربية وأندلسية مفقودة، ذكر في الكتاب أنساب البربر، خاصة في المغربين الأوسط والأقصى، كما تحدث عن صلة البربر بالإسلام قبل الفتح وبعده، لذلك فإن الكتاب خدم هذا الجانب من البحث.

4.**ابن خلدون،** أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المتوفى سنة 808هـ /1406م. كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. يعد الكتاب أهم مصادر تاريخ البربر في العصر الوسيط، وفائدة كتاب العبر عظيمة لا يمكن حصرها في مقدمة الكتاب الموضحة لمنهجه في كتابة التاريخ، وتحقيق أخباره، والعوامل المتحكمة في صناعة أحداثه، ولكن أهمية الكتاب أيضا تبرز في تحديده مواطن البربر قبل الفتح وبعده، كما يذكر شعوبهم وقبائلهم والفروع المنحدرة من كل قبيل، والدول التي أقامتها، ودور هذه القبائل في الثورات التي قامت ضد الفاتحين، ثم التي حدثت ضد ولاة بني أمية كنتيجة لانتشار الفكر الخارجي، ثم ضد الدولة العبيدية الشيعية بعد ذلك. كما يبين خصائص البربر وطباعهم، والكثير

من عاداهم وتقاليدهم، و بالتالي فإن كتاب العبر يعد أحد أهم المصادر التي أفدت منها في جميـــع مراحل البحث.

ولما كان كتاب العبر هو أكثر المصادر التي فصلت في أنساب البربر وأصولهم وفروعهم من موقع أن صاحبه عاش شطرا كبيرا من حياته بينهم وروى عن نسابتهم ، فكان بذلك الأكثـــر معرفة بأنساهم وقبائلهم، رأيت أن أضع كتاب العبر ضمن كتب الأنساب، لأن الذين كتبوا عن قبائل المغرب البربرية أو العربية من بعده قد اعتمدوه وجعلوه أهم مصدر لتاريخهم.

ثالثا: كتب الطبقات والتراجم:

1. **أبو العرب**، محمد بن أحمد بن تميم (تـــ333هـــ/944م) طبقات علمـــاء إفريقيـــة، والكتاب هو عبارة عن مجموعة من التراجم لفقهاء وعلماء إفريقية، أو الذين نزلوهـــا. يحـــوي الكتاب بعض الأخبار عن عمليات الفتح وسيرة هؤلاء الفاتحين. وأهمية الكتاب تتمثل في كـــون صاحبه من أقطاب المذهب المالكي، ومن الذين شاركوا في التصدي للمذهب الشيعي الإسماعيلي، فكانت بالتالي فائدة الكتاب تتمثل خاصة في الصراع بين علماء المالكية والفاطميين في الوقـــت الذي كانت فيه الثورة النكارية في أوجها. فقد أورد أخبارا عن حجم هذا الصراع، ومواقـــف علماء السنة منه.

2. **المالكي**، أبو بكر عبد الله بن محمد(تـــ:474هـــ/1081م) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم تتمثل أهمية الكتاب في حديثه المفصل عن أخبار فتح الأوراس خاصة في حملتي عقبة الثانية وحملة حسان بـــن النعمان، كما أورد بعض النصوص الهامة التي يندر وجودها في غيره من المصادر، كوصايا عقبـــة بن نافع والتي تبين طبيعة الرجل وشخصيته مما يفسر السياسة الصارمة التي سلكها من أجل نشـــر الإسلام وإخضاع البربر، وكذا أراء علماء إفريقية في الدولة العبيدية، وأورد في ثنايا تراجمه صورا عن حجم الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة الفاطميين، والتحالف السني الخارجي ضد الدولة الفاطمية.

3. **الدرجيني**، أبو العباس أحمد بن سعيد توفي في منتصف القرن السابع الهجري، منتصـــف القرن الثالث عشر الميلادي، طبقات المشايخ بالمغرب. اعتمد علـــى تـــاريخ أبي زكريـــاء، أورد الدرجيني معلومات عن نشأة الإباضية وثوراتها ووصفا لشيوخها لأن الكتاب وضع على نســـق

كتب الطبقات ، فكانت فائدته في تتبع الإباضية في المغرب وبعض الجوانب الاجتماعية التي يوردها المؤلف في طيات الكتاب.

4.**المقريزي**، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي(ت 845هـ/1441م) كتاب المقفى الكبير، وهو الذي يسمى (التاريخ الكبير المقفى في تراجم أهل مصر والواردين إليها) وهو قاموس أعلام على غرار وفيات ابن خلّكان، لكن المقريزي لم يقتصر فيه على رجال مصر وحكامها والواردين عليها، بل عرّف ببعض أهل المغرب، كخلفاء الدولة الفاطمية في مرحلتها المغربية. وقد عمد محققه الأستاذ: محمد اليعلاوي إلى استخراج مجموعة من التراجم لمغاربة ومشارقة من الفترة العبيدية، وحققها قبل نشره للمقفى الكبير كاملا. وقد أفادني الكتاب في جوانب مهمة من البحث مثل تعريفه بخلفاء الدولة العبيدية منذ تأسيس الدولة في المغرب، ورجالها وقادتها، كما تضمن الكتاب نصوصا مهمة عن ثورة أهل أوراس ضد الفاطميين حين يترجم للمنصور بالله (301-341هـ) وهي الفترة التي اشتدت فيها الثورة وعظمت حتى شملت معظم المغرب الأوسط وإفريقية.

رابعا: كتب الفقه والنوازل:

1.**البرزلي**، أبو القاسم بن أحمد البلوي (ت841هـ/1438م) فتاوى البرزلي المسماة جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام.والكتاب هو ردود وفتاوى لعلماء المالكية في المغرب والأندلس، وأجوبة عن نوازل حدثت وأقضية استجدت، جمعها البرزلي في كتابه كما كانت له عليها تعليقات وتعقيبات، مما يؤكد تبحره في الفقه وعلومه، وقد استفدت من الكتاب في بعض الجوانب كحديثه عن الخوارج والعبيديين، وموقف أهل السنة منهم، فكشف الكتاب رغم تأخر صاحبه عن الجروح الغائرة التي خلفها الصراع مع هذه المذاهب، كما تحدث باقتضاب عن حكم فتح افريقية والمغرب عند حديثة عن المعادن.

2.**الونشريسي**، أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني(ت914هـ/1509م) المعيار المعرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، والكتاب موسوعة فقهية في الفقه المالكي، وفائدة المعيار أنه يحوي الكثير من النوازل مما جعله يوفر مادة اجتماعية غاية في الأهمية وان كانت متأخرة عكس كتب الفقه التي يغلب عليها الافتراضات النظرية، كما بين دور الفقهاء الاجتماعي وقد استفدت منه في جدل الفقهاء حول أرض المغرب والحكم الشرعي في أرضه.

خامسا: كتب التاريخ المغربية:

1.**القاضي النعمان**، أبو حنيفة بن محمد التميمي المتوفى سنة 363هـ/ 973م كتاب افتتاح الدعوة. يعد المؤلف من رجالات الدولة الفاطمية، أرّخ للدعوة الإسماعيلية منذ بداياتها الأولى في المغرب،كان مطلعا على الوثائق الفاطمية، كما كانت أعماله الأدبية والتاريخية بوحي من خلفاء الدولة خاصة المعز لدين الله، لخدمة الدولة، والانتصار لفكرها وعقيدتها.(1) لذلك فهو كما تقول بوبة مجاني« يعد أهم من كتب عن الخلافة الفاطمية في المغرب على الإطلاق.»(2) وقد اعتمد ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي و النويرى على افتتاح الدعوة. وقد استفدت من الكتاب مما أورده بشأن توسعات الشيعي في منطقة الأوراس وسقوط حواضر الأوراس في يده، ومعاملته للسكان المحليين وأهل الذمة، وطريقة جباية الأموال، وثورة زناتة على الفاطميين بقيادة صاحب الحمار.كما يتضمن الكتاب نصوصا كثيرة تتمثل في الرسائل التي كان زيادة الله الأغلبي يبعث بها إلى عماله يشجعهم فيها على الوقوف في وجه الزحف الشيعي، كما أورد رسائل للخلفاء الفاطميين وخطبهم، ووثائق على قدر كبير من الأهمية.

2.**الرقيق القيرواني**، أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم المشهور بالرقيق القيرواني(المتوفى في 425هـ/1034م) تاريخ إفريقية والمغرب. لا نعرف الكثير عن حياته، غير أنه تولى أعمالا لبني زيري، ثم كلف برئاسة ديوان الرسائل بالقيروان مما مكنه من الإطلاع على الكتب والرسائل المتعلقة بتاريخ المغرب وإفريقية. ذهب إلى مصر رسولا من قبل أمير المغرب أبو مناد باديس الزيري إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي أكرم وفادته وعاد إلى القيروان صحبة الهدية المجهزة إلى أبي مناد.(3) وصفه ابن رشيق بأنه شاعر سهل الكلام محكمه، لطيف الطبع، غلب عليه اسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس.(1)ووصفه ابن خلدون بأنه كان مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقيروان، وكل من جاء من بعده كان مقلدا له.(2)اختلف في كونه كان شيعيا إسماعيليا أم كان سنيا، والذي يرجحه محمود إسماعيل « أنه كان شيعيا إسماعيليا ثم ارتد سنيا على غرار سيده المعز بن باديس. حجتنا في ذلك أنه كان يتولى ديوان الإنشاء في

---

(1) القاضي النعمان: اختلاف أصول المذاهب، تح: مصطفى غالب، دار الأندلس، بيروت173،ص47-48، وقد عرض هذا الكتاب على المعز الذي أجاز له تصنيفه وروايته له ولولده من بعده بعد أن يعرض كل راو منهم على إمام زمانه كما أثبت فيه رسالة التكليف من المعز للجلوس للقضاء، وهذا ما يؤكد مكانة القاضي النعمان في الدولة الفاطمية .

(2) النظم الإدارية في بلاد المغرب خلال العصر الفاطمي، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي، جامعة قسنطينة 1995،ص و.

(3) المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي،ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت1991، ج1،ص255-257.

(1) خير الدين الزركلي: الأعلام،ط5، دار العلم للملايين، بيروت1980،ج1،ص88.

(2) المقدمة: دار الجيل ، بيروت بلاتا،ص5.

عهد سلف المعز بن باديس وهو أبو الفتح المنصور الذي كان شيعيا إسماعيليا أيضا؛ حيث لم تحدث الردة إلا في عهد خلفه المعز بن باديس.»[3]

له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب تاريخ إفريقية والمغرب يقع في عدة مجلدات، ضاع جله، و لم يعثر إلا على قطعة منه، نشرت تحت العنوان نفسه تشتمل على تاريخ إفريقية والمغرب من حملة عقبة بن نافع الثانية حتى وفاة إبراهيم بن الأغلب(196هـ/ 812م) وولاية أبي العباس عبد الله بن إبراهيم. تمتاز هذه القطعة من الكتاب بالتفصيلات الكثيرة التي يوردها المؤلف، وتحقيق في ذكر المواقع والمشاهد. وأهمية كتاب الرقيق أنه كان المصدر الرئيسي للمؤرخين من بعده كما قال ابن خلدون[4]. فقد تحدث عن مقاومة الكاهنة للفاتحين، ومظالم ولاة بني أمية التي دفعت البربر للثورة على الخلافة[5]، كما تحدث عن دور الأوراس في النزاع بين الفهريين واستعانة بعضهم بأصهارهم سكان الأوراس وبالتالي الانخراط في تكريس العصبية القبلية وتوظيفها في قتال بعضهم بعضا.

3.**ابن حماد**، أبو عبد الله محمد الصنهاجي (ت626هـ/1230م) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، والمؤلف كما وصفه الغبريني[6] بأنه فقيه ثقة، من كبراء الأئمة، كان له مجلس علم ببجاية التي استقر بها وبها توفي. وكتابه هو جملة من أخبار بني عبيد ، جمعها من مصادر متفرقة كما يقول، و لم يبين دواعي تأليفه للكتاب مكتفيا بالقول بأن الذي دعاه إلى ذلك ما يدعوا المؤلفين والمؤرخين إلى أمثاله. وقد جاء الكتاب على صغر حجمه حافلا بالأخبار خاصة ما تعلق بخلفاء الدولة الفاطمية في المرحلة المغربية، وقد أورد أخبارا هامة عن ثورة أبي يزيد ومنها موقعة باتنة (أذنة)[1] في قلب الأوراس والتي تعد من أهم المعارك التي خاضها العبيديين ضد النكار. فكانت أهم تحول في مسار الثورة.

---

(3) سوسيولوجيا الفكر الإسلامي ، طور الإزدهار (4) الفكر التاريخي، ط1، سيناء للنشر ، مؤسسة الإنتشار العربي، لندن –بيروت 2000،ص184.

(4) المصدر السابق، ص5.

(5) يذهب الأستاذ علاوة عمارة إلى أن الرقيق وبسبب ميولاته الشيعية كان مناهضا للأمويين والعباسيين، لذلك فهو يقلل من أهمية دور الخلافة الأموية في فتح المغرب، ثم هو يترل جام غضبه على ولاتهم ويحملهم مسؤولية عدم الاستقرار السياسي بالمغرب، وأنهم كانوا وبفعل سياساتهم الظالمة هذه مسؤولون في انتشار الفكر الخارجي ورواجه.الرقيق القيرواني وبلورة الفكر التاريخي ببلاد المغرب، مجلة التاريخ العربي، ع 25، الرباط ، شتاء 1424-2003، ص140.

(6) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تح: رابح بونار، ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1981،ص192.

(1) تح: جلول أحمد البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984،ص41.

4.ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي (ت ق 8هـ/14م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب عاش ابن عذاري في عهد الدولة الموحدية. يعد كتابه من أوثق كتب التاريخ المغربي، لاعتماده على مصنفات مفقودة، لذلك جاء الكتاب غنيا بالتفاصيل خاصة المتعلقة بمراحل الفتح والمصاعب التي واجهت الفاتحين، كما تحدث عن فترة عصر الولاة وما شهدته من اضطراب ومظالم وهي التي مكنت للفكر الخارجي من الانتشار خاصة في منطقة الأوراس والذي سيدفع سكانه للثورة على الفاطميين .

المصادر الثانوية:

أولا: كتب التاريخ المشرقية:

1.ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط العصفري(ت240هـ/854م) تاريخ خليفة بن خياط. يعد أقدم كتاب حولي وصلنا تحدث فيه مؤلفه عن اثنتين وثلاثين ومائتي سنة من تاريخ الإسلام، كان كما يقول ابن خلكان « حافظا عارفا بالتواريخ وأيام الناس غزير الفضل روى عنه محمد بن إسماعيل البخاري...»(2)وأهمية كتاب تاريخ ابن خياط أنه يورد بعض الإشارات القلية عن المغرب كخبر فتح أبو المهاجر لميلة فكانت خيله لذلك هي أول خيل دخلت المغرب الأوسط، كما ذكر غزو حسان بن النعمان أوراس ، ونتوف أخرى تتفرق هنا وهناك، كما يتميز خليفة بن خياط بكونه يورد عمال كل خليفة وقضاة الأمصار، كما كان دقيقا في تحديد التواريخ..

2.ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله(ت 257هـ/871م) فتوح مصر والمغرب. يعد كتابه هذا أقدم ما وصلنا من الكتب عن تاريخ الفتح العربي للمغرب، وإن كان المؤلف لم يخصص للمغرب إلا قليل من الصفحات مقارنة بما كتبه عن مصر.

والكتاب على قدر كبير من الأهمية، لدقة أخباره ومتانة روايته وإسناده. والظاهر أن ابن عبد الحكم قد استقى هذه الأخبار من مصادر مغربية دون الإشارة إليها، فقد روي ما صح عنده من أخبار أو ما قرأ من آثار، وقد أورد أخبار الفتح ابتداء من حملة ابن أبي السرح حتى قدوم موسى بن نصير ثم تحدث أيضا عن ولاة بني أمية والحرب الأهلية بين أحفاد عقبة بن نافع ، والذي أفادني من الكتاب إيراده لبعض أحوال الكاهنة وسياساتها في مواجهة العرب.

---

(2) وفيات الأعيان وأنباء الزمان،تح: احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت 1968،ج2،ص243-244.

3.**ابن الأثير**، على بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بـــابن الأثـــير الجزري المتوفى سنة 630هـــ/1232م الكامل في التاريخ، والذي يعد من أوفـــر المصـــادر المشرقية، وأحفلها بالمعلومات الخاصة بتاريخ المغرب، وقد أشار في كتابه أنه يفضل الرواية المغربية عن غيرها، مما زاد من أهمية الكامل. جاء الكتاب يجمع بين الدقة والتفصيل مـــا جعـــل جـــل الدارسين لتاريخ المغرب يعتمدونه كأهم مرجع مشرقي. وقد استفدت من الجزأين الثالث والرابع، الذين أورد فيهما خبر الفتح على نسق كتب المغاربة حتى قيام الدولة الفاطمية وما نتج عنها من اضطراب شمل المغرب كله خاصة منطقة الأوراس.

4.**النويري**، شهاب الدين أحمد بن عبـــد الوهـــاب بـــن عبـــد الكـــريم المتـــوفى ســـنة 733هـــ/1332م تقلب في الخدمة الديوانية، اجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون فصـــار السلطان يستدعيه ويتحدث معه[1] وكتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، يقول عنه السخاوي بأنه يقع في « ثلاثين مجلدة حافل، ومع ذلك باعه- النويري- بخطه بـــألفي درهـــم»[2] والكتـــاب موسوعة تاريخية تراثية متنوعة، خصص جزء منها لتاريخ المغرب الإسلامي وهو الذي أفادنـــا في البحث. وقد أعتمد النويري على مصادر مغربية هامة كالرقيق ويوسف الوراق وكتاب الأمـــير الزيري عز الدين بن شداد بن تميم الجمع والبيان في أخبار المغرب والقـــيروان ويـــذهب بعـــض الدارسين إلى حد اتهام النويري بالنقل عن المالكي دون تمحيص. وقد استفدت منه في فترة الفتح وعصر الولاة وما أعقب ذلك من صراع ماج به المغرب بفعل ثورات البربر، لكنه أورد تـــاريخ الفاطميين في المرحلة المغربية موجزا كل الإيجاز، فجعله مقدمة لتاريخ مصر.

5.**الداعي إدريس**، عماد الدين القرشي (ت872هـــ/1468م) عيون الأخبـــار وفنـــون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار، والكتاب يدرس في مجمله ثورة الأوراس بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد، ضد الفاطميين، فهو بذلك أغنى المراجع عن الثورة ، كما يحتوي على وثائق فاطمية هامة من خطب ورسائل، وهو ما جعل بعض الباحثين يعتقدون بأن الكتاب في أصله هـــو للقاضـــي النعمان صاحب الافتتاح، لأن الأخير صرح بأنه خصص كتابا لثورة أبي يزيد الخارجي عنـــدما قال:« وقد ذكرت أخباره واستقصيت ذكرها في كتاب ضخم جمعت ذلك فيه..»[1] كمـــا أن

---

(1) المقريزي: المصدر السابق،ج1،ص521.

(2) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ط1،دار الكتاب العربي، بيروت1983،ص151.

(1) تحقيق فرحات الدشراوي،ط2، الشركة التونسية للنشر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،1986،ص334؛ إحسان عباس : مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد، مجلة الأصالة، ع61/60، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر،ص67-69.

الداعي إدريس يكثر من قوله:« قال القاضي النعمان بن محمد _ رضوان الله عليه » وما يرويه عنه ليس موجودا في الافتتاح مما يؤكد الفرضية التي تقول بنسبة الكتاب للقاضي النعمان، والكتاب هو الوحيد فيما أعلم الذي درس الثورة بهذا الشمول ، وإن كانت بنظرة شيعية متعصبة ، فكثيرا ما يصف الثائر بأنه اللعين بن العين، أو الدجال المارق. لذلك فالكتاب خدم البحث بما حواه من النصوص وما أورده من بسط لأحداث الثورة.

كما استفدت من مصادر أخرى ككتب الفرق والمذاهب التي وفرت بعض المواد الخاصة بنشوء هذه الفرق ومعتقداتها كالملل والنحل للشهرستاني، والفرق بين الفرق لبعد القاهر البغدادي..، كما استعنت بمعاجم اللغة العربية في شرح الغامض من الكلمات والألفاظ التي وردت في ثنايا النصوص التي أوردتها، كلسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيروز أبادي ومختار الصحاح للرازي..

المراجع الحديثة:

أولا: المراجع العربية:

1.**السلاوي**، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري: كتاب الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى، والكتاب وان كان مخصصا لتاريخ المغرب الأقصى فإن المؤلف مهد للكتاب بالتعريف بنسب البربر وذكر شعوبهم وأحوالهم قبل الإسلام وبعده ثم تتبع مراحل الفتح ثم تحدث عن مذاهب أهل المغرب، وهو ما جعل كتاب الإستقصا مفيدا في هذا الباب.

2.**شنيتي**، محمد البشير: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني (بحث في منظومة التحكم العسكري- الليمس الموريتاني- ومقاومة المور) الجزء الثاني، والذي أفاد البحث في جوانب عديدة خاصة ما تعلق بالصراع بين المور والبيزنطيين، وقيام الممالك المستقلة ، والوضع الذي كان عليه المغرب عشية الفتح.

3.**بن عميرة**، محمد: دور زناتة في الحركة المذهبية في المغرب الإسلامي، والمرجع خدم البحث عند الحديث عن زناتة وفروعها وصلتها بالبتر، وخصائصها ودورها في ثورة النكار، وعلاقتها بقبيلتي كتامة وصنهاجة.

4.**العروي**، عبد الله: مجمل تاريخ المغرب خاصة الجزء الأول والثاني، وقد خدم البحث في كونه بحث في مواضع هامة لم تدرس بعد من قبيل التنصر السطحي للبربر واستقلال مغرب

الوسط تحت حكم أمراء محليين مثل الأوراس ، وتباين موقف البربر من الفتح بـاختلاف نـوع السكان ، كما أشار إلى الأسباب التي مكنت الخوارج من استقطاب البربر وتجنيـدهم لمحاربـة الأمويين ثم العباسيين ومن بعدهم العبيديين.

5.**سعد زغلول عبد الحميد:** تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصـر الاسـتقلال، والكتاب عبارة عن موسوعة تاريخية تغطي جميع مراحل تاريخ المغرب، والمؤلف اعتمد على كثير من المصادر المغربية، مما جعلني أستفيد من الكتاب في كثير من فصول البحث.

6.**حسين مؤنس:** تاريخ المغرب وحضارته من قبيل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسـي للجزائر من القرن السادس إلى القرن التاسع عشر الميلاديين، وكتاب فتح العرب للمغرب، وكلا الكتابين خدما البحث في جوانب عديدة بما فيهما من تفاصيل سياسية واقتصادية وحضارية.

7. **محمود إسماعيل:** وكتابه الخوارج في المغرب الإسلامي والذي استفدت منه في العديد مـن الجوانب، خاصة الآثار الاقتصادية والاجتماعية لانتشار الفكر الخارجي في المغرب ورغم أن كتابه هذا يدرس حركة الخوارج في المغرب الإسلامي كله، لكنه أهمل منطقة الأوراس الـتي كانـت مستقرا للمذهب وأهم العوامل المحركة للأحداث فيه، لأنه كان الشعار الذي قامت تحت ظلـه حركة المعارضة للسلطة المركزية في إفريقية والمغرب، فهو بالتـالي لا يـرى ينظـر إلى الأوراس كمنطقة مركزية مؤثرة في المنطقة برمتها.

8.**عيبش**، يوسف: المور والبيزنطيون خلال القرن السادس الميلادي، والبحث هو عبارة عـن رسالة ماجستير في التاريخ القديم ، نوقشت بجامعة قسنطينة 1996/1995م وهـي مـن المراجع التي استفدت منها لما حوته من معلومات تتعلق بالأوراس ، خاصة في فصلها الثالث مـن الباب الثاني الذي تناول فيه الباحث مملكة الأوراس من خلال مصادر القرن السادس المـيلادي، وهي الفترة بين عصرين، عصر قديم وعصر وسيط ، فكانت بالتالي مرحلـة انتقاليـة تقضـي الضرورة الإشارة إليها لبيان أوضاع الأوراس قبيل الفتح الإسلامي، خاصة تحت حكـم أمرائـه البربر ، والصراع بينهم وبين البيزنطيين .

ثانيا: الدوريات والمجلات:

كما اعتمدت على بحوث ودراسات نشرت في مجلات ودوريات كمجلة الأصالة الجزائريـة خاصة في عددها الخاص بملتقى الفكر الإسلامي المنعقد بمدينة باتنة سنة 1978م، والذي ضم العديد من البحوث والدراسات المفيدة كبحث الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات « التطور

المذهبي بناحية أوراس في العصر الوسيط.» ومقال الأستاذ موسى لقبال « طبنة مدينة الــزاب و الأوراس في العصور الوسطى»، ودراسة قيمة عن مصادر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد للأســتاذ إحسان عباس ، كما استفدت من بحث الأستاذة بوبة مجاني المنشور في مجلة دراســات تاريخيــة الدمشقية بعنوان « أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافــة الفاطميــة في مرحلتــها المغربية.»

كما وفرت الموسوعات ودوائر المعارف مواد مفيدة خدمت البحث، كدائرة المعارف الإسلامية التي خصص كتابها العديد من المقالات للأوراس، والبربر والإباضية والشــيعة الإسماعيليــة..وإن كانت جل موادها تتبنى وجهة نظر كتابها من المستشرقين.

ثالثا: المراجع والدوريات الأجنبية:

ووفرت المراجع والبحوث الأجنبية مواد أخرى مفيدة أفادت البحث ككتاب Gautier

Le passé de l'Afrique du nord les siecles obscurs ، وهو كتاب مفيد لأنه زاوج بين التاريخ والأنثربولوجيا، رغم أن صاحبه لا يخفي أرائه ومواقفه التي لا تنسجم والنصوص المتوفرة مما يدعو إلى الحذر الشديد من التفسيرات التي يقدما والأحكام التي يطلقها رغم اعتماده على المغربية.

كما استفدت من كتاب ديهل:

Ch. Diehl , L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination Byzantine de l'Afrique du nord (533-709)

خاصة في الجانب المتعلق بأوضاع الأوراس في العهد البيزنطي، والاضطرابات الــتي حــدثت كنتيجة للفساد السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي بلغته الإمبراطورية البيزنطية ممــا دفــع الأهالي إلى الثورة، وهو الوضع الذي مهد الطريق للغرب الفاتحين.

واستفدت أيضا من بحوث ومقالات كتبت في دائرة معارف الإمبراطورية الفرنسية في جزئهــا الخاص بالجزائر والصحراء: Encyclopédie de l'Empire Français – ALGERIE et SAHARA خاصة ما تعلق بالجوانب الجغرافية للجزائر والمراحل التاريخية التي مرت بها، ولعل أهم مقالاتهــا ذلك الذي كتبه كبير حاخامات الجزائر: (Maurice EISENBETH) تحت عنوان:

LES JUIFS -Esquisse historique depuis les origines jusqu'à nos jours

كما استفدت من بحوث نشرت في مجلة (AOURAS) التي أصدرتها جمعية الدراسات والبحوث في تاريخ الأوراس القديم ومقرها باريس، والقائمين على المجلة يسعون لإحيــاء تــاريخ الأوراس

القديم، لكن المجلة تكرّس نفس النظرة الاستعمارية التي تجعل تاريخ المغرب جزء تابعا لتاريخ الضفة الشمالية للبحر المتوسط من خلال الحقب الاستعمارية التي عاشها المغرب.

وفي الختام أتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من كان له يد في ظهور هذا البحث، خاصة الأستاذة المشرفة الدكتورة بوبة مجاني التي شجعتني على إنجاز هذا البحث بعدما عرضته عليها فكرة ليتحول بعد المناقشة والإثراء إلى مشروع بحث، اتضحت معالمه، وبانت عناصره. كما أنها فسحت لي المجال واسعا رحبا للبحث فيه مستفيدا من توجيهات قدمتها، ونصائح ثمينة أسدتها، وملاحظات قيمة سجلتها على المسودات بقلمها، فكانت هذه الملاحظات أفضل مرشد، وخير معين.

كما لا يفوتني أيضا أن أشكر كل من ساعدني على إتمام هذا البحث من قريب أو بعيد وهم كثير لا يسع المجال لذكرهم، وهم بين داعم بمصدر أو مرجع، أو مشجع برأي، وهنا أخص بالذكر: الأستاذ الدكتور مسعود مزهودي أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة باتنة، وأخي الأستاذ إبراهيم رحماني، والقائمين على مكتبات – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم التاريخ بجامعة قسنطينة- ومكتبة معهد العلوم الإسلامية جامعة باتنة، ومكتبة مديرية الشؤون الدينية لولاية باتنة.

وفي الختام أشير إلى أنني حاولت جهدي أن أكون قريبا من الحقيقة قدر استطاعتي فقلدّت من سبقني متى وجدت التقليد مفيدا، وحاولت أن أكون مجددا متى رأيت ذلك مجديا، ولا أبالغ إذا قلت بأن هذه الدراسة تعد الأولى التي تعنى مباشرة بتاريخ الأوراس الاجتماعي في العصر الوسيط الإسلامي لذلك قد تجد من النقد ما تستحق، حتى تستوفي شروط الكمال، وتقوم منتصبة على سوقها. وتلك غاية ترجى، وحسبي أنني بذلت ما تيسر من الجهد على ما قد يشوبه من ضعف، وقلة خبرة. فإن أصبت فذلك محض توفيق من الله، وإن كان غير ذلك فحسبي أنني اجتهدت فلا أعدم بعد ذلك أجر المجتهد،والحمد لله الذي تتم بنعمته جميع الصالحات.

(رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.) (1)

---

(1) سورة البقرة، الآية 286.

المبحث الأول

الأوضاع الاقتصادية:

انعكست سياسة الإلحاق التي اعتمدتها الإمبراطورية البيزنطية، والمظالم التي لحقت بالسكان على تراجع النشاط الاقتصادي القائم أساسا على الزراعة، عندما غَصَبَتْ أراضي البربر ومنحتها للمستوطنين لخدمتها، وحوّلت المزارعين الأهلين إلى أنصاف عبيد يفلحون الأرض، ولكنهم لا يتحصلون إلا على القليل من نتاجها.

كما أسرفت الإدارة البيزنطية في انتهاج سياسة المصادرات، فأطلقت أيدي جنودها ومرتزقتها يجمعون الأموال و الزروع، ويطاردون الناس باسم الدين، أو كنتيجة للفوضى التي عمت الجيش البيزنطي، والذي لم يعد أداة لضبط النظام، بل تحول إلى وسيلة لتكريس الظلم والقهر، وهذا ما أدي إلى ازدهر الاستعمار الاستيطاني الذي آل بالفلاحين إلى ما يشبه العبودية.[1]

لقد عمد (سولمون)[2] أثناء مهاجمة (يبداس)[3] أمير الأوراس إلى انتهاج سياسة الأرض المحروقة، بإتلاف المزروعات والبساتين الممتدة شمال الأوراس، وهي الظاهرة التي لا تعد استثناءً في السياسة التي كانت الدولة تنتهجها للحدّ من تنامي المقاومة المورية.

لما اشتطّت الإمبراطورية في حق البربر وغالت في تقرير الضرائب، و تسويغ استعمال العنف في جبايتها لكثرة ما تحتاجه الإدارة والدفاع والبناء من تكاليف باهظة، ونتيجة لموارد الدولة

---

(1) شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، تر: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط5، الدار التونسية للنشر1985، ج1، ص375.

(2) عسكري بيزنطي خلف الجنرال بليزاريوس في قيادة الجيش في شمال إفريقيا فقام بشن حرب ضد مملكة الأوراس وأميرها يبداس منهجا سياسة الأرض المحروقة، تمكن بعد معارك عديدة من إخضاع القسم الأكبر من الأوراس قبل أن يقتل من طرق قبيلة لواتة البربرية. محمد البشير شنيتي: الجزائر في ظل الإحتلال الروماني –بحث في منظومة التحكم العسكري (الليمس الموريطاني) ومقاومة البربر، ج2،ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر1999،ص412-414؛ يوسف عيبش: المرجع السابق، ص220؛ عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ،ج2، العصر الإسلامي دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية ، دار النهضة العربية، بيروت 1981،ص57-61، 59-Gautier,Op.cit,250.63

(3) قليلة هي المراجع التي تتحدث عن هذا الأمير الذي قاد مقاومة ضد الجيش البيزنطي، وقد كان في مقدوره أن يجمع أكثر من 20 ألف مقاتل، هزيم الجيش البيزنطي واجتاح المقاطعة النوميدية وعاث في مدنها وقراها وأخضع سكانها لسلطانه.

شنيتي: الجزائر في ظل الاحتلال الروماني،ص413؛ يوسف عيبش: المرجع السابق ، ص219-200..
C.Courtois,les Vandales et l'Afrique,Arts et métiers graphiques, Paris1955.p66

القليلة تأخرت رواتب الجند وجُعَالات[4]الأهلين، فازدادت الاضطرابات وعظمت الفتنة، فأخذ الجند يغيرون على مزارع الأهالي ويثيرون الشغب، فتحولوا مع الوقت إلى طلاب مغانم بـــدل أن يكونوا حماة للنظام، فاستبدت الفوضى وازداد الاضطراب، فما عادت الدولة قادرة على ضـــبط العسكر وردهم إلى الطاعة.

يقول (Diehl):« تقاعد الجند عن القتال، أو تهاونوا فيه، أو ادّعوا الحاجة إلى الطعام، أو اصطنعوا التعب، أو اعتذروا بشدة البرد. وإذا ساروا للقتال دخلوا الميدان من غـــير اســـتئذان وخرجوا منه دون انتظار أوامر قائدهم، وربما تركوه دون تردد ساعة الخطر.»[1]

لقد انصرفت الحكومة بكامل جهدها إلى جمع المال. ومن البديهي أن تعجز الولاية عن القيام بهذا العبء الثقيل، مما دفع الحكومة إلى أخذ السكان بالقوة والعنف والضغط والإرهاب، فلم يجد هؤلاء بُدًا من ترك مزارعهم ومتاجرهم، والنجاة بأنفسهم، واحتراف اللصوصية، أو الانخراط في فلول المقاومة.[2]

وهنا لا يمكن أن نُرجع سبب إنخرام الاقتصاد المغربي للسياسة البيزنطية الجائرة لوحدها، بـــل للوجود الوندالي من قبل مما نتج عنه اضطراب في النظـــام الاجتمـــاعي، فاســـتغل الفلاحـــون الاضطرابات التي حدثت في القرن الخامس الميلادي لشق عصا الطاعة، والتمرد علـــى المـــلاك، وتدمير المدن وانتزاع الأراضي وحجز آلات الإنتاج، الأمر الذي شجع ســـكان الأوراس علـــى النزول إلى السهول والزحف على المدن كتبسة وتيمقاد ولمباز وتخريبها كردة فعل على الظلـــم الذي لحقهم.

لم يتوقف التخريب والتدمير إلا على حدود قسنطينة حتى أصبح المســـتوطنون لا يشـــعرون بالطمأنينة لكون الحاميات البيزنطية أصبحت غير قادرة على حمايتهم من البربر، الأمـــر الـــذي

(4) الجُعَالة والجِعالة والجَعالة: ما يجعله له على عمل، والجِعَالة بالفتح: الرشوة، ابن منظور: المصدر السابق، ج11، ص111. لقـــد كانت الإدارة البيزنطية تقدم رُشًا لشيوخ القبائل من أجل اصطناعهم، وجعلهم موالين لها، وقد عملت هذه الوسيلة عملها في إضعاف المقاومة المورية، لكن انقطاعها هذه الأموال دفعتهم في الكثير من المرات إلى شق عصى الطاعة والتمرد عليها.

(1) Diehl.Op.cit. p536

(2) شنيتي:حول الدوناتية وثورة الريفيين بنوميديا ، الأصالة ع61/60، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر 1978،ص28-30.

جعلهم يتراجعون إلى المدن الكبرى بالمقاطعات تاركين الأرياف والسهول للبربر الذين انتشروا في بلاد التل الشمالية دون أن يوقفهم عائق. (3)

لقد بذل البيزنطيون جهودًا كبيرةً لتعمير الولايات الداخلية والنواحي المهجورة في الأوراس، فازدهرت زمانًا في أوائل حكم جستنيان(4)، لكن الاضطرابات وثورات الأهالي وإساءات الإداريين والحكام ما لبثت أن عَدَت على ذلك فأعادته خرابا يبابا، وبذلك تبددت جهود الإمبراطورية البيزنطية في إحياء المنطقة وبعثها من جديد بعدما أصابها الدمار في العهد الوندالي.

لقد شهد المغرب الأوسط في الدور البيزنطي حالة من البؤس الاجتماعي بسبب تكرار غارات البربر غير الخاضعين للروم، وتعنت الروم في مقاومتهم والدفاع عن حصونهم وأملاكهم. كما عملت أيضا على إذكاء نار الخلافات الدينية نتيجة لتعصبها لمذهب على حساب المذاهب الأخرى، وتوظيف هذا الخلاف لممارسة الاستغلال وإدامة الصراع الذي يحافظ على مصالحها إذ لم يكن من هدف للحروب الدينية التي هيجت الأحقاد وأطالت أمد الفوضى إلا إيجاد فرصة سانحة للنهب والمصادرة وإرواء الغليل بقتل العدو الثائر. (1)

فقد قامت السلطة البيزنطية وحلفائها بانتزاع الأراضي الزراعية من أصحابها وطردهم إلى النواحي القاحلة والجبلية. كما عمدت إلى دفع القبائل الرعوية للتخلي عن مناطق انتجاعها نحو الجهات الفقيرة على تخوم الصحراء، مما زاد في تنامي مظاهر العداء، وبالتالي تدعم موقف الدوناتيين كممثلين حقيقيين للمستضعفين، والمدافعين عنهم بدافع الحمِيَّة والانتماء العرقي، والتصدي للاضطهاد الممارس من طرف الدولة البيزنطية.(2)

---

(3) شنيتي: الجزائر في ظل الإحتلال الروماني، ج2،ص411؛ جوليان: المرجع السابق، ج1، ص375.

(4) جستنيان (483-575م) أمبراطور بيزنطا. إشتهر بانه صاغ القانون الروماني الذي طبق خلال حكمه، ولد في ثورسيوم (يوغوسلافيا) كان فلاحا أميا إستطاع أن يشق طريقه في الجيش، ورغم أن أصله ريفي فقد تعلم وقرأ وفكر. صمم جستنيان على استعادة الإمبراطورية الرومانية الغربية، كرّس جهوده من أجل هذا الهدف. ثارت ضده ثورة شعبية في العاصمة لكنه قضى عليها بتدبير من زوجته تيودورا وقائده بليزاريوس، نجح عندما استخلص إيطاليا وشمال إفريقيا وجزء من إسبانيا.شكل لجنة لوضع قانون عام 528م وشرع في تطبيقه سنة534م، مما أدى إلى إلغاء جميع القوانين السابقة.

C.Diehl.G.Marcais:Histoire du moyen Age le Monde Oriental(395-1081) 2e Ed.P.U.F.Paris 1941.pp47-52

(1) مبارك الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث،ج1 ، م.و.ك الجزائر 1989،ج1، ص373.

(2) شنيتي: الجزائر في ظل الإحتلال الروماني،ج2، ص411-412.

لقد بلغت الأزمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية مداها في بداية القرن السابع الميلادي، فلم يبق إدارة قائمة، ولا هيئه اجتماعية يمكنها أن تَحُولَ دون فوضى عارمة كانت تمتد لتشمل المغرب كله، بل الدولة بأسرها.

لاشك أن هذا الوضع الاقتصادي المتردي بالنسبة للأهالي قد زاد من اضطراب الأحوال السياسية والاجتماعية، مما وفر المناخ المناسب للثورة والتمرد، وهو الأمر الذي لم يكن خافيا على العرب الفاتحين منذ أن وطئت خيولهم أرض مصر.

وهنا وجب علينا التنبيه إلى التناقض بين الروايات التي تتحدث عن الحالة الاقتصادية التي كان عليها المغرب عامة والأوراس بصفة خاصة. فالكتاب العرب يؤكدون بأن المغرب كان ظلاً ظليلاً من برقة إلى طنجة، فعمدت الكاهنة إلى حرقة وتدميره في إطار السياسة التي انتهجتها من أجل منع استقرار العرب في المغرب. ولك[illegible] من السوء والتردي جعلتهم ينحازون إلى صفوف المقاومة المورية المناهضة للدولة البيزنطية، خاصة وأن البيزنطيين كانوا ينتهجون سياسة المصادرات وفرض الضرائب على السكان المحليين ومصادرة أملاكهم، والتضييق على أرزاقهم. مما أدى في بعض الأحيان إلى هجرة السكان المحليين إلى المناطق الجبلية فرار من الملاحقات، أو بحثا عن الأمن المفقود. حتى قيل بأن جهات في المغرب كانت من قبل عامرة أصبحت في نهاية الدور البيزنطي تكاد تكون خالية من أهلها فكان المسافر يسير يوما كاملا لا يرى أثرا لبشر. والسبب وراء ذلك هو غياب الأمن، وفقدان الاستقرار، وتعاظم الظلم الذي مورس على الأهالي. مما أجبرهم على إخلاء مناطق شاسعة من بلاد المغرب، وهو الحال الذي سرى على أهل الأوراس، وليس أدلُّ على ذلك من الدمار والخراب الذي حل ببعض المدن وحواضر المنطقة كتيمقاد وبغاي.[1]نتيجة للحروب الضارية التي خاضها (سليمان الخصيى) ضد المقاومة المورية المناهضة للوجود البيزنطي، والتي استخدم فيها كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة، وكأن بيزنطة كانت تحذو في ذلك حذو روما من قبل والتي عمدت إلى تفتيت البنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان عندما عزلت السكان عن بعضهم، وحددت مناطق تواجدهم، ودفعت البعض إلى ما وراء السفوح الجنوبية للأوراس.[2]كما تحول أكثرهم إلى احتراف الرعي

---

(1) يوسف عيبش: المور والبيزنطيون، ص236. C.Courtois,les Vandales et l'Afrique,Arts et métiers graphiques, Paris1955,p341.

(2) محمد البشير شنيتي: التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري وآثاره الاقتصادية والاجتماعية، الأصالة، ع41،جانفي 1977،ص6-7.

كنشاط اقتصادي بديل، فعمل هذا التأقلم مع الطبيعة الجبلية للأوراس على استمرار أهله في مقاومة البيزنطيين حتى مجيء العرب الفاتحين.

لقد عانى سكان منطقة الأوراس من تردي الوضع الاقتصادي والذي نتج عن اشتداد الصراع بين المور والجيش البيزنطي مما دفع بالسكان إلى النزوح إلى الجبال وترك مزارعهم مفضلين عيش الكفاف فاستقرار في المناطق المرتفعة الفقيرة، معتمدين على زراعات معاشية..

كما مارس سكان الأوراس حيث التربة الخصبة، والمياه الوفيرة زراعة الحبوب من حنطة وشعير، فقد تم استغلال مياه الأمطار والسيول في مد القنوات للري، كما هو الحال في المناطق الجنوبية للأوراس حيث عُثر على قنوات استخدمت لنقل المياه للسقي منذ العهد الروماني.[3]

ومارس قطاع كبير من سكان المنطقة الرعي، وهو النشاط الغالب على الأوراس كما سنلاحظ، فالرعاة يتنقلون بقطعانهم بين المراعي المرتفعة في الجبال والتلال، وبين المراعي المنخفضة لما تتميز به من الدفء وخاصة من أجل النتاج من صغار الحيوان. ومما ساعد على انتشار حرفة الرعي أن العشب ينبت سواء كانت الأمطار كثيرة أم قليلة.[1]

ولما كان الأوراس والمغرب الأوسط هو بلد الرعي بصفة خاصة جعل ابن خلدون[2]يفسر كلمة الشاوية التي أطلقت على بعض القبائل في مغرب الوسط وبخاصة في منطقة الأوراس على أنها تعني رعاة الشاة، لما كانوا يملكونه من قطعان من الغنم تملأ أرضهم، وتوفر لهم مصادر الرزق والرفاه.

كما مارس غير هؤلاء من أهل الاستقرار زراعة الأشجار المثمرة، وأهم شجرة عرفها المغرب عامة و الأوراس خاصة هي شجرة الزيتون التي كانت تُكوّن مصدرا للثروة، وما يدل على ذلك وجود آثار لمعاصر الزيتون في مدينة (بادس) الواقعة جنوب الأوراس.[3]كما انتشرت أشجار التين والعنب والمشمش واللوز وغيرها.[4]

---

(3) محمد البشير شنيتي :الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ،ص469.وانظر الاستبصار، مصدر سابق،ص164؛ محمد صغير غانم:مقالات حول تراث منطقة بسكرة والتخوم الأوراسية، ط1، منشورات جمعية التاريخ والتراث الأثري لمنطقة الأوراس، باتنة بلاتا،ص71، محمد البشير شنيتي: التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري،ص19.

(1) سعد زغلول عبد الحميد تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، منشأة المعارف، الإسكندرية1996. ،ج1،ص104.

(2) المقدمة ، ص134.

(3) محمد البشير شنيتي: التوسع الروماني نحو الجنوب الجزائري،ص19.

(4) الإدريسي: المصدر السابق،ص165، الاستبصار، مصدر سابق،ص172.

ومارس سكان حواف الصحراء من البدو رعي الإبل حيث تقل المياه، لكنه لا يُعـدم مـن وجود بعض النباتات الخشنة الصالحة لرعي الجمال، وقد استخدم الجمل في الحـرب كمـا في السلم. إذ كانت ة الكاهنة تحمل صنما لها على ظهر جمل وهي تجوب منـاطق الأوراس أثنـاء حروبها مع المسلمين.[5] كما كانت أهم وسائل النقل التي كانت ترتاد الصحراء، تنقل البضائع التي ينتجها الأوراس من حنطة وشعير وفواكه لبيعها في الصحراء، كما يتم جلب التمـور مـن الصحراء، مما مكن سكان الأوراس والتخوم الصحراوية من لعب دور الوسيط التجـاري بـين المنطقتين، وسيظهر ذلك بوضوح أثناء العهد الفاطمي، عندما أقامت الدولـة مراصـد لجبايـة الضرائب على حمولة القوافل التجارية هذه.[6]

فظهر عند بربر الأوراس نشاط آخر إضافة إلى الزراعة والرعي الذين يغلبان على سكانه، مما أدي إلى وجود شكل من الرفاهية في حواضر الأوراس، حيث الأسواق عامرة بالبضائع والسلع، يصحب ذلك رخص في الأسعار، كما كان الحال ببغاية وبلزمة، ونقاوس، وطبنة.[1]

---

(5) المالكي: المصدر السابق، ج1،ص54. .

(6) ابن حوقل: المصدر السابق، ص71.

(1) أنظر مبحث الأحوال المعيشية في الفصل الخامس من البحث.

المبحث الثاني

الأوضاع الاجتماعية:

لقد انعكست الأوضاع الاقتصادية المتردية التي عرفها المغرب في ظل الحكم الأجنبي الذي تعاقب على المنطقة على التأثير في وضعية المجتمع بشكل سافر عندما حول السكان إلى عبيد وخدام للأجنبي، وتابعا ذليلا له. لقد حرم البربري من مصادر رزقه عندما صودرت أرضه، وغصبت أمواله، ثم استنزفت قواه من خلال الضرائب والمغارم الفادحة التي فرضها الإدارة البيزنطية على الزروع والثمار والمواشي.[1] أو وظفت أعوانا وأتباعا يعملون مرة لمقاتلة البربر ومرة لجمع الضرائب مما مكنها من بسط نفوذها على كثير من المناطق عدا الجبال التي اعتصم بها بعض سكان منطقة الأوراس.

كما كان لخط الليمس الروماني والبيزنطي أهداف اجتماعية ترمي إلى وضع حد فاصل بين القبائل الأوراسية الثائرة في الجنوب، وسكان المناطق الشمالية الذين اسلموا قيادهم للقوى الوافدة حفاظا على المصالح الاقتصادية والاجتماعية كما مكن الاحتلال من إحكام السيطرة على المناطق الزراعية الخصبة التي حولت إلى إقطاعات استفاد منها الجنود المتقاعدين، فأضطر من أجبر على الهجرة جنوبا من السكان المحليين على تغير بعض حرفهم التي درجوا على ممارستها.[2]

---

(1) محمد البشير شنيتي: وضعية الأرض وطرق استغلالها في بلاد المغرب (العهد الروماني)حوليات جامعة الجزائر، ع5 ، 1990-1991،ص110.

(2) محمد الصغير غانم: المرجع السابق، ص91.

المؤكد أن الخريطة البشرية للمغرب خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين لم تكن هـي الخريطة في القرون السابقة، فقد عمل الرومان ومن جاء بعدهم على إحداث تغيرات جوهرية في التركيبة السكانية عندما اصطنعوا عناصر سكانية جديدة موالية لهم كنتيجة لاشـتداد حركـة الاستيطان، وتوسيع الخريطة الزراعية، فحلت عناصر وافدة من أصول يونانية ورومانيـة ومـن الجند المتقاعد بالمدن والأرياف محل السكان الأصليين، وقد شكل هؤلاء المستوطنون والملاك بما حازوه من ثروة طبقة اجتماعية اعتمدت عليها الإدارة المحلية لتثبيت وجودها. وهؤلاء هم الذين يؤثرون موالاة العرب الفاتحين حفاظاً على أملاكهم باتصالهم بحسان بن النعمان عندما عمـدت الكاهنة إلى تبني سياسة الأرض المحروقة لمنع العرب من الاستفادة من موارد إفريقية وثرواتها.[3]

إن هذا هو الوضع الذي كان عليه المستوطنين الأجانب الذين توافدوا بكثرة علـى المغـرب واستقروا في السهول، وسكنوا المدن والحواضر ووجدوا الدعم والتأيد من الإدارة البيزنطية، فيما كان وضع الأهالي يتميز بالصعوبة لأنهم عُمِلوا بقسوة شديدة بقصد إخضاعهم لسلطة الدولـة قسرا أو لمنعهم من الانخراط في المقاومات التي كانت تتفجر بين الحين والآخر.

رغم المحاولات التي بذلتها بيزنطة لإضعاف البربر و تقوية نفوذها، فقد ظلوا محافظين علـى نمطهم الاجتماعي فيما يشبه الاستقلال الذاتي، فلم تتمكن الإدارة البيزنطية ومن ورائها رجـال الدين المسيحيين الذين تعززت مكانتهم وقوي نفوذهم من سلخ البربر من نظامهم الاجتمـاعي القائم أساسا على القبيلة كقالب اجتماعي يعزز الروابط ،ويوطد العلاقات بين الأفراد المنضوين تحت راية القبيلة، فقد كانت القبيلة كما يقول العروي[1]:« نظام وقائي..والأجدى – لنا- هو أن نرى في ظاهرة القبيلة عنوان الثوبة إلى الذات في ظروف قاهرة.» ، وليس أدل على ذلك من استمرار هذا النمط المجتمعي طوال فترات الفتح، حينما شكلت القبيلة المادة الأولى للمقاومة لمـا تحالفت قبائل الأوراس مع بعضها البعض للوقوف في وجه الفاتحين المسلمين.

ويمكن تحديد عناصر السكان في الأوراس في العهد البيزنطي تبعـا للمسـتوى الاجتمـاعي والاقتصادي. كما عمدت الإدارة إلى فرز سكاني تبعا لولائهم لها، لذلك نجد جـل المـؤرخين يفرقون بين ثلاثة طوائف من السكان كانوا يسكنون المنطقة زمان الفتح الإسلامي وهم الـروم والأفارقة والبربر:

---

(3) محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب،ص225-226 .

(1) مجمل تاريخ المغرب، ط5،المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، ج1،ص99-100.

أما الروم: فيراد بهم البيزنطيين الذين وجدهم المسلمون في البلاد غداة الفتح، والذين ظلـــوا يكونون جماعات منفصلة عن البربر، رغم وجود حالات تزاوج واختلاط بينهم وبين الأهـــالي. كما يذكر بعض المؤرخين العرب أن الكاهنة ملكة الأوراس كان لها ولد من رجل يوناني إضافة إلى ولدين من رجل بربري، وهو ما يؤكد حصول هذا الاختلاط.[2] لكنه بقـــي محـــدودا و لم يتجاور التحالف والجوار في الخدمة العسكرية في كثير من الأحيان. ولجأ البعض منهم إلى دواخل المغرب بعدما تم القضاء على الوجود الوندالي، فوجدوا الظروف مواتية للامتزاج مع بربر الدواخل ولما استقر الإسلام في المنطقة اعتنقوه فصاروا بذلك جزء من المجتمع البربري ، لذلك يرى البعض أن الشقرة الموجودة في البربر هو نتاج

جاؤوا من أوروبا، أو من قارة أسطورية اندثرت، كانت في موضع المحيط الأطلسي.[1]

وأما الأفارق أو (الأفارقة): فهم أخلاط من الناس كانوا يستقرون في المناطق السهلية العامرة والمحيطة بالمدن البيزنطية، وهم بدورهم مزيج من المستعمرين السابقين، وجماعة من البربـــر ممـــن دخل في طاعة القوى الوافدة. وهم كما يصفهم (غوتي) [2]حماة النظام من أهـــل قرطاجنـــة أو رعاياها. ومن الممكن أن يكون هؤلاء هم أهل البلاد الذين اختلطوا بالروم فظهر منهم جيل من المولدين الداخلين في خدمتهم، و الذين إنصبغوا بالحضارة الرومانية، كما يكونوا اعتنقوا المسيحية تأسيا بسادتهم، فامتلكوا الأراضي والإقطاعات الزراعية مما يجعلهم يستعينون بالفاتحين المســـلمين ضد الكاهنة عندما عمدت إلى اتّباع سياسة الأرض المحروقة لمنع المسلمين من التقدم نحو دواخل المغرب الأوسط.

أما (المور) أو البربر: فهم ينقسمون إلى طائفتين مختلفتين، طائفة البربر الحضر: وهم ســـكان المناطق الشمالية والسفوح المزروعة. وطائفة الرحل الذين يتحركون بين الصحاري والنجود شرقا وغربا. والفوارق بين الطائفتين اجتماعية وليست جنسية، وليس منشأ هذا الاختلاف انتســـاب

---

(2) ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح: س كولان ول. بروفنسال، دار الثقافـــة بـــيروت 1982، ج1، ص27.

(1) Gautier (E.F), Le passé de l'Afrique du Nord, les Siècles Obscurs, Payot, Paris1952 ,p 29.

(2) Ibid,p100

كل طائفة إلى أب كما يذهب إلى ذلك ابن خلدون،[3] لأن البربر المستقرين يترلــون المنــاطق الخصبة شمال الأوراس وهم على درجة من التحضر، لأنهم كانوا على صلة بالقرطاجيين واللاتيين، وحضارات البحر المتوسط. في حين نرى البدو الرحل يحترفون الرعي ويترعون إلى الغارة على من جاورهم كعادة القبائل .

لقد كان التباين والاختلاف بين الطائفتين سببا للصراع الطويل بين الطرفين مما حال دون تحقيق وحدة سياسية، تمكن البربر من مواجهة الغازي المحتل، بل لقد مكّن هذا الصراع الأجــنبي من الاستعانة بفريق منهم على آخر. فعمل هذا الصراع عل منع قيام دولة مركزية تجمــع شمــل البربر وتوحدهم في مواجهة أعدائهم.

يذهب(غوتي)[1] إلى القول بــأن التوزيــع الجغــرافي للبتــر ومنــهم زناتــه قــد شمــل الصحراء...وضواحي الأوراس والهضاب العليا وكلها مناطق رعي تصلح تربتها لإنبات العشب، كما تتوفر على المياه فنشط فيها الرعي، وهي بذلك أرض الغنم دون منازع، مما يجعل ســكانها يستنكفون عن العمل الزراعي الشاق الذي يحتاج إلى جهد كبير، ويســتغرق معظــم فتــرات السنة[2].

لقد أحتفظ بربر الجبال ومنهم بربر الأوراس بأنماط حياة تقليدية بعيدا عن تــأثير المــدنيات الوافدة على المغرب. فلم يستطع المحتل صهر شخصيتهم وإذابتها. وبالتــالي إخضــاعها لنظمــه وقوانينه، فقد فضل سكان الأوراس العزلة وتجنب الاندماج في الأجنبي وتقبله، بسبب التنــافر في العادات والطباع.

فقد كان أهل الأوراس يألفون حياة الترحال باعتبار أغلبهم من البدو المتنقلين مع قطاعــان ماشيتهم. كما ساهم في تشكيل نمط حياهم عزلة جبل أوراس، وصعوبة دخوله فظلــوا طــوال الوقت مستقلين بجبلهم معتصمين به.حتى قال بروكوب وهو يصــف منطقــة الأوراس بأنهــا

---

(3) العبر، كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط1، دار الكتــب العلمية، بيروت1992،ج7،ص5-6

(1) Op.cit,p207.

(2) محمد البشير شنيتي : الجزائر في ظل الاحتلال الروماني ،ج2،ص522.

مرتفعات مناهضة لمن يباشرها لأول مرة لكنها في الوقت نفسه هي النعيم لمن يعيش بها أو يعبرها لأول مرة مسالما[3].

المبحث الثالث

الأوضاع السياسية:

لقد حلّقت بيزنطة أيام جستنيان على جناح الخيال زمنا قصيرا وترامى بها الطموح إلى محاولة بعث عهد روما في أوجها. فمضى يجدّ بها في السير لإدراك تلك الغاية، وذلك الهدف. حتى أجهدها، وهي في حالة متقدمة من الشيخوخة تتهاوى نحو السقوط، فعلائم الانحلال بدأت تتفشى في كيانها.

فعندما تولى جستنيان عرش الدولة البيزنطية (527-565م)[1]كان أول ما اهتم به هو استرداد بلاد المغرب من الوندال، فأرسل قائده بيليزاريوس الذي تمكن من هزم الوندال واستعاد المغرب.

(3) Op.cit,II,p23

(1) Diehl. Marcais:Op.cit.p49.

حَسِبَ جستنيان أن إنهاء الوجود الوندالي يمكّنه من إحياء السلطان الروماني القديم، وما يتبعه من مظاهر حضارية،كتجديد المنشآت الرومانية من معسكرات وحصون وقلاع. لكن هذا الحلم لم يكن ليتحقق؛ لأن سلطان الروم لم يكن يتجاوز الساحل الشمالي لإفريقية أو ما كانت قرطاجة تسيطر عليه من قبل.

ولأن بيزنطة اعتبرت وجودها بالمغرب هو إعادة فتح روماني له وتحريره من أيـــدي البرابـــرة الوندال، وممالك البربر القومية. فقد حاولت دعايتها أن تبرز حجم الدمار واتساع حالة الخراب الذي خلفه البرابرة الوندال، حتى يصلوا إلى أن إعادة إحياء هذه المقاطعة إنما كان بفضل جهـــود جستنيان الذي أمر ببناء المدن وترميمها. [2] ومن ثمَّ لم يغيروا الإدارة السابقة التي تَمَتُّ لـــلإدارة الرومانية بصلة. وكان همهم الرئيسي هو المحافظة على المناطق التي أعيد احتلالهـــا مـــن الـــبلاد و التحصّنُ وراء أسوار القلاع التي أقيمت على أنقاض المدن الرومانية الخربة.[3] أما بقية الدواخل فقد زال منها كل أثر للرومان خلال العصر الوندالي.[4]

فعندما توفي القديس أوغسطين[1] سنة 430م أخذ النفوذ الروماني يتلاشى ويضمحل بصفة نهائية من شمال إفريقية. والسؤال الذي يطرح نفسه، كيف ضعفت التأثيرات الرومانية لدرجة أنها

---

(2) يوسف عيبش: حول مدن المغرب في نهاية التاريخ القديم، مجلة سرتا، ع12، جوان1999، جامعـــة قســـنطينة. ص27.

(3) محمد البشير شنيتي :، المرجـــع الســـابق،ص111؛ Louis LESCHI, l'Algérie dans l'antiquité, Encyclopédie de l'Empire Français ,tome 1,paris,p55.

(4) السير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ، بحث في تاريخ العقيدة الإسلامية ، تع: حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النجراوي، ط3، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة1970،ص144.

(1) إسمه الكامل : أوريليوس أوغيطينوس ولد في تاغست وهي مدينة سوق أهراس الحالية سنة 354م في أسرة متوسطة جمعت بـــين الإيمان والوثنية ،فقد كان والده باتريك وثنيا ، فيما كانت والدته مونيكا متدينة بالمسيحية ، درس أوغيسطين بمعهد مداوروش ،ثم ذهب إلى قرطاج لمواصلة تعليمه العالي حيث أقام خمس سنوات درس فيها البلاغة ،كما مكنته مواهبه من أن يكون نحويا بارعا مما فـــتح لـــه الطريق نحو العواصم الثقافية الكبرى في ذلك العصر مثل روما وميلانو. سافر إلى روما ثم إلى ميلانو حيث صار أستاذا للبلاغة، وفيهـــا بدأت صلته بالمسيحية التي اعتنقها سنة387م وعمره يومئذ 32سنة فتم تعميده ومنذ اعتناقه المسيحية الكاثوليكية وهو يناضل في سبيله فقد أصبح كاهنا ومستشارا لأسقف قرطاج وصديقا له ،ثم عين أسقفا لهيبون على مدار خمس وثلاثين ســـنة ، دافـــع عـــن المســـيحية الكاثوليكية بلسانه وقلمه وفكره كما ساند الحكومة في محاربة الكنيسة الدوناتية . يعد القديس أوغسطين أحـــد الأعمـــدة الـــثلاث في المسيحية بعد المسيح والقديس بولس. روني إيلي ألفا:موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب،ط1، دار الكتـــب العلميـــة، بـــيروت 1992،ج1،ص155-158.

Serge Lancel et Paul Mattei,Chrétiens des premiers siècles en Algerie, Matidja, Alger2003,p9-11.

صارت مجرد ماضي ولى بالنسبة للبربر رغم الجهود الجبارة التي بذلت لتكريسها، وفرضها حتى بقوة السلاح .

من هنا يمكن القول بأن نوميديا ترومنت بشكل جزئي. فسكان الساحل والسهول تبنوا الحضارة اللاتينية من دون صعوبة، ولكن سكان المناطق الجبلية، ذات المسالك الصعبة، لم يتأثروا إلا بشكل جزئي إذ عاد البربر إلى الاستقلال التقليدي القديم، وأنصرف عن المسيحية أغلب من كان قد دخل فيها. [2]

وبصفة عامة كانت خريطة البيزنطيين السياسية في إفريقيا هزيلة، وأن الرقعة الجغرافية التي كانوا يمارسون عليها نفوذهم تنحصر في الشريط الساحلي لتونس الحالية مع احتفاظهم ببعض القلاع المنتشرة في الداخل.

يصف (diehl) خريطة البيزنطيين السياسية في القرن السادس قائلا: «بأنه رغم احتفاظهم بالحصون القوية التي أنشئوها أيام قوتهم بشمال الأوراس (كبغاية وتيمقاد ولمبيز) إلا أنهم فقدوا سيطرتهم على الأوراس والحضنة، كما تقلص نفوذهم السياسي على المجتمع المسيحي في تلك الجهات.»[3]

ثم إن هذه التحصينات التي عمل البيزنطيون على ترميمها تدل في الحقيقة على مدى انحصار وانكماش الحدود الرومانية. فرغم أن بقاياها وآثارها تدل على النشاط الذي بذله الروم وسرعتهم في العمل ؛ إلا أنها تفصح في الوقت نفسه عن المتاعب التي واجهتهم من قبل أهل البلاد ، وكان لجبل أوراس الدور الكبير في تلك المقاومة.

بقيت القبائل البربرية في دواخل المغرب محتفظة بما لها من القوة والشخصية والاستقلال وزادت جرأة البربر على اختراق الرباطات. والهجوم على الولايات البيزنطية واحتلال الكثير من الحصون و المحارس. وكلما انسحب الروم من جزء من الأرض حل البربر محلهم فيه. حتى انتهى الأمر بإفريقية البيزنطية أن تكون شريطا ضيقا لا يكاد يتجاوز الخط الممتد من سوسة إلى سبيطلة

---

(2) Stéphane Gsell, L'Algerie dans l'entiquité,Alger1900,p55-56 .

(3) Op.cit,p536.

في أوسع أجزائه. أما فيما عدا ذلك فاقتصر على مدائن الساحل و أرباضها ومـا حولهـا مـن المزارع.

لم يبق مناوئا لسولمون Solomon كما يقول جوليان إلا العدو الذي لا تنتهي عداوتـه وهو البربري. مما جعله يتجه مرة أخرى إلى الأوراس. وقصد حسب بروكوب بلا شك مجموعة الجبال الممتدة جنوبي خنشـلة وتيمقـاد و لمبـاز[1] حيـث -انهـزم مسـاعده (قنتـاريس Guntharis)- وعسكر سولمون بجيوشه هناك ليشرع في حرب اسـتتراف تسـتهدف سكان الأوراس ومملكة يبداس.

كان يبداس زعيما لمملكة الأوراس يبسط سلطانه على الجبل والسهل معـا، سـيطر علـى السهول في شرق الأوراس وغربها، وكسب ولاء القبائل الصحراوية الساكنة في الجنوب بالقرب من مدينة بادس.[2] ومن السفوح الشمالية كانت جيوشه تغيرُ على المستعمرات البيزنطية. فكان ذلك سببا في مسعى سلمون للقضاء عليه تكريسا للسيطرة البيزنطية، والإجهاز على كل مصدر للمقاومة المورية للاستعمار البيزنطي.[3]

لقد تمكن القائد سولمون من هزيمة يبداس ونهب المحاصيل الزراعية حول تيمقاد. ثم تعقب ملك (L'Aurasion) ورجاله البالغ عددهم العشرين ألفا وبعد طول قتال وكر وفر تمكـن من اقتحام تحصينات تومار(Toumar) المقامة فوق قمة جبل الأوراس، ووصل إلى تحصينات صخرة (جمنة) المنيعة (Geminianus)[1]حيث أودع يبداس نساءه وكنـوزه. وهكـذا

---

(1) هي معسكر الفيلق الثالث (أوغست)، يعد من أهم المعسكرات الرومانية في شمال إفريقة ، شيدت بالقرب منه مدينة تيمقاد بأمر من الإمبراطور (تراجان) في عام 100ميلادية لتكون مستقرا للضباط العسكريين المتقاعدين. منير بوشناق: المدن القديمة في الجزائر ، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر 1978،ص37-38.

(2) بادس إسم لموضوعين بالمغرب كما يقول الحموي بادس فاس وبادس الزاب المصدر السابق، ج1،ص317. وبادس التي نعني هي مدينة كبيرة لها حصنان وأرباض واسعة وبسائط كثيرة ومزارع جليلة يزرعون فيها الشعير مرتين في السنة على مياه جارية وبها نخيل كثير وجميع الفواكه والثمار، وهي مدينة للأول وهي آخر بلاد الزاب.مجهول: كتاب الإستبصار، مصدر سابق،ص175.

(3) Courtois,Op.cit,p341, Mahfoud Kaddache,L'Alger dans l'antiquite, S.N.E.D,Alger1972,p221

(1) هي قلعة تاجمينت (جمينة) تقع في جبل أحمر خدو جنوب الكتلة الأوراسية ، وهي عبارة عن صخرة منيعة ومعزولة عن محيطها تماما تنتهي بقمة مسطحة طولها حوالي مئة متر وعرضها خمسون مترا ، يصعب الوصول إليها إلا عن طريق شق طبيعي بداخلها يخترقها مـن الأسفل إلى الأعلى حيث القمة ، أين توجد آثار قلعة محلية ، أو تجمع سكني محصن.زهير بخوش: آثار القلاع المحصنة والملاجئ الكهوفيـة بأوراس، مجلة أوراس الكاهنة، ع01،جمعية أوراس الكاهنة ، باتنة 1995،ص82-84.

أسفرت حرب سولمون عن نجاح باهر.[2]ولكن إلى حين فأمير الأوراس الذي حارب البيـــزنطيين أربع سنوات، التجأ تحت ضغط سولمون إلى الغرب ليسترجع أنفاسه قبل أن يعيد الكـــرة مـــرة أخرى سنة 546م[3]

وقد أثير جدل كبير بشان سيطرة البيزنطيين على الأوراس بين مؤكد لهذا الاحتلال ومنكر له فبروكوب(Procope)يؤكد احتلال البيزنطيين لمنطقة الأوراس وما حولهـــا مثـــل باغايـــة وتيمقاد، يؤيد ذلك ما عثر عليه من بعض البقايا الأثرية في تهودة تقدم فكرة عن امتداد النفـــوذ البيزنطي إلى الشريط الصحراوي[4]، لكن الأستاذ (Diehl)[5]ينفي إمكانية السيطرة هـــذه على الأوراس. معللا ذلك بحرية تحرك القبائل المورية القاطنة بالأوراس وسهولة اتصالها بالمنـــاطق الصحراوية أو الموريتانية. وقد اتضح ذلك بشكل جلي في حروب سكان الأوراس مع بليزايريوس وخلفه سولمون.

أما جوليان فيرى أن الليمس البيزنطي لم يكن يخالف الليمس الروماني الذي كان يمر بجنوب الأوراس وليس بشماله.[6]

وحتى إذا سلّمنا بامتداد الاحتلال البيزنطي حتى جنوب الأوراس فقد يكون ذلـــك لفتـــرات محدودة فقط، بعد الانتصارات التي حققها سولمون سنة 539م. لكن سرعان ما نشطت المقاومة المورية نشاطا كبيرا بقيادة زعماء القبائل في الأوراس من أمثال (يبـــداس، وأنـــتلاس). فـــانهزم البيزنطيون عدة مرات، مما ألجأهم إلى الغدر في غير ما مناسبة. كما اضطروا مرارا إلى أداء الفِدَى وتقديم الهدايا النفيسة لزعماء القبائل لشراء الأمن والاستقرار.

ومما يؤكد ضراوة المقاومة التي شهدها الأوراس ضد الوجود البيزنطي مساعيهم لاســـتمالة زعماء المنطقة والتحالف معهم، لأن قواد بيزنطة أدركوا أن البربر لا يمكن أن يهزمهم إلا البربر!. فاستدرجوا قبائل الأوراس إلى التحالف معهم بقيادة يبداس وإفسيدياس؛ مما مكنهم مـــن قتـــل أنتلاس أحد الزعماء المناهضين للاحتلال البيزنطي.[1]

---

(2) جوليان : المرجع السابق،ج1،ص370، 369.

(3) عبد الله العروي :ج1، ص114.

(4) يوسف عيبش: المور والبيزنطيون ،ص133.

(5) Diehl,Op.cit , p 537

(6) جوليان : المرجع السابق ،ج1،ص363.

(1) يوسف عيبش: المور والبيزنطيون، ص 244.

فإذا كان الجنرال سولمون قد استطاع أن يهزم القبائل المستوطنة والمستقرة، فإن قواده فشلوا أمام القبائل الرحل، وقضى نحبه وهو يحاربهم. ومنذ ذلك الوقت أصبحت بيزنطة في مواجهة مباشرة مع فريقين من البربر سيكون لهما دور بارز في تاريخ المغرب عامة وتاريخ الأوراس بشكل خاص وهم:

- المزارعون المستقرون في شمال الأوراس وغربه.
- والرعاة الجمّالة الذين انتهوا إلى الجزء الشرقي من الأوراس مستعدين لمواصلة السير نحو الأنجاد والسهول.

لقد شهد المغرب فترة قصيرة من الاستقرار كانت خلالها الدولة البيزنطية حَكمًا بين الأهالي فيما شجر بينهم من خلاف، وربما تكون كسبت حق اختيار رئيس القبيلة عندما يموت رئيسها.[2] الأمر الذي قد يكون شجع بعض البربر للدخول في الجيش الإمبراطوري والانخراط فيه فرسانا ومشاة مما سيبعث في نفوسهم الشعور بالقوة، و يتمكنوا من معرفة أساليب الحرب، وقد كانوا يحافظون على الولاء للإمبراطورية ما حافظت هي الأخرى على حقوقهم.

لكن فترة الوفاق هذه لم تدم طويلا بسبب السياسة التي كان الروم يمارسونها. فقد نظروا إلى المغرب على أنه موردًا من موارد المال والمؤن للدولة. فزادت مظالم الحكومة، و لم تقف عند حد اضطهاد البربر، بل تعدتهم إلى جميع العناصر التي سكنت المغرب ، فقد أظهر الولاة الروم صنوفا من القسوة وصلت إلى حد إعدام أعيان قبائل بربرية بسبب شكواهم من إنتهاب محاصيلهم الزراعية.

ومما زاد الطين بلة، وساهم في تفاقم الوضع احتكار الأراضي والإسراف في سياسة المصادرة والتهجير القسري للسكان، إضافة إلى تحويل المزارعين إلى طبقة من أنصاف الرقيق. ناهيك عن الضرائب الثقيلة التي كانوا يرهقون بها سكان البلاد.[3]

لقد وصل الخراب بالبلاد في أواخر جستنيان إلى درجة أن المسافر كان يمشي أياما في بعض النواحي لا يصادف أحدا لخلو البلاد من ساكنيها. حتى أن بقايا الو ندال مُحقوا تماما في إطار التصفية العرقية التي انتهجتها الإمبراطورية البيزنطية ضد كل معارض لسياستها الانتهازية الظالمة.

---

(2) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، ص23.

(3) عبد العزيز سالم: المغرب الكبير،ج2، العصر الإسلامي، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية،دار النهضة العربية، بيروت 1981،ص68.

كما انتشر وباء الرشوة بين الإداريين وفي دواوين الحكومة مما أدي إلى انهيار القيم الأخلاقية، واستهتار الحكومة بمصالح البلاد والعباد. وهو ما أثار موجة عارمة من الاضطراب و الاحتراب فلم يستقر الوضع للبيزنطيين بعد ذلك مما أعاد المغرب خرابا يبابا كأن لم يغن بالأمس.(1)

لقد ضعف النفوذ البيزنطي إلى الحد الذي هدد بمحو آثارهم عندما استبدوا وظلموا، وأسرفوا في قهر من كان تحتهم من البربر دون مراعاة للظروف المستجدة، ونزوع الأهلين للثورة والاضطراب وإرادة التحرر. فقد تضَامّت صفوف جماعاتهم القبلية، وتجددت فيهم الوطنية البربرية. إن بربر السهول والحواضر وما جاورها اختلطوا حقيقة بالرومان، لكن بربر الصحراء والجبال لم يبلغ شيء من تأثيرات الرومان إليهم بعد سبعة قرون من التسلط الروماني على إفريقية، لقد وجد البيزنطيون الجنس كما كان قبل ذلك التسلط. ثوار القرن السادس حاربهم البيزنطيون في الأوراس، إنها طبائع متحدة وأعمال مماثلة وكراهية واحدة للأجنبي، ومحبة واحدة للحرية وصفة واحدة في الحرب

كانت السياسة البيزنطية التي مارستها على الأهالي سببا للإضرابات وكثرة الثورات البربرية، مما أحال حكومة إفريقيا إلى منطقة عسكرية يحكمها قائد حربي مما يؤكد طبيعة الوجود البيزنطي في بلاد المغرب عامة والأوراس بصفة خاصة فالتحصينات والأسوار والقلاع توحي بهاجس الخوف وعدم الاستقرار اللذين ميزا هذه الفترة.

و تفسير ذلك كما يرى جوليان هو أن الحكم البيزنطي كان في الأساس يعتمد على التحصينات أكثر من اعتماده على الجند، فعندما هدَّم الوندال أو أهملوا البناءات الرومانية وجب ترميمها وتشييد مباني أخرى لتوطيد السياسة الدفاعية التي سعى جستنيان إلى توطيدها في كامل الإمبراطورية وهو ما يؤكد اعتماده نفس السياسة التي سارت عليها روما من قبل.

إن السياسة التي انتهجها الروم قد عجّلت بذهاب ريحهم وأفول دولتهم من المغرب. فقد استبدت الفوضى بكل شيء وعم الفساد السياسي والإداري والمالي ربوع المنطقة فلم يعد بمقدور الإمبراطورية تدارك الأمور بالإصلاح. بل لقد اتجه المغرب إلى الاستقلال عندما شعر حكام المنطقة بضعف قبضة الدولة.

---

(1) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ص26.

فعندما مات هرقل كان الوالي على إفريقية هو البطريق (غريغوريوس) الذي يسميه العـــرب (جرجير)[1] قد أعلن الاستقلال وخلع على نفسه لقب إمبراطور وجعل العاصمة مدينة سبيطلة[2] الواقع إلى الجنوب الغربي من مدينة القيروان.[3]

لقد أنتعش المغرب بعض الشيء في عهد غريغوريوس سبسب الهدوء الذي استتب في عهـــد أبيه وجده ، والدليل على ذلك إسهاب المؤرخين المسلمين في ذكر ما كانت عليه البلاد من وفرة الزروع والثمار حتى وصفوا المغرب بأنه كان ظلا واحدا من إفريقية إلى البحر المحيط قبل أن تعمد الكاهنة إلى حرقه.[4]

يؤكد (غوتي) بأن الإنسان يجد في أرض السهوب فيما يلي القيروان جنوبـــا وفي الســـهول الواسعة المهجورة الممتدة جنوبي هضبة الأوراس في كل خطوة آثار مدن كبيرة وصغيرة، وقـــرى آهلة مزروعة على امتداد البصر. كانت هذه المناطق عامرة بالسكان رغم ما شقيت بـــه مـــن حروب ونزاعات.[5]

تمكن أهل الأوراس من الاستقلال تحت حكم أمرائه لما ضعف الوندال، وقد كانوا أمة حربية لا تهتم بأمور الإدارة والسياسة، وحسبهم ما يغنمون من الحـــروب والمعـــارك، فلمـــا انتصـــر البيزنطيون عليهم وطردوهم من المغرب أرادوا العودة إلى سياسة الرومنة التي كانت الإمبراطورية الرومانية تعمل بها من قبل، والتي تقضي بإخضاع الأرض، وقهر سكانها بقوة القـــانون أو بحـــد السلاح، ما جعل المنطقة برمتها تستمر في اضطراب حتى مجيء العرب الفاتحين.

---

(1) يسمه العرب جرجير كان قد استخلفه هرقل على مدينة قرطاجنة مستقر سلطان إفريقية ، فاستقل بولاية إفريقية وضرب الســـكة باسمه كان سلطانه كما يقول إبن عبد الحكم يمتد من طرابلس حتى طنجة ، قتله عبد الله بن الزبير.فتوح إفريقية والأندلس تح:عبـــد الله أنيس الطباع، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت1964، ص35.

(2) سبيطلة كانت مدينة جرجيس ملك الروم الأفارقه وكانت من أحسن البلاد منظرا وأكبرها قطرا وأكثرها مياها وأعدلها هواء وأطيبها ثرى وكانت بها بساتين وجنات وافتتحها المسلمون في صدر الإسلام وقتلوا بها ملكها العظيم المسمى جرجيس ومنها إلى مدينة قفصـــة مرحلة وبعض ومنها ايضا إلى القيروان سبعون ميلا. الإدريسي: المصدر السابق،ص184.

(3) الفرد بل: المرجع السابق،ص77

(4) النويري: ، ج24،ص19؛ المالكي: المصدر السابق، ج1، ص53.

(5) Op.cit.p525.

قليلة هي المصادر التي تتحدث عن هذه المملكة، أو الإمارة المستقلة التي أقامها سكان الأوراس وما توفر من مواد ونصوص تؤكد بأن سكان الأوراس كانوا تحت حكم أمراء مـــن المـــور، وأن الإمارات البربرية لم تتكون صدفة بل هي نتيجة لجهود بذلها أمراء جمعوا القبائل في شكل اتحـــاد قبلي (كونفديرالي) لتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم. وقد تكونت الإمارات المورية المســـتقلة في الفترة الوندالية والتي شهدت دواخل المغرب استقلالا كاملا شجع البربر على التوحد.

وقد كانت مملكة الأوراس التي أسسها الملك (يبداس) Ibdas في منتصف القرن السادس الميلادي[1] أقوى هذه الممالك، إذ كان بمقدور ملكها جمع ثلاثين ألف فارس دفعة واحدة.[2]

تمكن ملك الأوراس من بسط نفوذه على جبال الأوراس وسهولها الواقعة في الشمال والشمال الغربي، كما عقد تحالفات مع بعض أمراء المور في تبسة والحضنة. لكن هذا التحالف سرعان ما تصدع بسبب اتصال ملك الأوراس وتفاوضه مع البطريق (جرمانوس)، وكأنه أراد الحصول على التأييد البيزنطي، أو حيازة الشرعية في تمثيل المور. إلا أن القائد البيزنطي (ســـولومون) لم يكـــن مستعدا لتقبل الأمر، والاعتراف بهذا الاستقلال وهو الذي خلف الجنرال بليزاريوس على إفريقية عندما استُدعي هذا الأخير إلى القسطنطينية، فأعد حملة عسكرية كبيرة لغزو الأوراس فتمكن بعد معارك عديدة من إجبار ملك الأوراس على التراجع إلى الصحراء،[3] كما اســـتخدم أســـلوب الإغراء لاستمالة المناهضين لبيزنطة خاصة شيوخ القبائل وزعمائها. لكن التوتر ظل قائما ولمـــا أعلن (حرجير) الاستقلال عن الدولة الأمم تحالف مع البربر وناصروه.

---

(1) يوسف عيبش:المور والبيزنطيين،ص234.

(2) Ch.Diehl,op.cit,p43.

(3) عبد الله العروي: المرجع السابق،ج1،ص114.

المبحث الرابع

الأوضاع الدينية والثقافية :

إذا كان هدف الإمبراطور(جستنيان) هو إرجاع السلطة الرومانية إلى ما كانت عليه من قبل في المغرب، فإنه عمل في المقابل على إرجاع نفوذ الكاثوليكية إلى سالف عهدها، والمقصود هنا الكاثوليكية الخاضعة لسلطة الإمبراطور.

فقد استقبل الكاثوليك في المغرب الوافدين الجدد من البيزنطيين بحماس شديد، و عملوا على استرجاع ما فقدوه من كنائس، والتنكيل بخصومهم (الأريوسيين)،[1]كما امتدت أياديهم إلى باقي الطوائف من الدوناتيين[2] واليهود والوثنين.[3] فعاد الأسقف يتمتع بالحظوة والقبول أسوة بزملائه في روما و أخذت المجامع الكنسية في الانعقاد من جديد بعد طول منع وحجر.

---

(1) الأريوسية : مذهب ديني إنشق عن المسيحية، أسسه القس آريوس (250-336م) وهو لاهوتي نصراني يوناني من سكان مدينة الإسكندرية، أنكر الألوهية التامة للسيد للمسيح، حاول مع أتباعة تأسيس فكرة عن الربوبية تنطوي على قدر أكبر من التوحيد. وقع بينه وبين رئيس الأساقفة شجار حول طبيعة إلهية المسيح، اصدر مجمع نيقية سنة325م قرارا باستنزال اللعنة عليه وعلى أتباع المذهب، ولكن الذي حدث هو بقاء مذهب أريوس طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بتأييد الدوائر الراقية بالقسطنطنية حتى عقد المجمع المسكوني الثاني، فقضي على المذهب، لكنه ظل طوال قرون عديد يجد الأنصار في الغرب.ستيفن رنسمان: الحضارة البيزنطية، تر: عبد العزيز توفيق جاويد، مكتبة النهضة المصري ، القاهرة 1961،ص21، 132؛ روني إيلي ألفا: المرجع السابق،ج1،ص80-81؛ محمود محمد محفوظ، وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة،ط2، دار الجيل، بيروت، الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية2001، ص179، مادة أريوس. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تح:علي حسن ناصر، عبد العزيز إبراهيم العسكر ، حمدان محمد، ط1، دار العاصمة، الرياض 1984هـ،ج1،ص314؛ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط2، دار الكتب العلميـة، بـيروت 1999، ج1، ص64؛ Serge Lancel et Paul Mattei, op.cit,p29-40.

(2) وهم أتباع كنيسة إفريقية انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية في بداية القرن الرابع الميلادي عندما لاحظ المسيحيون الأفارقة عدم تأييد الكنيسة الكاثوليكية لشهداء الاضطهاد الروماني الوثني ، بل وتحالفت الكنيسة الكاثوليكية مع السلطة الحاكمة مما دفع بالدوناتيين إلى تأييد ثورات العمال والحركات المناهضة للاحتلال ، فتحولت الدوناتية إلى مذهب اجتماعي وسياسي يستهدف الاستعمار الروماني يؤيد حركة الدوارين الذين كانوا يهاجمون المعمرين تأخذ منهم الحبوب والأموال لتوزيعها على البائسين . لقيت الكنيسة الدوناتية مقاومة شديدة من القديس أوغسطين، الذي تعصب ضد هذا المذهب ودافع عن الإمبراطورية الرومانية .محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص286-316؛ شنيتي: حول الدوناتية وثورة الريفين بنوميديا خلال القرن الرابع الميلادي، الأصالة ، ع60-61، الجزائر 1978،ص25-35؛ عقون محمد العربي:المرجع السابق،ص128.

(3) شارل أندري جوليان:المرجع السابق،ج1،ص372.

ولكن الكنيسة كانت قبل ذلك قد فقدت الكثير من أملاكها وأعدادا كثيرة من رجالها وأتباعها بعد الاحتلال الوندالي الذي خيم على المغرب لمدة مئة عام كاملة.(4)

كما اعترف جستنيان أيضا وبطريقة رسمة بحق الكنيسة الأرثوذوكسية في مراقبة المدن وإدارة العمالات. مما مكن الكنيسة الأرثوذوكسية من التدخل مباشرة في الشؤون السياسية، فلم يعد دورها قاصرا على مراقبة الولاة، وأصحاب الوظائف الإدارية والسياسية، بل صارت تأمر وتنهى.

فكان من الأساقفة والقُسس من يبني الاستحكامات الحربية؛ بل صارت الأوامر تَفِدُ من روما للقواد والولاة. وهو ما جعل الكنيسة تغمر بقوتها جميع الموظفين، حتى أصبحت الكنيسة هي القاطرة التي تجر السياسة و تجر معها الدولة والموظفين وكل شيء تقريبا.(1)

كان تسامح الإمبراطور أمام تدخل الكنيسة الأرثوذوكسية في شؤون الدولة مدعاة إلى فتح أبواب كنائس المعارضين في كل مكان. فانتعشت الدوناتية وأصبحت تؤثر في البؤساء وضحايا سياسة الاستعمار الاجتماعية المعتمدة من قبل الإدارة البيزنطية. وهو ما جعل بابا روما ينذر الدولة ويدعوها إلى إنزال العقاب على الزائغين (الدوناتين) الذين أصبحوا يضايقون رعايا الكنيسة الكاثوليكية خاصة بعد الشكوى التي تقدم بها أسقف نوميديا الذي اشتكى من المضايقات التي يلقاها من الدوناتيين.(2)

لقد كان النفوذ الذي حازته الكنيسة بعد الاحتلال البيزنطي سببا كافيا لدفع اليهود لاعتناق المسيحية نفاقا، أو طمعا في المنافع المادية التي كانت تمنحها الكنيسة للمرتدين، وقد كانوا في أثناء الحكم الوندالي يتمتعون بحرية دينية كاملة.(3) ورغم ارتدادهم ولو ظاهريا عن الديانة اليهودية فقد تعرضوا لاضطهاد الأباطرة الذين شتتوا شملهم وفرقوا جمعهم، مما دفعهم إلى الانتشار خارج المناطق البيزنطية، فأخذوا يدعون إلى نحلتهم خاصة في دواخل المغرب وبخاصة الأوراس.(4) يقول

---

(4) نفس المرجع ،ص373.

(1) Diehl et Marçais, Histoire du Mouyen Age,p100-101.

(2) عبد الله العروي: المرجع السابق، ج1،ص115.

(3) Maurice EISENBETH,les Juifs esquisse historique depuis les origines jusqu’à nos jours,Encyclopédie de l’empire Français, paris 1948,T1, p147.

(4) العروي: المرجع السابق،ج1،ص115.

أحد المؤرخين اليهود:« إن الاضطهاد الذي أصاب اليهود في عهد جستنيان قد أدى إلى إفلاس اليهودية السلفية، وفرق جمع اليهود، مما جعلهم يتفرقون في الأقاليم الرومانية، فوجدوا الملجأ لدى القبائل البربرية، وقد تمكنت الدعاية اليهودية من استقطاب عدد كبير من أفراد تلك القبائل.»[5]

لم يقتصر اعتناق المسيحية على المناطق الشمالية التي وجدت نفسها مندمجة في حضارة كل الوافدين، بل اعتنق النصرانية نفر من بربر الأوراس ونوميديا و الزاب.

ومع ازدياد نفوذ الكنيسة الغربية في المغرب عمل ذلك على إضعاف سلطان الدولة البيزنطية، فاتجه الناس إلى الكنيسة يعقدون عليها الآمال العراض لدفع أذى الحكام وعمال الإدارة عنهم. حتى قيل بأن إفريقيا القرن السادس الميلادي كانت تدار من قبل القساوسة.

ورغم انتعاش الكنيسة الكاثوليكية واستعادتها لممتلكاتها ومعابدها، وانتقامها من الأريوسين بقسوة، والاضطهاد الذي مارسته على الدوناتيين واليهود. إلا أن ذلك لم يمنع ظهور مذاهب مسيحية جديدة وجدت لها أصار في القسطنطينية وفي بلاد المغرب مثل (النسطورية)[1]، كما انقسم صفوف اليعاقبة[2] مما جعل (تيودورا) زوجة جستنيان تتدخل من أجل المحافظة على وحدة الكنيسة، وحمايتها من الانقسام، الأمر الذي دعا أهل إفريقية إلى الثورة على الكنيسة والدولة معا.

وفي أواخر القرن السادس الميلادي لم يكن يربط إفريقية بالدولة البيزنطية إلا وشائج واهية جدا، فقد أصبح الموظفون في الإدارة يميلون إلى التحرر من سيطرة الإمبراطورية مما أضعف الدولة وأفقدها الهيبة التي بذل الأباطرة جهودا في تكوينها.

---

(5) EISENBETH, op.cit, p147-148.

(1) نحلة تنسب إلى نسطور (نحو380-451م)، الذي كان بطريرك القسطنطنية ، وقد مكث في منصبه أربع سنين ، رأى بأن العذراء مريم لم تلد الإله بل ولدت الإنسان ، وهو بذلك يرى أن الأقنوم الثاني وهو الإبن لم يتجسد وتلده مريم كما يرى غيره من المثلثين ، وبالتالي فإن المسيح لم يكن إله ولا إبن للإله ؛ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل،ج1، ص65؛حسين علي حمد: المرجع السابق،ص208-209.

(2) ينسبون إلى يعقوب البردعي (541-587م) أسقف الرها ، قالوا بالأقانم الثلاثة ، إلا انهم قالوا بأن الكلمة إنقلبت لحما ودما ، فصار الإله عندهم هو المسيح ، وهو الظاهر بجسده ، بل هو هو. الشهروستاني، الملل والنحل، تح: أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور،ط6، دار المعرفة، بيروت1997،ج1، ص270؛ عباس بن منصور التريني السكسكي: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان ،تح:بسام علي سلامة العموش،ط2، مكتبة المنار ، الأردن1996،ص92؛ ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل،ج1، ص 66؛حسين علي حمد: المرجع السابق،ص227.

لقد عرفت المسيحية أزمتها الأخيرة قبيل زحف المسلمين بسبب مبالغتها في التمسك الحرفي بالنص، ومما زاد من أزمتها خروج كبير أساقفة القسطنطنية (سرجيوس) بقضية إنكار أن يكون المسيح له طاقة خاصة بكل حالة من حالاته الطبيعية. وكان يقول بالإرادة الواحدة (إلهية وبشرية معا).[3]

لم تبق هذا الجدال الديني والصراع المذهبي بين التيارات والمذاهب المسيحية في الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى؛ بل انتقل إلى بلاد المغرب لوجود أنصار لهذه المذاهب، لكن البربر في عمومهم كانوا موالين للكنيسة الإفريقية ممثلة في المذهب الدوناتي الذي رأى فيه الأهالي رمزا للمقاومة الشعبية ضد الاستعمار وكبار الأغنياء، وقد سعوا في كفاحهم هذا إلى تحقيق المساواة مع المستعمرين والمعمرين .[1]

لقد وجدت المسيحية لها أتباعا في منطقة الأوراس على غرار بقية مناطق بلاد المغرب ولكن انتشارها كان قاصرا على الحواضر، لأن سكانها كانوا أكثر اختلاط بالرومان، ومن بعدهم الروم البيزنطيين، وكانت دوافع الكثير ممن اعتنق المسيحية هو بدون شك الحصول على الامتيازات أو على الأقل بعض الحقوق التي نالها النصارى من غير السكان المحليين، لكن الذي حصل أن المسيحية وبدل أن يكون انتشارها بين البربر سببا في تقوية الروابط بينهم وبين بيزنطة، عملت على زيادة الفرقة بين الفريقين؛ بل وزادت في اشتداد المواجهة بينهما، لأن الرومان والبيزنطيين لم يرضوا بالعدالة التي جاءت بها المسيحية، والقبول بالأخوة الدينية مع السكان المحليين، فأبقى كبار الملاك والطبقة الأرستقراطية والعسكريين على تلك الفجوة الواسعة بينهم وبين الأهالي، وأراد استغلال المسيحية لزيادة إخضاع الأهالي، مما جعل هؤلاء الأهالي يعتبرون ذلك ضربا من الهيمنة الروحية تزيد من حجم الهيمنة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي تمارس ضدهم من طرف الاحتلال فقاوموها.[2]

كان الأوراس في الفترة الرومانية قد رفض الكاثوليكية، لأنها المذهب الرسمي للدولة، وأيد الحركة الدوناتية المنشقة، كما أيد حركة الدوارين، إذ عقد اجتماع بمدينة باغاي عام 347م

---

(3) جوليان : المرجع السابق، ج1،ص381.

(1) Gautier,op.cit, p286.

(2) شنيتي: حول الدوناتية، ص28.

وفيه جرى تنسيق بين الحركتين مما أدى إلى تلاحم بين السكان المحليين في معظم بلاد نوميـــديا، واستمر هذا الرفض طوال القرون الموالية.(3)

وعندما اعتلى عرش بيزنطة الإمبراطور (قنسطانس الثاني) سنة 645م والذي اتهم بـــالقول بالإرادة الواحدة، وجد القس (مكسيموس) ذريعة لدفع أغلبية الأهالي والقبائل البربرية للثورة ضد الإمبراطور لصالح (جريجوريوس)(1)، خاصة وأن أسقفية إفريقيا تكره أنصاف الحلول ومســـتعدة للثورة ضد الإمبراطورية.(2)

رغم انتشار المسيحية واكتسابها العديد من الأنصار من سكان الأوراس والـــذين اعتنقوهـــا بإخلاص وصدق باعتبارها دينا يخلص الإنسان من الحيرة والعذاب النفسي، أو الذين اعتنقوهـــا مسايرة للمستعمرين، إلا أن غالبية سكان الأوراس وعلى غرار جميع البربر كانوا كما يقول ابن خلدون وثنيين يعبدون الأصنام، أو مجوسا يعبدون الشمس والقمر.(3)

ووُجد أيضا في البربر من أعتنق الديانة اليهودية، ولكن لا تحدثنا المصادر عن كيفيـــة انتشـــار الديانة الموسوية في المنطقة، ولا كيف وصل اليهود إلى المغرب، وإن كان الكل متفـــق علـــى إن الوجود اليهودي كان منذ الفترة الرومانية(4)، حيث هاجرت أعداد من العبرانين منطقة الشـــرق الأدنى فرارا من الاضطهاد الذي أصابهم في مناسبات عديدة. وان مجموعة منهم تكونت في إفريقية بالجهات الجبلية النائية منذ القرن الأول والثاني كجبال الأوراس.(5)وبعد استيلاء الوندال علـــى المغرب وجدوا اليهود وهم – أمة تجارية- فقربوهم واستعانوا بهم على استدرار خيرات البلاد، مما مكن اليهود من الاستحواذ على التجارة، وجاروا الوندال في الكيد للأرثوذكس، حتى إذا تمكـــن

---

(3) نفس المرجع، ص31-32.

(1) يذكر ابن خلدون أن جرجير والذين كانوا بإفريقية غالبين على البربر ونازلين بمدنها وحصونها هم من الفرنجة وليس من الروم. كتاب العبر: ج6، ص126.

(2) جوليان، المرجع السابق، ج1،ص382.

(3) كتاب العبر: ،ج6،ص110.

(4) يذهب الحاخام الأكبر لمدينة الجزائر Maurice Eisenbeth إلى أن اليهود قد قدموا إلى إفريقيا مع الفينـــيقين بحكم مجاورتهم لهم في فلسطين، فخرجوا معهم للتجارة ، وفي العصر الروماني كانت لهم حرية العبادة وإحياء الأعياد العبرانية ، كما أعفوا من دفع الضرائب والقيام بأعمال السخرة، و كانوا يـــزورون فلســـطين لرصـــد بدايـــة الســـنة العبريـــة. op.cit ,p141,145

(5) محمد البشير شنيتي : التغيرات الاقتصادية والاجتماعية ، ص197-199.

الروم من دخول إفريقية قلّبت لهم ظهر المجن[6]، وكالتهم ما أصاب الأرثوذكس، فأصدرت القرارات بتجريدهم من أملاكهم وتشتيت جموعهم وتبديد نفوذهم .

يرى Eisenbeth. أن الاضطهاد الشديد الذي تعرض له اليهود أدى إلى إفلاس اليهود واليهودية فقد أصدر جستنيان قرارات تجعل الكنيسة المسيحية تتدخل في تنظيم شؤون اليهود وعباداتهم، مما أثر على وحدة اليهود، فقد حوصر الكهنة اليهود ومنعوا من دراسة المشنا (Michna)[1] وهي الجزء الأهم من كتاب التلمود مما جعلهم يفرون إلى مناطق نائية توفر لهم الأمن.[2]

يذهب (غوتي) إلى أن قبيلة جراوة البترية التي تنتمي إليها الكاهنة أثناء القرن السابع الميلادي يهودية، وأن عددا من سكان الأوراس في نهاية التاريخ القديم هم من البربر الرحل ذوي الأصول اليهودية القادمين من المناطق الشرقية.[3] وهو يستند في فيما يذهب إليه إلى ما أورده ابن خلدون من احتمال أن يكون بعض « البربر دانوا بدين اليهودية، أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه منهم، كما كانت جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح».[4] وهي الرواية التي لا تفيد الجزم، عكس الذي يقوله به (غوتي) ويذهب إليه، وهو الأمر الذي لم تشر إليه كتب الفتوح؛ بل إن(G.Marçais)[5]يشكك في صحة ما أورده غوتي، وبالتالي فإن محاولات البعض إبراز تأثير اليهود واليهودية في بلاد المغرب عموما

(6) المجن: بالكسر الترس وجمعه مَجَانٌّ.ابن منظور: المصدر السابق، ج 13، ص400؛ الرازي: المصدر السابق، ص114.

(1) المشنا: هي روايات شفهية تناقلها الحاخامات اليهود ، حتى قام الحاخام(يوضاس) سنة 150م بجمعها في كتاب أسماه المشنا أي الشريعة المكررة في توراة موسى وهي تماثل التفسير والإيضاح، ثم أتم (الراباي يهوذا) سنة 216م تدوين زيادات وروايات شفهية، وشرح المشنا في كتاب أسماه (جمارا) ، ومن المشنا والجمارا يتكون التلمود الذي يحتل عند اليهود منزلة تزيد عن منزلة التوراة. مانع بن حماد الجهني وآخرون: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط5، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض2003، ج1،ص501؛ عرفان عبد الحميد فتاح: اليهودية عرض تاريخي، ط1، دار عمار، عمان 1997، ص85.

(2) Op.cit,p147.

(3) Gautier, Op.cit,p255.

(4) كتاب العبر، ج6، ص126.

(5) G.Marçais,La Berbérieet l'Orient musulman au Moyen age,E.F,paris,1946, P34.

والأوراس على وجه الخصوص ومحاولة إظهار دورهم في المنطقة لا ينسجم والنصوص المتـــوفرة، والتي لا تشير إلى ذلك.

وعلى العكس من ذلك يذهب البعض إلى أن قبيلة جراوة لا يمكن أن تكون إلا مسيحية، وأن ما كانت تحمله الكاهنة قد يكون مجرد صورة للسيد المسيح[6] يدعم هذا الرأي كون قبيلة زناتة ناصرت البطريق جريجوريوس أثناء استقلاله بإفريقية وفي بداية الفتوحات الإسلامية.[7] وبالتالي لا يمكن أن تكون جراوة يهودية وهي التي قادت مقاومة الفتح الإسلامي بعد زوال سلطان بيزنطة.

لغة البربر و ثقافتهم: لا تزال أسئلة تطرح على الباحثين والكتاب في تاريخ المغرب القديم عن ثقافة المغاربة ولغتهم. وهل كان للبربر لغة تعبر عن شخصيتهم الحضارية والثقافية ؟ وهل كانت هذه اللغة مكتوبة ومتداولة بين الناس، وبالتالي كانت تشكل وسيلة الاتصال والتفاهم بينهم وبين الشعوب الأخرى؟ وما علاقة لغتهم باللغات التي وفدت إلى المغرب القـــديم مثـــل الفينيقيـــة، واللاتينية، و العربية ؟

هذه الأسئلة التي طرحناها، و نريد الإجابة عنها في السطور التالية لا تزال إلى اليوم مطروحـــة ومتداولة بين الباحثين؛ بل وبين غيرهم من العوام، حتى أصبحت هذه الفرضيات تشكل اليـــوم مادة ثرية لإثارة النقاش بين البربر أنفسهم، في غياب دراسات جادة تستهدف إبـــراز الحقيقـــة التاريخية دون غيرها.

لقد كانت اللغة البربرية تكتب في القديم بحروف التيفيناغ، التي تتشكل من رموز وأشـــكال تشبه إلى حد بعيد بعض الكائنات الطبيعية والأوضاع الكونية كالشمس والقمر والنجم والـــبرق وغيرها.[1] لكنها لم تكن واسعة الانتشار في بلاد البربر أنفسهم، وما يؤكد ذلك هو قلة الآثـــار والنقوش المكتوبة بهذه اللغة قياسا باللغة اللاتينية، كما أن حكام البربر أنفسهم استخدموا اللغات الأجنبية.[2] لذلك يصعب تقديم وصف دقيق للوضع اللغوي الذي تميز به شمال إفريقيـــا خـــلال العصر القديم، والأمر يصبح أكثر صعوبة عندما ينحصر البحث في منطقة الأوراس.

---

(6) عييش: المور والبيزنطيون، ص246.

(7) نفس المرجع،ص221.

(1) عبد الرحمن الجيلالي :تاريخ الجزائر العام ، ط3، المطبعة التجارية ، الجزائر 1971،ج1،ص60-61.

(2) Jean Servier,op.cit,p35.

يذهب (André Basset) إلى القول بأنه على الرغم من استحالة التدليل على وحدة الأصل بين قبائل البربر، فإن وحدة اللغة قائمة بينهم، ولكننا لا نعرف الكثير عن لغتهم القديمة، لكن الذي يمكن الجزم به هو أن اللهجات التي كانت مستعملة قديما لا تختلف فيما بينها أكثر من الاختلاف الذي نلمسه اليوم.(3)

والمؤكد هو أن اللغة البربرية كانت هي اللغة السائدة في المنطقة منذ عهد بعيد، وأنها كانت اللغة المحكية عندما جاء الرومان، لكن في شكلها الليبي القديم ، أما اللهجات الحالية والمسماة بـ(الشاوية) فهي تشتمل على العديد من الخصائص التي تجعلنا نصنفها ضمن المجموعة الزناتية، وتشترك معها لهجات أخرى محكية في المغرب الأقصى كما الحال أيضا في ليبيا، و لم يبق في الوقت الراهن من هذه التسمية المستقاة من تاريخ البربر الذين عاشوا في القرون الوسطى سوى تقاليد بسيطة لا تمدنا بأدنى فكرة عن اللغة أو اللغات المحكية في الأوراس القديم.(1)

إن الواقع الحالي لهذه اللغة، يبيّن الاختلاف والتباين بين لهجات السكان، فلا نجد لغة أو لهجة واحدة مفهومة عند البربر كلهم في المناطق المختلفة التي يتواجدون فيها.(2) إلا أن باحثين — مغاربة- معاصرين يؤكدون أن اللغة الأمازيغية رغم اختلاف لهجاتها فإنها لغة قائمة بذاتها وليست لهجة متفرعة عن لغة أخرى، وأن اللهجات المنتشرة في مناطق عديدة تلتقي في أصل واحد بصورة واضحة، لذلك يمكن القول بأن « بنية اللغة الأمازيغية وعناصرها وأشكالها الصرفية تتسم بالوحدة إلى درجة أنك إن كنت تعرف حق المعرفة لهجة واحدة منها استطعت في ظرف أسابيع أن تتعلم أية لهجة أخرى، تدلك على ذلك التجربة، إذ اللغة هي اللغة نفسها.»(3)

أما الأستاذ: (يوسى آرو) أستاذ اللغات والآداب الشرقية بجامعة هلسنكي فيعتقد بأن اللغتين العربية والبربرية لهما أصل واحد يقول:« أما بالنسبة عن قرابة اللغات السامية أو اللغة العربية واللغة البربرية، فعلينا أن ننبه إلى حقيقة مبدئية .. وهي أننا نلاحظ أن ثمة تشابها قريبا جدا بين اللغة البربرية واللهجات العربية في بلاد إفريقيا الشمالية، خاصة في مجموع المفردات اللغوية، ولكن

---

(3) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (بربر)، ج3، ص516.

(1) Lional Galand, op.cit,p33-34.

(2) بل: المرجع السابق، ص45-46.

(3) محمد شفيق: المرجع السابق، ج58-59.

هذا التشابه قريب العهد ومرده للاتصالات القريبة بين العرب والبربر منذ الفتوحات الإسلامية، فلقد استعار البربرية كمية ضخمة من المفردات العربية وأن العربية بدورها قد استعارت عدة مفردات بربرية، ونعرف مثلا أن الأرقام في الكثير من اللهجات البربرية إنما هي أرقام عربية.»[4] لذلك فهو يرى أنه إذا كان هناك قرابة بين البربرية والعربية، فلا يمنع ذلك أن يكون الشعب البربري والشعب العربي شعب واحد، وهذه الفرضية في نظره هي أحد الحلول الممكنة لحل هذه المعضلة.[5]

المؤكد أن اللغة البربرية تراجعت أمام اللغات الوافدة مع الغزاة والفاتحين. فقد تلقف البربر اليونانية، والفينيقية، واللاتينية وكتبوها وتكلموا بها، وألفوا بها كتبا ورسائل في مختلف الفنون سيرا على خطى السادة الجدد. كما فعل القديس أوغسطين الذي خدم اللغة اللاتينية، ودافع عن المسيحية الكاثوليكية. كما كان لانتشار المسيحية في المنطقة دور كبير في انتشار اللاتينية لأن التعاليم الدينية الواردة في العهدين القديم والجديد كانت مكتوبة باللاتينية، ومن ثمة تقتضي الضرورة معرفة هذه اللغة، والتي صارت في ظل الاحتلال معيار الولاء وأداة لتحقيق الحظوة والقبول لدى الإدارة الاستعمارية.

كانت اللغة الأجنبية أكثر انتشارا في المدن حيث الجاليات الرومانية والبيزنطية، وحيث المؤسسات الدينية والثقافية، كما أن رغبة الأهالي في الظفر بمباهج الحضارة كانت تدفعهم إلى تقليد المعمرين في تعلم لغتهم والتخلق بأخلاقهم. لاستدراك الفجوة الواضحة بينهم. في حين كانت الأرياف والجبال أبعد عن التقليد، وأكثر محافظة على الموروث الثقافي والحضاري وأبعد عن الاختلاط والذوبان في الأجنبي. [1]

ومع زوال الحكم الأجنبي القرطاجي والروماني والبيزنطي. عاد المغاربة إلى لهجاتهم المحلية، حتى جاء العرب فنشروا بينهم الإسلام، وعمموا فيهم اللغة العربية، و لم يرد في أي مصدر من مصادر التاريخ الإسلامي أن الفاتحين المسلمين جهروا بالعداء للغة أهل البلاد، أو منعوا أهلها من استعمالها، أو دعوهم للتخلي عنها، وهو الأمر الذي شجع البربر على قبول اللغة العربية، واستخدموا لغتهم المحلية في الدعوة للإسلام ونشره. ومنذ ذلك بدأ البربر يكتبون البربرية بحروف

---

(4) وحدة الأصل بين اللغتين العربية والبربرية، كتاب الأصالة ، الجزائر 1979، ج2، ص67-68.

(5) نفس المرجع ، ص71.

(1) موريس لومبار: الإسلام في عظمته الأولى (من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشرميلادي) تر: ياسين الحافظ،ط1،دار الطليعة، بيروت1977،ص52.

عربية، وقد سهل ذلك عليهم للتشابه الكبير بين اللغتين.[2] يقول لومبار أن:« الكتـل المدنيـة وممرات المواصلات بين السلاسل الجبلية تبنت اللغة العربيـة، في حـين أن الجبلـيين والقبائـل الصحراوية استمروا يتكلمون البربرية.»[3]

ويبقى القول أن لغة البربر وثقافتهم لم تجد بعد من يدرسها حق الدراسة، فيميط اللثام عـن حقيقة لغة الأجداد بالتعرف على أصولها، ودورها في صياغة الحضارة المغربية القديمة. وما تـوفر اليوم من دراسات وبحوث لا تتجاوز ردود أفعال من بعض أبناء البربر يريدون بها أن يؤكـدوا ذاتهم وعمق انتمائهم لحضارة مغربية، ومحاولة إظهار استقلالهم الثقافي في ظل المدنيـة الغربيـة الزاحفة.

---

(2) يوسى آرو: المرجع السابق،ص 71.

(3) المرجع السابق، ص52.

المبحث الأول

عقبة بن نافع وبدايات الفتح:

رأينا في الفصل السابق كيف أن أوضاع إفريقية قد تدهورت في العقدين الأخيرين من القرن السادس الميلادي، بسبب الصراعات الدينية والعقدية داخل الدولة البيزنطية، وما اعتراها من فساد إداري وسياسي، وتراجع هيبتها في نظر البربر؛ مما شجعهم على مواصلة الثورة، مستغلين أوضاع الإمبراطورية التي أخذت تترنح تحت وطأة مشاكلها الداخلية والصراعات على السلطة، والحروب التي كانت تخوضها على جبهات عدة خارج أراضيها.

والظاهر أن هذه الأوضاع لم تكن خافية عن عيون العرب وأسماعهم.[1] وهو ما يجعلنا نرجح إمكانية التخطيط لفتح المغرب، الذي أدرك العرب أن قبضة بيزنطة عليه صارت مرتخية إلى الحد الذي يمكنهم من تحريره من نفوذها السياسي وتحكمها العسكري، ومن أجل تأمين حدود الإمبراطورية الإسلامية من الناحية الغربية. فقد وردت إشارات في بعض كتب الفتوح[2] إلى إحاطة عمر بقدر لا بأس به من أخبار إفريقية، فسمع بلا شك بالثورات التي قادها البربر ضد ملوك الروم، والمصاعب التي واجهتهم أثناء حكمهم لتلك البلاد، مما جعله يدرك حجم الصعوبات المرتقبة التي ستواجه الجيش الإسلامي، و إن كانت تلك الأخبار قليلة، لم تمكّن من وضع تحليل سياسي دقيق للأوضاع الداخلية التي كانت عليها إفريقية البيزنطية، خاصة تلك الصراعات المذهبية والدينية، والضغوط الاقتصادية التي كان البربر يرزحون تحتها.[3]

لكن الخليفة عمر اكتفى بتحصين مصر ورفض مقترح عمرو بن العاص بغزو إفريقية لأنها كما قال:« ليست بافريقية ، ولكنها المفرقة غادرة مغدور بها لا يغزوها أحد ما بقيت.»[4] ولما آل أمر الخلافة إلى عثمان عين على مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح[5] فندب عثمان لغزو افريقية

---

(1) ابن أعثم الكوفي: الفتوح، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1986،ج1،ص357؛ البلاذري: فتوح البلدان، ط1، مكتبة الهلال ، بيروت،1983ص222..

(2) ابن أعثم الكوفي: المصدر السابق،ج1،ص357؛ البلاذري: المصدر السابق، ،ص222-223.

(3) الحبيب الجنحاني: القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي، ط1، الدار التونسية للنشر، تونس1968،ص26-27.

(4) ابن عبد الحكم : فتوح أفريقية والأندلس ، تح: عبد الله أنيس الطباع ،دار الكتاب اللبناني، بيروت1964،ص33.

(5) أبو يحيى القرشي العامري من عامر بن لؤي بن غالب هو أخو عثمان من الرضاعة له صحبة ولي مصر لعثمان وقيل شهد صفين والظاهر أنه اعتزل الفتنة وانزوى إلى الرملة قال مصعب بن عبد الله استأمن عثمان لا بن أبي سرح يوم الفتح من النبي صلى الله عليه وسلم وكان أمر بقتله وهو الذي فتح إفريقية قال الدارقطني ارتد فأهدر النبي دمه ثم عاد مسلما واستوهبه عثمان قال ابن يونس كان صاحب =

بعدما استشار أصحابه. فقدم عبد الله بن سعد بن أبي السرح إفريقية، وتمكن من قتل حاكمها البيزنطي (جرجير) ثم صالحه البربر على أن يعود عن أرضهم مقابل ثلاث مائة قنطار من الذهب[1]، وفي رواية مائتي ألف رطل من الذهب[2] وقيل بل صالحوهم على« ألفي ألف وخمسمائة ألف».[3] وهو الأمر الذي لاشك يكون قد أغرى الروم بعد انصراف المسلمين عن إفريقية للسعي من أجل استعادة نفوذهم من جديد، وطالبوا البربر برفع قيمة الخراج السنوي الذي كانوا يؤدونه للروم أسوة بما حازه العرب بعد الصلح معهم.[4]

ولكن هذا النجاح الكبير الذي حققه العرب لم يتم استثماره فقد تراجعت الجيوش العربية إلى ما وراء طرابلس، كما أن أزمة الخلافة بعد مقتل عثمان عرقلت المسلمين عن مواصلة الفتوح في المغرب حتى استقرت الأحوال لمعاوية بن أبي سفيان، الذي حرك نشاط الفتح من جديد بإرسال معاوية بن حديج[5] سنة 45هـ/665م على رأس عشرة آلاف من الجند.

والظاهر أن السبب وراء التعجيل بهذه الحملة هو ورود الأخبار بمسير الأسطول البيزنطي إلى إفريقية. لكن سرعان ما انسحب الروم وتقهقروا أمام المسلمين. وبعدما غنم ابن خديج عاد إلى مصر دون أن يترك قائدا على إفريقية. مما يوحي بوجود شكل من أشكال التحالف بين العرب والبربر، وأن المسلمين كانوا فقط يكتفون بإبعاد الخطر البيزنطي عن المنطقة.

= ميمنة عمرو بن العاص وكان فارس بني عامر المعدود فمن غزا إفريقية، نزل بأخرة عسقلان فلم يبايع عليا ولا معاوية، قال ابن خياط بأنه قتل بافريقية ومعه معبد بن العباس بن عبد المطلب وهو غير صحيح، كتاب الطبقات ، تح: سهيل زكار ،دار الفكر، بيروت 1993،ص530؛ ابن عبد البر النميري: الإستيعاب في أسماء الأصحاب، ط1، دار الفكر ، بيروت 2002،ج1، ص 549-550، شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء، شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي، ط9، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ج 3 ،ص 33؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، تح: محمد علي البجاوي، ط1، دار الجيل ، بيروت1992، ج 1، ص452.

(1) البلاذري: المصدر السابق، ص234.

(2) خليفة بن خياط:تاريخ خليفة بن خياط، تح: سهيل زكار، ط1،دار الفكر، بيروت1993،ص115..

(3) النويرى، المصدر السابق، ج24،ص8.

(4) إبن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص17؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط6، دار الكتاب العربي، بيروت1986،ج3،ص46.

(5) معاوية بن حديج :يعد في المصريين كان عامل معاوية على مصر، أمّره معاوية على الجيش الذي جهزه إلى مصر وبها محمد بن أبي بكر الصديق فلما قتلوه بايعوا لمعاوية ثم ولي إمرة مصر ليزيد وذكره ابن سعد فيمن ولي مصر من الصحابة وقال ابن يونس يكنى أبا نعيم وفد على رسول الله وشهد فتح مصر ثم كان الوافد على عمر بفتح الإسكندرية ذهبت عينه في غزوة النوبة مع بن أبي سرح ولي غزو المغرب مرارا آخرها سنة خمسين ومات سنة اثنتين وخمسين.اختلف في كونه صحابيا أم تابعيا، ابن خياط: كتاب الطبقات، ص131، ابن عبد البر: المصدر السابق، ج2،ص 242، إبن حجر العسقلاني: المرجع السابق،ج6،ص147.

في سنة 50هـ/670م عُزِل معاوية بن حديج عن ولاية إفريقية، واستعمل الخليفة عليها عقبة بن نافع، الذي كان مرابطا في نواحي برقة وزيلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص« وله في تلك البلاد جهاد وفتوح»كما يقول ابن الأثير.(1)

كانت إستراتيجية عقبة في الفتح – وهو من خبر إفريقية- أن يتخذ معسكرا متقدما يكون مقرا لانطلاق حملات الفتح، فقد قال لأصحابه:« إن افريقية إذا دخلها إمام تحرّموا بالإسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم منهم وارتد إلى الكفر . وأرى لكم _ يا معشر المسلمين – أن تتخذوا بها مدينة نجعل بها عسكرا وتكون عزّ الإسلام إلى آخر الدهر.»(2) وهنا يذكر ابن الأثير أن الذي حفز عقبة على بناء مدينة القيروان هو سعيه لتأمين عسكر المسلمين وأهليهم وأموالهم من ثورة يقوم بها أهل البلاد، كما تكون المدينة قاعدة انطلاق لفتح باقي بلاد المغرب.(3) وهي سياسة حكيمة جعلت العرب أقرب إلى بلاد المغرب وسكانه أكثر منه لما كانوا يشنون الحملات من مصر وبرقة، وهي السياسة التي سيتبعها أبو المهاجر عند فتحه المغرب الأوسط.

أبو المهاجر فاتح المغرب الأوسط:

لما اكتمل بناء القيروان وسكنها الناس جاء الأمر بعزل عقبة عندما ولى معاوية مسلمة بن مخلد الأنصاري(4) أمر مصر فاستعمل أحد مواليه على إفريقية. وهو أبو المهاجر دينار مولى الأنصار سنة 55هـ/675م.(5)

شرع أبو المهاجر في توسيع دائرة الفتوح منتهجا سياسية مغايرة تماما للسياسة التي سلكها سلفه عقبة، فقد عمد إلى سلوك طريق المسالمة ترغيبا للبربر في الإسلام، وقد كان يعلم أن الشدة بقدر ما تحقق انتصارات عسكرية ومادية لكنها لا تشجع الطرف المنهزم على الإقبال على الإسلام والإخلاص له، فتمكن بذلك أبو المهاجر من إقناع البربر ودفعهم إلى موادعته أولا ثم الإسلام على يديه ثانيا، وهذا الموقف ليس موقفا سياسيا أملاه ضعف المسلمين أو حاجتهم إلى

---

(1) المصدر السابق، ج3، ص230.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1، ص19؛ النويري: المصدر السابق،ج24،ص11.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق، ج3،ص230

(4) هو مسلمة بن مخلد بن الصامت الساعدي ، ولد مقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولي مصر وإفريقية سنة 50÷ت ، وهو أول من جمع له مصر والمغرب دامت ولايته على مصر وإفريقية ستة عشر سنةمات بالمدينة سنة 62هـ، ابن خياط : كتاب الطبقات، ص168، ابن عبد البر: المصدر السابق، ج2،ص231، ابن حجر: المصدر السابق،ج6،ص116-117.

(5) النويري: المصدر السابق ،ج24،ص13.

تلافي القتال، أو حدا من الخسائر التي تكبدوها في أثناء الفتح، ولكن هذا الموقف هو موقف يمثل روح الإسلام ويؤكد سماحته.(1)

غزا أبو المهاجر المغرب الأوسط ففتح بلاد كتامة، سالكا طريق التل، وهو الطريق البيزنطـــي الرابط بين تبسة وقالمة حتى مدينة ميلة(2) فافتتح ميلة وأقام بها نحوا من سنتين(3) فكان بذلك أول أمير وطئت خيله المغرب الأوسط.(4) ومن ميلة بعث السرايا والحملات العسكرية لفتح المنـــاطق الأخرى من بلاد المغرب، ففتح قسنطينة، وتيديس وسطيف، وبلاد الزاب حتى وصل إلى مدينـــة تلمسان.(5) والمؤسف أن جل المصادر التي تؤرخ للفتح لا تقدم إلا نتفا قليلـــة عـــن أخبـــار أبي المهاجر، فلا يعقل أن يمكث الرجل في ميلة مدة سنتين كاملتين دون أن يقوم بشيء ذا بال، وهو الذي جاء بلاد المغرب وفي نيته صنع شيء لم يصنعه سلفه عقبة.

قد يكون سبب سكوت المصادر عن ما فعله الرجل، هو وقوع حملته بين حملتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، ولأنه أساء عزل عقبة عندما قدم إفريقية، خاصة وأن عقبة في نظر العرب والبربر على السواء كما في نظر المؤرخين والكتاب المسلمين بمثابة ولي من الأولياء ، ولأنه هو الفـــاتح الحقيقي للمغرب، والذي قدم نفسه وروحه من أجل نشر الإسلام وتعميمه، وبالتالي فهو الأحق بالظهور والأجدر بالبروز. كما يكون دور الأسرة الفهرية وقوتها في بلاد المغرب ومساهماتها، وما حازته من مركز رفيع في مصر والمغرب والأندلس، قد أظهر دور عقبة وأبرزه، كما كان منـــهم رواة وإخباريون أيضا هو الذي زاد من هذا الإهمال وذلك التجاهل.(6)

---

(1) جاء القرآن يدعو النبي عليه الصلاة والسلام إلى اللين في المعاملة لتبليغ الدعوة ونشر الرسالة قال تعالى:(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحـــب المتوكلين) سورة آل عمران ، الآية159.

(2) مدينة صغيرة بأقصى إفريقية بينها وبين بجاية ثلاثة أيام ليس لها غير المزدرع ، وهي قليلة المياه بينها وبين قسنطينة الهواء يوم واحد.أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تح: جمال طلبة ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت2004،ج2،ص245؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج5،ص244.

(3) ابن خياط: تاريخ خليفة بن خياط،ص171؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،المؤسسة المصـــرية العامـــة للتأليف والطباعة والنشر، مصر بلاتا،ج1،ص152.

(4) السلاوي: المرجع السابق،ج1،ص136.

(5) المالكي: المصدر السابق،ج1،ص33.

(6) سعد زعلول عبد الحميد: المرجع السابق، ج1، ص197؛ هشام جعيط: تأسيس الغرب الإسلامي- القرن الأول والثاني هـــ/السابع والثامن م- ط1، دار الطليعة ، بيروت2004، ص19-20.

لم يرد أبو المهاجر استعمال النصر الذي أحرزه في تحقيق مكاسب مادية أو سياســية، أو سعى لإذلال أوربة وأميرها كسيلة[1]، بل اتجه وجهة حسنة بدعوة الأمير البربري إلى الإســلام وتحبيبه فيه، فأسلم هو وقبيله على يديه، فكان ذلك كسبا كبيرا للإسلام، وربما كان سبب هــذا السلوك راجع إلى انتماء أبو المهاجر إلى طبقة الموالي[2] واعتماده سياسة التحالف مع البربر ضــد الروم البيزنطيين. ويرجّح البعض سبب سلوك أبو المهاجر لهذه السياسة لكونه نشأ بالديار المصرية وهي القريبة من بلاد المغرب، فمكنه ذلك من الإطلاع على أحوال البلاد وأوضــاعها، عارفــا بطبائع أهلها، مدركا بأن العنف والقوة لا تجدي نفعا متى استطاعت السياسة والحكمة تحقيــق الهدف المطلوب.فانتهج بالتالي سياسة مغايرة لسلفه عقبة. وهي التي أثمرت بإسلام بعض البربــر وبداية احتكاكهم بالدين الجديد.[3]

لقد بدأ الفتح الفعلي للإوراس في حملة عقبة بن نافع الثانية سنة62هــ/682م عندما أعاده يزيد بن معاوية مرة أخرى واليا على إفريقية، وأعاد له سلطة قيادة الجيش الفاتح. فعاد عقبة إلى إفريقية وكله أمل في استكمال الجهد الذي بدأه والذي توج ببناء القيروان كقاعــدة انطــلاق لاستكمال عملية الفتح.

صحيح أن السياسة التي سلكها سلفه أبو المهاجر دينار كانت قد أتت أكلها حــين أقنعــت البربر بالدخول في الإسلام، أو مهادنة المسلمين على الأقل، ولكن المغرب كان في حاجة ماسة إلى مثل حماس عقبة وشجاعته. لأن التكوين النفسي والديني الذي كان يتمتع به عقبة أهلاه للعــب دور كبير في تاريخ المغرب عموما وتاريخ الأوراس على وجه الخصوص. فعقبة لم يكــن رجــل سياسة يسعى لتحقيق المجد لنفسه وتخليد مآثره ؛ بل كان رجل دعوة دينية وجهاد فهو لا يهــتم لمظاهر، أو مراكز، أو نتائج سياسية، وإنما هو كما صرح موصيا أولاده قبل خروجه للغزو لقــد « بعت نفسي من الله عز وجل بيعا مربحا أن أجاهد من كفر حتى ألحق بــالله. ولســت أدري

---

(1) قال ابن الأثير : كسيلة بفتح الكاف وكسر السين المهملة. أسد الغابة، ج 3، ص557.

(2) كان مولى لمسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت1987، ج3، ص210. كان تولي أبي المهاجر ولاية إفريقية قد فتح المجال للموالي لتقلد المسؤوليات داخل الدولة الإسلامية والذي سيظهر بجــلاء في العهد العباسي كما في العهد الفاطمي وفي الدولة الأموية بالأندلس، وربما كان سببا في الصراعات التي كانت تقوم بين القبائل العربية .

(3) عبد العزيز فيلالي: مدينة ميلة (التطور التاريخي في العصر الإسلامي الوسيط)مجلة جامعة قسنطينة ، ع4، سنة 1993،ص69.

أتروني بعد هذا أو أراكم؛ لأن أملي الموت في سبيل الله، أو ردي إليكم كما أحب.. اللهم تقبل مني نفسي في رضاك .»[1]

خرج عقبة في جيش كبير[2] قاصدا مدينة (باغاية)[3] وهي أهم المراكز العسكرية على مداخل جبل أوراس من الناحية الشرقية حيث التجأ إليها الروم والبربر « فنزل بجمعه عليهم، وحاصرهم، فخرجوا إليه في جمع كبير، فقاتلهم قتالا ذريعا، وأخذ لهم خيلا كثيرة، لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها، وكانت من نتاج جبل أوراس المطل عليها.»[4] لقد تراجع البربر والروم إلى داخل المدينة الحصينة على أمل إطالة مدة الحصار أملا في الحصول على المدد، أو لدفع العرب إلى الانسحاب، إلا أن عقبة لم يكن يستهدف بغاية لذاتها، إنما أراد أن تكون هي بداية لمشروعه الطموح لفتح المغرب كله، وهو المشروع الذي صرح به عند بداية حملته.

هنا يظهر لنا التحالف بين البربر والروم، واجتماعهم لقتال المسلمين وإن اختلفت أهداف كل فريق، فالروم يقاتلون حفاظا على ممتلكاتهم وحصونهم، بينما يحاول البربر الدفاع عن حريتهم التي استردوها بعد زوال الهيمنة البيزنطية. ولا نشك بأن الطابع القبلي الذي كان عليه سكان الأوراس هو الذي جعلهم يستميتون في قتال الفاتحين العرب.

يرى جوليان أن عقبة لم يحاول حصار المراكز المحصنة شمال الأوراس، بل انطلق صوب الغرب مباشرة بعدما اصطدم بمقاومة شديدة من الأهالي المدعومين من بقايا الروم قرب باغاية ولمباز. وكأن عقبة لم يكن قادرا على فتح هذه الحصون فآثر الانسحاب وتجاوز منطقة الأوراس[5]ولكن معرفة شخصية عقبة و إثاره المواجهة المباشرة، وطموحه الشديد في استكمال فتح المغرب يؤكد

---

(1) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، تح : عبد الله العلي الزيدان وعز الدين عمر موسى ، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1990، ص9؛ إبن الأثير : المصدر السابق،ج3،ص308.

(2) الرقيق: المصدر السابق، ص10؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج3، ص308.

(3) ترسم باغاي ، وباغاية : وهي مدينة كبيرة جليلة فيها ىثار للأول مسورة تحت جبل أوراس ومنه يجري إليهم ماء كثير ، كثيرة البساتين.المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ،ط3، مكتبة مدبولي ، القاهرة 1991،ص227؛مؤلف مجهول :كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار ، تح: سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية ،الدار البيضاء 1985،ص163.

(4) ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق، ج1،ص24؛الرقيق : المصدر السابق ،ص10؛ البكري : المصدر السابق، ص24.يتحدث (غوتي) بإسهاب عن الحصان المغربي فيقدم لنا بعض مميزاته ومنها كقصر قامته ونحافة جسمه وقلة غذائه لكنه أكثر تحملا من غيره من الخيول، وهذه السلالة استخدمت في الجيوش القرطاجية والرومانية، ويعود أصلها إلى الخيول التي أدخلها الهكسوس إلى مصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد، وقد انتقلت إلى المغرب بعدما تمكنت القبائل البربرية من غزو مصر وإقامة أسرة حاكمة فيها.Gautier:op.cit,p175-179.

(5) المرجع السابق ،ج2،ص20.

أن الرجل كان على دراية بما كان يفعل إذ لم يرد إضاعة الوقت في حصار طويل منهك، فاتجه إلى دخول بلاد الزاب.

لكن النص الذي أورده كل من الرقيق والمالكي يجعلنا نعيد قراءة أحداث فتح الأوراس من جديد فهو يشير إلى دخول عقبة منطقة الأوراس وحصار أعظم مدنها(أذنة) وهي التي يسميها ابن حماد (باتنة) أو (باذنة)[1] قال المالكي:« ثم رحل- عقبة- يريد الزاب، فسأل عن أعظم مدينة لهم ، فقيل له (أذنة)وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية عامرة. فلما بلغهم قدوم المسلمين عليهم هربوا إلى حصنهم وإلى الجبال، فنزل عقبة على واد منها على ثلاثة أميال أو أكثر، فلقوه في عدة عظيمة في وقت المساء، وكان وقت نزوله، فكره منازلتهم وقتالهم في الليل، فتوافق القوم الليل كله، لا راحة ولا فترة ولا نوم ن فسماه الناس إلى اليوم (وادي سهر) لأنهم سهروا عليه، فلما صلى عقبة الصبح امر المسلمين بقتالهم، فقاتلهم قتالا ما رأى المسلمون مثله قط، حتى يئس المسلمون من أنفسهم، ثم أعطاهم الله عز وجل النصر والظفر، فانهزم الروم وقتل فرسانهم، اهل النكاية والبأس منهم واستولت الهزيمة على بقيتهم، وفي هذه الغزوة ذهب عز الروم من الزاب وذلوا وتحصنوا، فكره عقبة المقام عليهم وقد تحصنوا.»[2] كما أورد الحميري النص نفسه مع بعض الاختلاف. إلا أنه يذهب إلى أن ذلك وقع بعد انفصال عقبة عن تلمسان.[3]

والنص يؤكد بأن حملة عقبة هذه هي أول حملة للمسلمين تتوغل داخل منطقة الأوراس، وليس كما درجت عليه الروايات من أن عقبة تجنب دخول الأوراس بعد المقاومة الشديدة التي لقيها عند حصارة لحصن باغاية.

كانت الانتصارات التي حققها عقبة في منطقة الأوراس قد أضعفت الحلف البربري البيزنطي، الأمر الذي جعله يرسل معظم جيشه إلى القيروان عند قفوله من طنجة ثقة بما صنع.

---

(1) يسميها ابن حماد مدينة باتنة ، ويصفها بأنها مدينة عظيمة خربت، بينها وبين المسيلة إثنا عشر ميلا. أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تح: جلول أحمد البدوي،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984، ص41؛ وانظر نفس المصدر طبعة القاهرة بتحقيق: التهامي نقرة و عبد الحليم عويس، ص71.البكري: المصدر السابق،ص144؛ الحميري: المصدر السابق،ص20.

(2) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ،تح: بشير البكوش،ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1994، ج1،ص36-37؛ الرقيق القيرواني: المصدر السابق،ص11-12.

(3) المصدر السابق،ص20.

يقول ابن الأثير:« فلما وصل إلى المدينة طبنة، و بينها و بين القيروان ثمانية أيام، أمر أصـــحابه أن يتقدموا فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال من العدو، و أنه لم يبق أحداً يخشاه.»(1)

أغلب الظن أن يكون من انصرف من جيش عقبة نحو القيروان قد ســـلك الطريـــق المـــار (بتمقاد) بينما سار هو إلى تهوذة (2)مع من بقي معه من الفرسان « لينظر إليها وإلى بادس ويعرف ما يسدهما من الفرسان فيترك فيهما بقدر الحاجة.»(3)

لقد بدأت حملة عقبة بشمال شرق الأوراس وانتهت عند سفوحه الجنوبية على مشارف مدينة تهودة في أواخر سنة64هـــ/684م أو أوائل 65هـــ/684م حيث استشهد مع معظم مـــن كان معه، أي نحو ثلاثمائة فارس. وحسب رواية ابن عبد الحكم يكون مقتله سنة63هـــ.(4)

إن الذي جعل عقبة يتجه جنوبا نحو بادس وتهودة هو محاولته القضاء على مراكز زناتة، والتي ظلت تشكل عنصر تهديد لمنطقة الأوراس منذ عهود سابقة، إذ كانت تشن غاراتها على منطقـــة الأوراس في الشمال، لذلك أدرك عقبة أن استقرار الوضع للعرب، يقتضي مهاجمـــة زناتـــة في مرابعها بالصحراء.

كان مقتل عقبة نكبة كبيرة أصابت المسلمين، فأسلمتهم إلى ما يشبه اليأس من إمكانية فـــتح المغرب البربري رغم الانتصارات المدوية التي حققها العرب، وهو ما دفـــع أهـــل القـــيروان إلى إخلائها خوفا على أنفسهم من كسيلة السيد الجديد لإفريقية (5)

لقد أثار مقتل عقبة على يد البربر ردود فعل من المؤرخين المسلمين المشارقة منهم والمغاربة؛ إذ نجد فيهم من يسوق نصوصا يزعم أنها من السنة النبوية تنهى عن سكنى مدينة تهودا، وهذا نتيجة لتأثرهم بمقتل عقبة فيها على يد كسيلة وحلفائه الروم، وهي أحاديث في مجملها موضـــوعة لا تذكرها كتب السنة الصحيحة.

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق، ج3،ص308؛ السلاوي الناصري : كتاب الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،تـــح: **جعفـــر** الناصري و محمد الناصري،ط1، دار الكتاب الدار البيضاء1997،ج1، ص139.

(2) ترسم تهودة ،وتهوذة ،وتهودا وتهوذا.وهي مدينة أزلية بنيانها بالحجارة لها أسواق كثيرة وربض واحد وبها جامع جليل (الـــذي بـــني تخليدا لذكرى إستشهاد عقبة المستجاب) ومساجد وفنادق كبار يسكنها قوم من الروم .إبن عذاري : المصدر السابق ،ج1،ص30.

(3) النويري: المصدر السابق، ج24، ص15.

(4) نفس المصدر، ص227؛ إ بن حجر العسقلاني:المصدر السابق ،ج5،ص64.

(5) Albertini,Maurcais,l'Afrique du nord français dans l'Histoire,Achet,paris,p136.

فقد روى ابن عذاري وأبو العرب والمالكي عن النبي ε قال عن تهودا[1]:« سوف يقتل عليها رجال من أمتي مجاهدون في سبيل الله، ثوابهم كثواب أهل بدر ما بدلوا ولا غيروا، يـــأتون يـــوم القيامة وسيوفهم على عواتقهم. » وزاد بعضهم « وأهل أحد، والله ما بدلوا حتى ماتوا. واشوقاه إليهم!»[2]

إن مأساة تهودا قد أربكت المسلمين في المغرب كله لما نتج عنها من اضطراب في صـــفوفهم فدفعت أغلبهم إلى القفول إلى طرابلس ومصر مما جعل المالكي يصور هـــذا الموقـــف بقولـــه: « وزحف _كسيلة_ إلى القيروان. فانقلبت إفريقية نارا، وعظم البلاء على المسلمين، فخرجـــوا هاربين لعظم ما اجتمع عليهم من البربر والروم مع كسيلة، و لم يبق فيها إلا الشـــيوخ الهرَمَـــى والنسوان والأطفال وكل مثقل بالعيال. وحار الناس، وأرسلوا إلى كسيلة يسألونه الأمان، ووثقوا بدعوة عقبة- رحمه الله تعالى- فأجابهم إلى ذلك.»[3]

---

(1) البيان المغرب ،مصدر سابق،ح1،ص 30؛ أبوبكر المالكي: ،ج1،ص 43 ح أبو العرب : طبقات علماء إفريقية ، دار الكتـــاب اللبناني ، بيروت بلاتا،ص9-10.

(2) لم أقف على هذا الحديث في كتب السنة المعتمدة ،كالصحاح والسنن والمسانيد ، وهو حديث يظهر فيه الانتحال والوضع . وكل ما ورد عن المغرب قول الرسولε [لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة] أبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأســـفرائيني: مسند أبي عوانة، تح: أيمن بن عارف الدمشقي ط1، دار المعرفة، بيروت 1998،ج4، 509؛أما مسلم فقد أورد الحديث[لا يـــزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة] صحيح مسلم ،تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي ، بـــيروت ،ج3، 1525.

(3) المصدر السابق، ج1،ص44.

المبحث الثاني

حسان بن النعمان ينهي مقاومة الأوراس للفاتحين:

لما علم عبد الملك بن مروان بخبر مقتل زهير عظم عليه الأمر، خاصة وأن الدولة الأموية كانت تشهد ثورة داخلية أثارها ابن الزبير. فأضاف للخلافة جرح نازف، وأزمة أخرى مما يستوجب المبادرة لإيجاد حل لها، وبعد مقتل ابن الزبير[1] في مكة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، رأى الخليفة أن يسيّر جيشًا إلى المغرب بقيادة حسان بن النعمان الغساني[2]الذي كان بمصر عندما قتل زهير، وأمره عبد الملك بغزو إفريقية. فخرج في أربعين ألفا مقاتل، و لم يدخل أحدا من الأمراء قبله إفريقية بمثل هذا الجيش، فبدأ بالتضييق على قرطاجنة إلى أن تغلب عليها وتمكن من دخولها عنوة، وهدمها حتى لا يتحصنون بها.[3]

لم يبق لحسان بعد ذلك سوى التفرغ للقضاء على اقوي جيب للمقاومة في المغرب كله وهو جبل أوراس، وقد رأى التحالف بين قبائل الأوراس وبقايا الروم وقد تعاظم هذا الحلف بعد مقتل عقبة. فلم ينتظر حسان طويلا حتى سيّر جيشًا للقاء الكاهنة التي خرجت كما يقول ابن الأثير: « غضبا لقتل كسيلة.»[4]، فقد سأل عن أعظم ملوك البربر، ومن إذا قتله دانت له إفريقية، وأنصاع له أهلها من البربر والروم[5]. فَدُل على امرأة « ليس بإفريقية أعظم قدرا ولا أبعد صيتا،

---

(1) هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد من بني أسد، كناه الرسول صلى الله عليه وسلم باسم جده أبي بكر الصديق وسماه باسمه ، أمه أسماء بنت أبي بكر، كان أول مولود للمسلمين في المدينة، بويع بالخلافة سنة أربع وستين أو خمس وستين ، بعد موت معاوية بن يزيد، وأجتمع على طاعته الحجاز واليمن والعراق وخراسان، قتل سنة ثلاث وسبعين في أيام عبد الملك بن مروان بمكة، قتله الحجاج بن يوسف.، ابن خياط: كتاب الطبقات، ص406؛ ابن عبد البر: المصدر السابق،ج1،ص541-544.

(2) حسان بن النعمان ابن المنذر الغساني من ملوك العرب ولي المغرب فهذبه وعمره وكان بطلا شجاعا مجاهدا لبيبا ميمون النقيبة كبير القدر وجهه معاوية في سنة سبع وخمسين فصالح البربر ورتب عليهم الخراج وانعمرت البلاد ، وله غزوات مشهودة بعد قتل الكاهنة فلما استخلف الوليد عزله وبعث نوابا عوضه وحرضهم على الغزو فقدم حسان على الوليد بأموال عظيمة وتحف وقال:" يا أمير المؤمنين انما ذهبت مجاهدا وما مثلي من يخون." قال:" إني رادك إلى عملك." فحلف أنه لا يلي شيئا أبدا وكان يدعى الشيخ الأمين. شمس الدين الذهبي: المصدر السابق، ج4،ص140.

(3) ابن الأبار:كتاب الحلة السيراء،تح: حسين مؤنس،ط2، دار المعارف، القاهرة 1985ج2، ص331.

(4) إبن الأثير: المصدر السابق،ج4،ص33.

(5) إبن عذاري : المصدر السابق ،ج1،35.

ولا أشد حزما منها يقال لها الكاهنة، وهي في جبل أوراس، وجميع من بإفريقية خائفون منـــها، والروم لها سامعون مطيعون، فإن قتلتها يئس الروم والبربر أن تكون لهم دولة.»[6].

لا شك أن حسان بن النعمان لم يغفل التجارب السابقة للفاتحين الذين سبقوه، فقـــد علـــم استشهاد عقبة وزهير على يد البربر والروم، وأدرك حجم التحدي الذي يواجهه، لـــذلك فقـــد توجه إلى أكبر قوة معادية تحول دون تمكين العرب من إرساء قواعد الفتح عندما سأل عن المرأة، وعرف مكانتها بين وقومها خاصة، والبربر عامة، فأراد أن يعاجلها في مستقرها بجبل أوراس.

علمت الكاهنة بما كان حسان يعد له وبما انتواه فزحفت إليه من جبل أوراس« في عـــدد لا يعلمه إلا الله عز وجل.»[1] ونزلت مدينة باغاية فأخرجت من كان بداخلها، وهدّمت حصونها ظنا منها بأن حسان إنما أراد التحصن بها.

لما بلغ حسان خبر ما صنعت الكاهنة سار إلى وادي مسكيانة[2] فنزل عليه. فزحفت الكاهنة حتى عسكرت أسفل الوادي «فكان يشرب هو وأصحابه من أعلاه وتشرب هي وأصحابها مـــن أسفل النهر.»[3]يقول الرقيق:« فلما دنا حسان والكاهنة بعضهم من بعض، وتوافـــت الخيـــول وذلك أول النهار، فأبى حسان أن يقاتلها إلاّ أول النهار، فباتوا ليلتهم على ســـروجهم، فلمـــا أصبحوا زحف بعضهم إلى بعض؛ فالتقوا بالقرب من الأوراس فتقاتلوا قتالا شديدا ما سُمِع قـــط، فعظم البلاء، وظن الناس أنه الفناء.»[4]وصبر الفريقان في الحرب إلى أن انهزم حسان ومن معه من المسلمين. وتمكنت الكاهنة من قتل العرب قتلا ذريعا، و أسرت ثمـــانين رجـــلاً مـــن أعيـــان المسلمين.[5]أكرمتهم وأطلقت سراحهم إلا واحدًا منهم يدعى خالد بن يزيد القيسي[6] الـــذي اتخذته ولداً ومستشارًا.[7]وسمي المكان بوادي العذارى.[8]وسمي أيضا نهر البلاء[9]. قيل بينه وبين

---

(6) الحميري : المصدر السابق،ص65.

(1) المالكي: المصدر السابق،ج1،ص50.

(2) وهي قرية على نهر تقع في الطريق بين باغاية ومجانة. البكري: المصدر السابق،ص145.يقول هشام جعيط بأنها برج مسكيانة الحالي على بعد 30كلم من باغاي، تأسيس الغرب الإسلامي ، ص32.

(3) المالكي : المصدر السابق، ح1،ص50؛الحميري: المصدر السابق،ص65.

(4) المصدر السابق ،ص24-25.

(5) إبن عذاري : المصدر السابق ،ج1،ص36.

(6) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص228. يسميه الرقيق في موضع واحد من تاريخه بخالد بن يزيد ، لكنه ذكره فيما سواه من المواضع باسم يزيد بن خالد ،ص25؛ أما باقي المصادر فتسميه باسمه (خالد بن يزيد) ؛ابن الأثير :المصدر السابق،ج4،ص32 .

(7) النويري: المصدر السابق، ج24،ص 19.

(8) الرقيق : المصدر السابق ،ص25؛ إبن عذاري: المصدر السابق ،ج1،ص36.

مدينة باغاية نحو ثمانية عشر ميلا.[1] وابن خلدون يحدد المكان الذي جرت فيه المعركة بأنه (وادي مسكيانة).[2]

واصلت الكاهنة ملاحقة العرب حتى أخرجتهم من عمل قابس، ولحق حسان ببرقة حيث مكث هناك في قصور سميت بعد ذلك بقصور حسان.[3] ثم كتب إلى عبد الملك بن مروان بما نزل من البلاء على المسلمين طالبا المشورة والمدد.[4]وقيل بل وافاه كتاب من الخليفة يأمره بالمقام حيث هو.[5]وهناك بني قصورا سميت باسمه إلى اليوم (قصور حسان).

التف البربر حول الكاهنة بعد الانتصار الذي أحرزته على العرب، وأغلب الذين التفوا حولها هم زناته وقومها جراوة، ومجموع قبائل الأوراس، وبقايا الروم الذين استوطنوا المنطقة وامتلكوا إقطاعيات زراعية فيها، وبذلك تقاطعت مصالح البربر بمصالح الروم النصارى طالما كان العدو واحدا يتهددهم جميعا.

ملكت الكاهنة المغرب كله بعد هزيمتها لحسان خمس سنين كاملة، صارت خلالها هي الملكة المطاعة، فسارت على درب سلفها كسيلة إذ لم تتعرض للمسلمين الذي لم يستطيعوا مغادرة إفريقية بعد انسحاب حسان، كما أثبتت حسن نواياها بإطلاق الأسرى المسلمين، ولكنها في المقابل عملت خلال ذلك على سلوك كل سبيل يمنع العرب من العودة من جديد إلى المغرب، ورأت أن أفضل وسيلة لمنعهم من معاودة الغزو هو تخريب إفريقية. فقد لاحظت أن العرب لا يكادون يترلون البلاد حتى تتوجه همتهم إلى المدائن والنواحي العامرة يسعون للإستلاء عليها. فقرَّ في نفسها أن العرب لم يكن همهم من خلال الفتح إلا جمع الغنائم كعادة كل المستعمرين السابقين.[6] فقالت لقومها :« إن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة؛ ونحن إنما نريد المزارع والمراعي! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها، حتى ييئس العرب، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر !.»[7]

---

(9) المالكي، المصدر السابق، ج1،ص50.

(1) الرقيق، المصدر السابق،ص25.

(2) المصدر السابق،ج6،ص128.

(3) نفس المصدر والصفحة؛ البلاذري: المصدر السابق،ص213.

(4) الحميري: المصدر السابق،ص65.

(5) السلاوي: المرجع السابق ،ج1،ص148.

(6) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب ، مرجع سابق،ص251-252.

(7) إبن عذاري : المصدر السابق ،ج1،ص36.

فعمد أتباعها إلى تخريب الحصون وقطع الشجر تنفيذا لسياسة الملكة البربرية، دون حساب للعواقب التي قد تنتج عن هذه السياسة، خاصة وأن إفريقية كانت كما تقول بعض المصادر « ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة، وقرى متصلة ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم إفريقية والمغرب، مسيرة ألفي ميل في مثله، فخربت الكاهنة ذلك كله، وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزر البحرية.»[1] فعمل حسان على استثمار هذا الموقف لصالحه، خاصة وأن البربر والروم المتضررين من سياسة الكاهنة قد اتصلوا به مستغيثين مما نزل بهم طالبين منه المسارعة لحرب الكاهنة، فسر حسان بذلك، و لم يتأخر في الاتصال بأسير الكاهنة(خالد بن يريد القيسي) من أجل جمع معلومات استخبارية تمكنه من معرفة مواطن القوة و الضعف في جيش الكاهنة، وحتى يتلافى تتكرر ما حدث عند وادي مسكيانة.

شرع حسان في الإعداد لحملة فاصلة من أجل القضاء على مقاومة البربر، خاصة بعدما « توافت إليه فرسان العرب ورجالها »[2]مددا من الخليفة، فأختار رجلا يثق به، وحمله كتابا إلى خالد بن يزيد يسأله عن أمر البربر، فأتى الرجل في زي سائل، فلما علم خالد بأمر الرسول أرسل معه كتابا فيه خبر البربر وأنهم« متفرقون لا رأي لهم ولا نظام عندهم.» ثم ينصح حسان بقوله « وإذا وقفت على الكتاب فاطِو المراحل، فإن الأمر لك، ولست أسلمك إن شاء الله تعالى.»[3]وموه الكتاب حتى لا تتمكن الكاهنة من الوصول إليه فينكشف أمره ويعرف سره، و يفقد مكانته عندها وهو الذي اختارته الملكة البربرية ليكون أخا لولديها لما رأت فيه من شجاعة ونبل.[4]

لقد أحيطت هذه الرسائل المتبادلة بين حسان وخالد بن يزيد بهالة من الخيال تبين غرابة الملكة البربرية، وكيف أنها كانت تستشعر الخطر الذي تهددها وقومها، عندما كانت تخبرهم في كل مرة يرسل خالد رسالة إلى حسان، ويعمد إلى إخفائها في رغيف الخبز، أو سرج حصان. كانت

---

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص36؛ مؤلف مجهول: مفاخر البربر، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية – الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد 1996،ص255.

(2) الرقيق : المصدر السابق،ص27.

(3) المالكي: المصدر السابق،ج1،ص53.

(4) الرقيق : المصدر السابق،ص26.

تستنجد بشياطينها لمعرفة مكان الخطاب، وتدعوا أتباعها إلى اقتفاء الأثر لاتقاء الخطـــر الـــذي تستشعره وتتنبأ بوقوعه.(1)

كما توضح النصوص التي تورد خبر هذه المراسلات، الوسائل التي كانت مستخدمة في تلك الفترة لنقل الأسرار العسكرية، ويبين حجم الجهود التي بذلها العرب لمعرفة مراكز القوة والضعف في الكاهنة وجيشها، وكيف أن أساليب المخابرات والشفرة والحبر السري وإن لم تكن معروفة في تلك الفترة، إلا أن العيون كانت تنقل أخبار الجيوش، والوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي للعدو.

خرج أهل إفريقية من الروم يستغيثون من الكاهنة لما ألحقته من ضرر بممتلكاتهم.(2) والظاهر أن هذا الموقف من الروم يؤكد التنافر الحاصل بين البربر والروم، مما جعل العروي يـــذهب إلى القول بأن « الملاك الرومان والبيزنطيين تضايقوا من نفوذ بربر الأوراس بمجرد رحيـــل الجيـــوش العربية.»(3)هذا الوضع لم يكن خافيا عن حسان الذي سرَّه هذا التنافر وهذا الانقسام، فأخـــذ العدة وتهيأ للزحف على الكاهنة، خاصة وأن أسرار الكاهنة لم تكن خافية عليه بما كان خالد بن يزيد يرسله إليه وما تناهي إليه من أخبار عن التعسف الذي كانت الكاهنة تمارسه ضد قومهـــا ورعاياه الآخرين، وسعيها العنيد من أجل المحافظة على وحدة القيادة بكل الوسائل، وهو السلوك الذي دفعها لاعتماد سياسة الأرض المحروقة التي كانت ترى فيها وسيلة لإبعاد المســـلمين عـــن المغرب كله.(4)لكنه غاب عنها أن الفتح الإسلامي كان استجابة لدوافع عدة أبرزهـــا شـــأنا؛ الدافع الروحي لنشر الدعوة ، فكان بذلك عملها قليل التأثير في صد العرب الفاتحين ، ناهيك عن أن العرب جاءوا من بلاد كثيرة الجدب، وأن البدو منهم جاءوا من مناطق لا أشجار فيهـــا، و لم يكن بوسعها أن تخرب كل بناء، وأن تقطع كل شجرة مما أبقى على المغرب جنة خضراء رغم ما قيل عن تخريبها لكامل المغرب،كما كان عملها هذا أهم أسباب هزيمتها وانفضاض قومها عنها، لذلك تعد ثورة الكاهنة هذه آخر عزيمة للبربر من أجل إيقاف عمليات الفتح.(5)

---

(1) الرقيق: المصـــدر الســـابق، ص29-33؛ ابـــن خلـــدون:كتـــاب العبر،مصـــدر ســـابق،ج7،ص14؛ المـــالكي: المصـــدر السابق،ج1،ص188-190.

(2) إبن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص37.

(3) المرجع السابق،ج1،ص124.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) عمر فروخ: العرب والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط،ط2،دار الكتاب العربي، بيروت1981،ص70-71.

وعندما علمت بتقدم جيش المسلمين نحوها آثرت الانسحاب إلى معقلها الحصين في جبال الأوراس حيث تستطيع الاحتماء بالجبل -كما فعل من قبل كسيله عندما واجه زهير إذ ترك الحواضر محتميا بالجبل- ويذهب الرقيق إلى القول بأن الكاهنة عندما بلغها قدوم حسان « رحلت من جبل أوراس تريده في خلق عظيم.»[1]وقبل اللقاء الحاسم أدركت المرأة الغريبة بفراستها أن نهايتها باتت محتومة، خاصة عندما أنقلب البربر والروم عليها. فأخبرت ولديها وخالد بن يزيد بأنها لاشك مقتولة، و أعلمتهم بأن رأسها رأته مقطوعا بين يدي ملك العرب.[2]فقالت لإبنيها: « إنني مقتولة وأرى رأسي تركض به الدواب تجر أذنيها إلى المشرق من حيث تأتينا الشمس، وأراه مقطوعا موضوعا بين يدي ملك العرب الأعظم الذي بعث هذا الرجل.»[3] وهنا تتضح جدوى السياسة التي سلكتها في تبني خالد عن طريق الإرضاع عندما قالت لخالد:«إني إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، فأوصيك بأخويك هذين خيرا.»[4]

فنصحها خالد بأن تترك له البلاد وترحل، ولكنها رفضت، معتبرة ذلك عارا لقومها، فقال لها خالد وأولادها:« فما نحن صانعون بعدك؟» فقالت :«امضوا إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أمانا.»[5] فركب خالد وأولادها في الليل وتوجهوا إلى حسان وأخبروه بخبرها، وأعلموه بقولها بأنها مقتولة، وأنها توجه له ولديها، فأمر بحفظهما حتى تنجلي المعركة.

التحم القتال وأشتد، وبعد طول صبر تمكن المسلمون من هزيمة البربر، وتتبع حسان الكاهنة التي انسحبت حتى نزلت الموقع الذي قتلت فيه ومن معها من البربر في المكان المسمى ببئر الكاهنة.[6]

وبمقل الكاهنة انتهت أصعب مرحلة واجهها العرب في فتح المغرب عامة والأوراس خاصة، وتحقق ما كان حسان يروم إليه من أن قتل الكاهنة أو أي ملك يحكم البربر كفيل بإخضاع المنطقة كلها لسلطان المسلمين، وهو الأمر الذي حدث. فقد أصبح الوضع متاحا أمام الفاتحين لإقرار هيمنة الإسلام على مغرب الوسط، كما سيكون الأوراس منذ هذه الفترة معبرا للفاتحين إلى

---

(1) المصدر السابق،ص32.

(2) إبن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص37.

(3) الرقيق: المصدر السابق ،ص32.

(4) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ص229.

(5) النويري : المصدر السابق، ج24،ص20 ؛ وأنظر تفصيل الحوار الذي جرى بين الكاهنة وولديها وخالد بن يزيد ، وكيف تنبأت بأن يصيب خالد الملك العظيم ،فيما ينال ولديها سلطانا عند حسان، ابن عذاري : المصدر السابق،ج1 ،ص38؛ الرقيق:ص33-34.

(6) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب،ص229؛الرقيق : المصدر السابق،ص39.

المناطق الأخرى، وليس كما يقول(EISENBETH) من أن نكسة ملكـــة الأوراس دفـــع القبائـــل اليهودية من البربر دفعا إلى اعتناق الإسلام، ثم يتحول سكانه فيما بعد إلى مذهب الخـــوارج في المغرب الأقصى.[1]

يقول ابن خلدون بعد انتصار حسان على الكاهنة :« استأمن إليه البربـــر علـــى الإســـلام والطاعة، على أن يكون منهم اثنا عشر ألفا مجاهدين معه، فأجابوه وأسلموا وحسن إســـلامهم، وعقد للأكبر من ولد الكاهنة على قومهم من جراوة وعلى جبل أوراس فقالوا : لزمنا الطاعة له سبقناها إليها وبايعناه عليها.»[2]. واصطحب حسان معه ابني الكاهنة، فأرســـلهم إلى مختلـــف النواحي يقمعون كل من لم يذعن من البربر والروم .

ومع هزيمة الكاهنة وخضوع الأوراس للمسلمين يبدأ البربر مهمة جديدة تتمثل في مشاركتهم في نشر الإسلام في المغرب أسوة بالعرب الفاتحين، بعدما حاربوه نيفا وخمسين سنة. كما كانت السياسة المعتدلة التي سار عليها حسان مع الأهالي، والمتمثلة في التسوية بينهم وبـــين العـــرب في الفيء، وتحميلهم مسؤولية المشاركة في القيادة قد آتت أكلها، وأثمرت في اســـتقرار الإســـلام في المنطقة كلها، وهي السياسة التي بادر إلى تنفيذها من قبله أبي المهاجر دينار.

ومنذ ذلك الحين أستقر العرب بالأوراس وسكنوا حواضره الكبرى، كما بـــدأ الإســـلام في اكتساب مؤمنين جدد، وأنصارا كثر سيعملون على نشره بين البربر.

لما استقام الأمر لحسان ودوخ البلاد، وخضعت له جموع البربر، وضع الخراج علـــى عجـــم إفريقية وعلى من بقي على الديانة النصرانية- وجلهم كانوا من البرانس- وشـــرع في تـــدوين الدواوين، رجع إلى عبد الملك في دمشق[3]. ثم عزل عن ولاية إفريقية، وقيل بل زهد فيها، فخلفه موسى بن نصير الذي سيكمل ما قام به حسان.

لما أفضت ولاية إفريقية إلى موسى بن نصير في صفر سنة 79هـــ/فيفري698م عمل على تدعيم للمكاسب التي حققها حسان بن النعمان، فقام بغارات سريعة هنا وهنـــاك اســـتهدفت القبائل في مضاربها مثل زناتة، وكتامة وصنهاجة لمنعها من الرجوع إلى المقاومة، فقتـــل وســـبى

---

(1) Les Juifs , Op.cit 148-149.

(2) كتاب العبر، المصدر السابق نج6،ص129.

(3) ابن خلدون : المصدر السابق،ج6،ص129؛ المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تح: محمد اليعلاوي،ط1، دار الغرب الإســـلامي، بيروت1991، ،ج3،ص 288.

أعدادا لا حصر لها ولا عد.[1] وحتى يوثّق سياسته هذه عمد إلى القبائل يأخذ منـــها الرهـــائن كضمان ولائها للعرب، وحتى لا تثور مرة أخري كما كانت تفعل من قبل، ولما تعاظم عددهم وازداد جمعهم أمر بتجميعهم بمدينة طنجة.[2]

وهذه السياسة الجديدة التي سلكها موسى، وتبناها في مواجهة القبائل الثائرة كانت تستهدف إعادة توزيعها على جهات المغرب، ودفعها الى مغادرة حصونها وقلاعهـــا، حـــتى لا تـــترع إلى مقاومته، ولا أدل على ذلك من قوله للناس:« ..من كان قبلي كان يعمد إلى العدو الأقصـــى، ويترك عدوًا منه أدنى، ينتهز منه الفرصة، ويدل منه على العورة، ويكون عونا عليه عند النكبـــة، و أيم الله لا أريم هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها، ويذل أمنعها، ويفتحها علـــى المسلمين بعضها أو أجمعها، أو يحكم اللهم وهو خير الحاكمين.»[3]

يصور ابن خلدون الوضع قبل قدوم موسى وما كان عليه البربر من التقاطع والاختلاف ممـــا جعله يسلك هذا السبيل لتثبيت النظام وضبط المنطقة فقال :«اختلفت أيدي البربر فيما بينهم على إفريقية والمغرب فخلت البلاد _ فلما قدم موسى واليا على إفريقية _ ورأى ما فيها من الخلاف وكان ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني ..وأدى له البربر الطاعة ..وولى على طنجة طارق بن زياد، وأنزل معه سبعة وعشرون ألفا من العرب، وإثني عشر ألفا من البربر، وأمرهم أن يعلمـــوا البربر القرآن والفقه.»[4]كما تذكر بعض المصادر أن موسى مكن أبناء عقبة بن نافع من الثـــأر لمقتل والدهم حسب رواية ابن قتيبة[3]. فقتلوا من أهل سجومة ستمائة رجل من كبارهم حـــتى

(1) تحفل المصادر برواية مبالغ فيها تصف حجم السبي الذي ناله موسى وبنيه إثر الغزوات التي قاموا بها في أرجاء المغرب، أنظر النويري: مصدر سابق، ج24،ص 21،ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص40.

(2) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، 41.رشيد بورويبة وآخرون: الجزائر في التاريخ،ج3، العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1984، ص27.

(3) الإمامة والسياسة ،تح: خليل المنصور،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت2001، ج2،ص228-229.

(4) المصدر السابق،ج6،ص129.

(3) المصدر السابق، ج2،ص228، إن رواية ابن قتيبة عن تمكين موسى لأبناء عقبة من الثأر لمقتل والدهم مشكوك في صـــحتها، لأن كتاب الإمامة والسياسة لم يثبت بعد نسبته إلى ابن قتيبة، ولأن تعاليم الإسلام تمنع أهل القتيل من الإسراف في القتل قال تعـــالى:« {وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً}الإسراء33»

منعهم موسى وكف أيديهم.[1] كما أخضع موسى السفوح الجنوبية لجبال أوراس حين دخل طبنة فبلغ سبيها عشرين ألف رأس. وذلك سنة إحدى وثمانين للهجرة.[2]

وقد أسرفت المراجع في ذكر حجم السبي الذي سباه موسى في فتوحاته في المغرب إذ تحدثت بأنه سبى في غزواته عشرة آلاف، قال ابن عذاري « هو أول سبي دخل القيروان في عهد موسى»[3] ووجه ابنه عبد الله إلى بعض النواحي، فأتى بمائة ألف، ثم وجه ولده مروان فأتى بمثلها، فكان الخمس ستين ألفا. وقد كتب موسى إلى عبد العزيز بن مروان يعلمة بذلك « فعجب عبد العزيز وامتلأ سرورا.»[4]

قد يكون ما ظفر به موسى من فتح وسبي ومغانم، هي التي شجعت عمال بني أمية على استدرار خيرات المغرب تقربا للولاة والأمراء والخلفاء مما جعل السكان يضجون من تلك السياسة الظالمة التي لم يجدوا لها في الإسلام مسوغا ولا مبررا، مما جعل البربر عامة وسكان الأوراس خاصة ينخرطون في الثورة على بني أمية، بعدما تأثروا بدعاة الخوارج، القادمين إلى المغرب والساعين للثورة على الخلافة.

(1) ابن عذاري : المصدر السابق ،ج1،ص41.

(2) خليفة بن خياط، المصدر السابق،ص279؛ البكري:المصدر السابق،ص50؛ الحميري : المصدر السابق،387؛الحموي: المصدر السابق،ج4،ص21؛ مجهول : كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار ،ص172.

(3) المصدر السابق،ج1،ص40.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص40 ؛ ابن قتيبة: المصدر السابق،ج2،ص229-230.

المبحث الثالث

إسلام سكان الأوراس وتعريبهم:

من الموضوعات التي مازالت تطرق من طرف الباحثين في التاريخ المغربي الوسيط، إسلام البربر. والعوامل التي ساعدت على انتشار الدين الجديد، في الوقت الذي أَفَلَتْ فيه كل الأديان والعقائد التي سبقته، فلم يبق منها إلا الذكرى، وبعض آثار من تاريخ الماضين.

وأول من أثار هذه المسألة جمهرة من المستشرقين في كتاباتهم عن هذه الفترة، ولا غرابة في ذلك لأنهم قوم بعيدون عن الإسلام، جاهلون لعقيدته وثقافته، يرفضون البحث في طبيعة هذا الدين وكيف ملك شغاف قلوب البربر في أقل من نصف قرن من الزمن، تحولوا فيه من النصرانية، أو اليهودية، أو الوثنية إلى الدين الإسلامي دونما إكراه أو إجبار، ثم تعرّبوا بعد ذلك متخلين عن لغاتهم ولهجاتهم لصالح اللغة العربية. [1]

لم يستقر الإسلام في قلوب البربر من أول يوم دخل فيه المغرب، بل استغرق ذلك عقودا من الزمن حتى طَهُرت نفوس البربر من التصورات التي تشربوها قبل قدوم العرب الفاتحين، وسبب هذا البطء أن عوامل طبيعية وبشرية وسياسية حالت دون تمكن العرب من إحكام السيطرة على إفريقية والمغرب، فقد عملت الطبيعة الجغرافية التي لم يألفها العرب على خلق مصاعب لوجيستية للجيوش الإسلامية، ما دفع عقبة بن نافع إلى بناء القيروان كمعسكر متقدم يسهّل عليه عمليات الإمداد،كما أن البربر ونتيجة لتركيبتهم السكانية ونظامهم الاجتماعي القائم على العصبية القبلية جعلهم يتضامنون فيما بينهم لصد العرب ومنعهم مع ما كانوا عليه من كثرة عدد وفرة مدد حتى قال عنهم حسان في كتابه للخليفة عبد الملك بعد أن هزمه بربر الأوراس :« أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية،كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهم من الحفل[2]والكثرة كسائمة النعم.»[3]

كما طال فترة الفتح بسبب الظروف الصعبة التي مر بها العرب في المشرق كالفتن الطويلة والمتلاحقة التي حالت دون تجريد الحملات لمواصلة الفتح.

---

(1) المنجي الكعبي: من أسباب توطيد الإسلام بافريقيا والمغرب، الثقافة، ع84، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر ، نوفمبر – ديسمبر 1984، ص57.

(2) احْتَفَلوا: اجتمعوا واحتشدوا، وعنده حَفْلٌ من الناس أي: جمع وهو في الأصل مصدر و مَحْفِلُ القوم و مُحْتَفَلُهم مجتمعهم . الرازي: مختار الصحاح ، المصدر السابق ،ص61.

(3) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1، ص36.

ولما كان البربر قد «..ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة، لم يستقر إسلامهم حتى أجار طارق وموسى بن نصير الأندلس، بعد أن دوخ المغرب وأجاز معه كثير من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد. فحينئذ استقر الإسلام. وأذعن البربر لحكمه. ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة.» (1)

وهنا يجب أن ننوه بأن المسلمين لم يستطيعوا السيطرة على المغرب إلا بعد أن ابتعدوا عن سياسة العنف، وعملوا على كسب قلوب البربر عن طريق نشر تعاليم الإسلام بينهم، وتجنيدهم في الجيوش العربية كمحاربين متمرسين، يشاركون العرب في الفتح في المغرب والأندلس، وهي السياسة التي تبناها أبو المهاجر دينار منذ المراحل الأولى للفتح، والتي عمّقها حسان وكرسها موسى بن نصير. وهي حالة لا يوجد لها مثيل في المناطق المفتوحة على مثل هذا النطاق الواسع، لأن العرب كانوا يعتبرون أعمال السياسة والحرب من اختصاصهم هم. و سبب اعتماد المسلمين هذه السياسة مع البربر عائد لاشك إلى التشابه في حياة الشعبين من حيث الصفات، والعادات الاجتماعية والتقاليد الحربية.(2) يقول غوتي:« لازالت النتائج التي وصل العرب إلى تحقيقها في المغرب تدعونا إلى الدهشة إلى اليوم، إذ تم تعريب المغرب إلى حد كبير، وتحول سكانه إلى الإسلام تحولا تاما عميقا، وهي نتيجة تدعو إلى الإعجاب ليس في ذلك شك. لأنه لم يحقق ذلك أحد من المستعمرين السابقين، ولقد أحدث هذا الفتح خلال القرن السابع الميلادي ثورة كبرى، عندما انهار ذلك الحاجز المغلق الذي كان يفصل الشرق والغرب..»(3)

و المؤكد أن سياسة المسلمين في المغرب لم تكن تختلف في جوهرها عنها في المناطق المفتوحة الأخرى من دولة الإسلام: دعوة إلى الإسلام ورغبة في نشره. لكن هذه الساسة كانت تتعثر بسبب سوء سياسة بعض الولاة، أو من العنف والقسوة التي كانت تضطر إليها الحروب والمعارك بين الفاتحين والممتنعين من البربر. ولو قيض للمغرب أن يكون فاتحيه من ذلك الطراز الذي فتح العراق وبلاد الشام ومصر« لتقدمت الحركة الإسلامية حوالي نصف قرن، ولكن للحياة الاجتماعية قوانينها التي لا تعدوها، وعلائقها التي لا تستطيع أن تتجرد منها، وسير الفتح

---

(1) ابن خلدون : كتاب العبر ،ج 6،ص129

(2) أحمد مختار العبادي : المرجع السابق،ص46-47.

(3) Gautier: op.cit.p 247-248.

الإسلامي كان تتويجا لظروف داخلية وخارجية، بعيدة وقريبة ليس له سلطان عليها بقدر ما هو أثر لها.»[1]

فقد كانت الفتنة الكبرى التي جرت أحداثها وفصولها في المشرق سببا في سكوت الفتوحات في المغرب، بل كان بعض المقيمين في المغرب من العرب الفاتحين قد مضى يشارك في الأحداث، فلما استقامت الأمور لمعاوية بن أبي سفيان عمل على دفع المسلمين لاستئناف عمليات الفتح من خلال حملات معاوية بن حديج وعقبة بن نافع وأبي المهاجر وغيرهم.

وإذا كان عبد الله بن أبي السرح يؤثر الصلح في كل مرة على مال أو فدية، فإن عقبة الذي يتقد حماسة، كان يضع أول أهدافه الدعوة للإسلام، ويصر عليها، ويتحمل المشاق والمصاعب من أجلها. فحين ولاه معاوية قيادة إفريقية سنة 50هـ/670م جمع من أسلم من البربر إلى الجيش الذي ورد عليه من معاوية[2]مستعينا بهم في غزواته وسراياه. وهنا يذكر النويري الأثر الذي تركه عقبة في البربر عندما أراد بناء القيروان، لما خاطب السباع ووحوش الغاب من أجل مغادرة المكان « فنظر الناس في ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها والذئاب تحمل أجراءها والحيات تحمل أولادها فأسلم كثير من البربر.»[3]وهو ما يؤكد انتشار الإسلام بين البربر منذ المراحل الأولى للفتح عكس ما يروَّجُ له البعض من تأخر البربر في اعتناق الإسلام إلى حين إنهاء مقاومة الكاهنة.

إذا كان حماس عقبة وكراماته قد ساهمت في إسلام البربر، فإن السياسة الحكيمة التي سلكها خلفه أبو المهاجر والذي كان لا يضع السيف حيث ينفع الحلم. قد تمكن من استمالة البربر للدين الجديد بعد انتصاره على كسيلة، ثم تألَّفه هو و قبيله وضمِّه إلى الإسلام.[4]

يرى إبراهيم حركات أن عقبة استغل عنصر المفاجأة في الانقضاض على السكان وحملهم على الإسلام، وهو يعتقد أنه كان لإسلام كسلية والأوراس تأثيرا كبيرا في الانتصارات السريعة، وانتشار إسلام صوري بين الجهات التي خضعت له والتي لم تتعزز بمراقبة فعالة وجهاز توجيهي ملائم كما وكيفا هو الذي أدى فيما بعد إلى قيام الثورة التي قادها كسلة وارتداد البربر عن الإسلام.[5] وكأن الأستاذ حركات يريد القول بأن إسلام البربر جاء نتيجة للضغط الذي مارسه

---

(1) شكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، ط5، دار العلم للملايين، بيروت 1981، ص174-175.

(2) ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص420؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج3، ص230.

(3) المصدر السابق، ج24ص12.

(4) شكري فيصل : المرجع السابق،ص177.

(5) ثورة كسيلة والكاهنة ومصير الإسلام بالمغرب الكبير، ملتقى الفكر الإسلامي، باتنة 1978،كتاب الأصالة،ج2،ص259.

عقبة لإجبار السكان على اعتناقه والخضوع لحكمه، وهو قول لا تؤيده النصوص الواردة في المصادر التي تؤرخ لغزوات عقبة، لأنها تتحدث عن إيثاره الدعوة قبل استعماله السيف فقد أجمعت المصادر على أن عقبة عندما وصل إلى تهودة وأغلق سكان الحصن الأبواب دونه، أخذ يدعوهم إلى الله وهم يرمونه بالنبل والحجارة ويشتمونه[1].

لم يكن ارتداد المسلمين وتراجعهم في هذه الحروب ارتداداً للإسلام بل «كانت كل معركة أو غزوة نصرا كانت أو هزيمة، تدفع بالموجة الإسلامية خطوة نحو الأمام، قد تتراجع ولكنها تمتد في المرة الثانية إلى أبعد مما كانت امتدت إليه في المرة الأولى، ولهذا نرى أنه كان في مقدمة جيش حسان بن النعمان بعد ذلك في العقد الثامن من القرن الأول محمد بن بكر وهلال بن ثروان اللواتي، وهذا يعني أن ناسا من البربر تمكنوا من الإسلام حتى قادوا جيوش المسلمين.»[2]

وقد كان للخليفة عمر بن عبد العزيز – الذي لم تدم مدة حكمه إلا سنتين فقط وبضعة شهور- قسط وافر في إسلام البربر بعد توليه الخلافة وعزله للولاة السابقين الذين أساؤوا السيرة وحمّلوا سكان الأقاليم المفتوحة العنت والظلم مما جعل الناس يضجون من هذه الممارسات فعين على المغرب إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر.[3]

وسبب هذا التعين أن عمر عرف عن قرب إسماعيل بن عبيد الله وما تميز به من تقوى وورع وشجاعة خاصة في مواجهة أولي الأمر، فقد كان عمر حاضرا عند سليمان بن عبد الملك عندما قدم وفد يحمل خراج إفريقية، وكان الوفد مكونا من عشرة رجال من أعيان المغرب وقادته، وكان على أعضاء الوفد أن يقسموا بأن كل دينار من تلك الجباية أخذ بحقه، فحلف ثمانية من

---

(1) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب، ص277؛ ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص28، ابن الأثير: المصدر السابق،ج3، ص308. وإذا كانت هذه المصادر تتحدث عن إسلام كسيلة على يد أبي المهاجر فإن ابن خياط يقول بأنه كان نصرانيا. تاريخ ابن خياط،ص192.

(2) شكري فيصل: المرجع السابق، ص178.

(3) إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الإمام الكبير أبو عبد الحميد الدمشقي مولى بني مخزوم ومفقه أولاد عبد الملك الخليفة من الثقات العلماء حدث عن السائب بن يزيد وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن غنم وأم الدرداء وجماعة . قال رجاء بن أبي سلمة عن معن التنوخي: ما رأيت أحدا أزهد منه ومن عمر بن عبد العزيز وقد كان ولاه عمر المغرب فأقام بها سنتين وولوا بعده يزيد بن أبي مسلم . قال ابن خياط أسلم عامة البربر في ولاية إسماعيل. وكان حسن السيرة. مات في سنة اثنتين وثلاثين ومئة قبل دخول بني العباس دمشق بثلاثة أشهر إبن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص 252؛ محمد بن حيان التميمي: المصدر السابق،،ص 179؛ المالكي: المصدر السابق،ج1،ص116-117؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، مصدر سابق،ج5، ص 213؛ النويري : المصدر السابق،ج24،ص30؛ المقريزي: كتاب المقفى الكبير، ج2،ص 125-126.

العشرة على صحة جمع المال، ورفض إسماعيل بن عبد الله، والسمح بـــن مالـــك الخـــولاني[1]، فأعجب عمر بالرجلين فضمهما إلى رجاله. فلما آلت إليه الخلافة عين الأول واليا على المغرب، وعين الثاني على الأندلس.[2]

لقد أرسل عمر مع الوالي الجديد عشرة من الفقهاء الكبار لتعليم البربر الـــدين الإســـلامي ومازال إسماعيل حريصا على دعاء البربر إلى الإسلام « حتى أسلم بقية البربر بإفريقية على يديه، في دولة عمر بن عبد العزيز، وهو الذي علّم أهل إفريقية الحلال والحرام.»[3] تلك هي السياسة التي سلكها عمر، والهادفة إلى نشر الإسلام باعتباره اللحمة الأساسية القادرة على جمـــع جميـــع سكان الدولة وتوحيدهم تحت مظلة الخلافة الإسلامية. خاصة وقد رأى كيف تحول المسلمون إلى الصراع والحرب عندما تأول الناس نصوص القرآن والسنة، فادّعت كل طائفة حيازتهـــا الحـــق لوحدها، وسواها من الطوائف خارجة عن الملة الإسلامية. فأخمد بهذه السياسة الرشيدة كثيرا من الفتن، وسكنت الكثير من الطوائف، راضية بحكم الخليفة الراشد.

لقد كانت الخمر بافريقية تشرب حتى مقدم هؤلاء الفقهاء التابعين فبينوا تحريمها، كما الغي عمر بيع البربريات، وصدر الأمر « أن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها، أو فليردها إلى أهلها.»[4]

و هؤلاء الفقهاء التابعين هم : أبو الجهم عبد الرحمن بن رافع.[5]و أبو مسعود ســـعد بـــن مسعود التجيبي.[6]أبو عبد الرحمن الحبلي.[7]وإسماعيـــل بـــن عبيـــد الأنصـــاري (المعـــروف

---

(1) ولاه عمر بن عبد العزيز الأندلس وأمره أن يخمس أرضها ، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ، قدمها سنة 100هـــ ، لمـــا هلك عمر ولى يزيد بن عبد الملك بشر بن صفوان أمر المغرب فعزل بشر السمح بن مالك وولى مكانه عنبسة بن سحيم الكلـــبي، قيـــل استشهد السمح في قتال الروم بالإندلس سنة 103هـــ ، مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها وذكر امرائها – رحمهـــم الله- والحروب الواقعة بها بينهم ،تح: ابراهيم الأبياري،ط1،دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1981ص29-30؛ الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح: روحية عبد الرحمن السويفي، ط1،دار الكتب العلمية، بيروت1997، ص209.

(2) مجهول : أخبار مجموعة، ص30-31؛ المقريزي: كتاب المقفى، ج2،ص125.

(3) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص48.

(4) البلاذري : مصدر سابق، ص227.

(5) من الفضلاء ، سكن القيروان ، وانتفع به خلق كثير ، قيل هو أول من تولى القضاء بالقيروان بعد فتحها ، ولاه عليها موسى بـــن نصير سنة80هـــ توفي بها سنة 113هـــ. أبو العرب: المصدر السابق،ص20؛ المالكي: المصدر السابق،ج1،ص110.

(6) إشتهر بالدين والفضل، كان لاتأخذه في الحق لومة لائم ، له صحبة مع جماعة من الصحابة وروى عنهم ، له مقامات محمـــودة ، وأقوال مأثورة. المالكي: المصدر السابق، ج1،ص102-106.

بتاجر الله) [1]. ووهب بن حي المعافري.[2]و حيان بن أبي جبلة القرشي.[3]و أبو ثمامة بكر بـــن سوادة الجذامي.[4]و أبو سعيد حثعل بن عاهان بن عمير.[5]و طلق بن جابان الفارسي[6].

كان السبب الذي جعل عمر بن عبد العزيز يرسل هذه البعثة ما لاحظه من سطحية تـــدين البربر، خاصة وقد كان قبل توليه أمر الخلافة أميرا على المدينة، وكانت هي ومكة قبلة الحجـــيج المغاربة، كما كان يسأل ولاته في الأقاليم عن أحوال البلد وأخلاق أهله، ولا شك أن علم بـــأن البربر أحوج ما يكونون إلى داعية حكيم يبين لهم تعاليم الإسلام وأحكام وحلاله وحرامه، فكان دور هؤلاء الفقهاء هو نشر السنّة والفقه بين البربر، فكان قدوم هـــؤلاء الفقهـــاء إلى المغـــرب وانتشارهم فيه لتعليم الناس الإسلام، مرحلة حاسمة في التمكين له وتعميم انتشاره .

والجدير بالملاحظة أن هؤلاء الفقهاء كانوا من قبائل مختلفة من العرب، ومن غـــير العـــرب، يجمع بينهم هدف واحد حدده عمر وهو نشر الإسلام بين الناس، كما قام هؤلاء بنشاط سياسي ظاهر من خلال مساندة والي المغرب حنظلة بن صفوان عندما ثار عليه ميسرة المطغري الصفري

---

(7) اسمه عبد الله بن يزيد المعافري ، عرف بالصلاح والتقوى روى هو الآخر عن جماعة من الصحابة منهم أبو أيوب الأنصاري وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وغيرهم أقام بإفريقية حتى مات بها.ابو العرب : المصدر السابق،ص20؛المالكي: المصدر الســـابق،ج1،ص99-101.

(1) من أهل الفضل والعبادة والنسك والإرادة ، كان كثير الصدقة سخي اليد ، مع علم وفقه ، هو الذي بني المسجد الكبير بالقيروان ، وإليه ينسب السوق الذي بجواره. سمي بتاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه يصرف في وجوه الخير.ابو العرب: المصـــدر الســـابق،ص20؛ المالكي: المصدر السابق،ج1،ص106-109؛ الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،تح:إبراهيم سبوح،ط2، مكتبة الخـــانجي، مصر 1968،ج1،ص191-195.

(2) تابعي صحب ابن عباس ، وروى عنه وعن غيره من الصحابة ، سكن القيروان وفيها توفي.أبو العرب: المصدر الســـابق،ص، 21. المالكي: المصدر السابق،ج1،ص110-111، الدباغ : المصدر السابق،ج1،ص213.

(3) هو حبان بن أبي جبلة القرشي المصري ، تابعي روى عن جماعة من الصحابة منهم ابن عباس ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، توفي سنة 122هـــ أو 125هـــ.المالكي : المصدر السابق،ج1،ص111-112، الدباغ : المصدر السابق،ج1،ص209.ابو العبـــاس المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس،ط1، دار صادر، بيروت1968،ج3،ص5-6.

(4) قيه تابعي روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وسعيد بن المسيب ، وعطاء بن يسار سكن القيروان وبها كانـــت وفاتـــه ســـنة 128هـــ. في خلافة هشام بن عبد الملك. المالكي: المصدر السابق،ج1،ص112-113؛ الدباغ: مصدر سابق ، ج1،ص211-213.

(5) من التابعين ، ولم تذكر المصادر التي ترجمت له عمن روى من الصحابة ، ولي قضاء الجند لهشام بن عبد الملك.المـــالكي: المصـــدر السابق،ج1،ص114-115.

(6) من التابعين العشرة الذين أرسلهم عمر ولم يذكر عمن روى .ابـــو العـــرب : المصـــدر الســـابق،ص20، المـــالكي : المصـــدر السابق،ج1،ص117-118.

بطنجة وكتبوا له رسالة في أصول الدين وقواعده، وطرق النجاة في الدنيا والآخرة. وقد بعث بها إلى أهل طنجة.[7]

وهذا الموقف الذي وقفه هؤلاء الفقهاء يعكس معرفتهم بالنحلة الخارجية، وما تركته من جراح غائرة في جسم الأمة، نتيجة للحروب التي خاضوها، انتصارا لأفكارهم حتى لو تبني دعاتهم وثوارهم بعض ما جاء في القرآن والسنة. لكنهم تأولوها ثم غالوا في تطبيقها، فسلوا سيوفه على جميع المسلمين الذين يخالفونهم.[1]

إن الذي دعا البربر إلى اعتناق الإسلام هو صفاء فطرتهم، والإسلام دين الفطرة، ولحب البربر للحرية، والإسلام يدعو إليها، وحاجتهم إلى الرقي الاجتماعي، والإسلام جاء لتحقيق ذلك كله.[2]

والمؤكد أن سرّ هذا الإقبال عائد إلى ثلاثة أمور جوهرية لا يمكن إهمالها وهي: تساهل البربر في المعتقد، وبساطة العقيدة الإسلامية التي فهمها البربر وقبلوها دون كبير عناء وطول تفكير، ثم انتشار الفوضى الدينية والاجتماعية في المغرب قبل الإسلام، مما أدى إلى زوال العقائد والأفكار التي يمكن أن تقف في وجه الزحف الإسلامي.

صحيح أن إسلام بربر الأوراس قد تأخر عن غيرهم من مناطق المغرب ، وذلك لأن الأوراس في مراحل الفتح المتتالية كان يمثل جدار الصد الذي يقف في وجه حملات الفتح، ومن البديهي أن يكون الصراع متعدد الأوجه فهو صراع بين عقيدة إسلامية قائمة على التوحيد، وعقائد وثنية أو مسيحية، وكل طرف كان يزداد تمسكا بعقيدته. أما بعد هزيمة الأوراس والكاهنة، وانهيار

---

(7) الرسالة في المالكي : المصدر السابق ،ج1،ص103.

(1) يورد البرزلي قول فقهاء أهل السنة في الخوارج« بأنهم أشد في كيد الدين من اليهود والنصارى للمعرفة بكفرهم ولا يلبس أمرهم . وهؤلاء _الخوارج_ يقولون نحن مسلمون نقرأ القرآن ونؤمن بمحمد ويخالفون مضمون ذلك ويحدثون الأحاديث التي تروى. وفي البخاري عن عائشة – رضي الله عنها- أنه عليه السلام تلا هذه الآية«هو الذي أنزل عليك الكتاب ..إلى قوله وما يذكر إلا أولوا الألباب» فقال عليه السلام (إذا رأيت الذين يقيمون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم) وفي البخاري أيضا عن عبد الله بن عمر كان يقول في الخوارج(شرار الخلق ويقول انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين)» فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام، تح: محمد الحبيب الهيلة ،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2002 ،ج1،ص334-335؛ إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة (دراسة في الصراع العقيدي في المغرب العربي من الفتح إلى نهاية القرن الخامس) ، ط1،دار الرسالة للنشر والتوزيع، الجزائر 2002،ص26-27.

(2) المرجع السابق، ج2، ص40.

القوة البيزنطية المتحالفة معهم، اتجه البربر إلى اعتناق الدين الجديد حتى قال أبنا الكاهنة عنـــدما أسلما:« لزمنا الطاعة له سبقناها إليها وبايعناه عليها.»[3]

وخلاصة القول: أن الإسلام دخل إفريقية وعموم بلاد المغرب ومنها الأوراس أصداءً مع فتح برقة وطرابلس، ثم تحولت الأصداء إلى أصوات مع غزوة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ثم تقدم الإسلام في المغربين الأدنى والأوسط مع عقبة في حملته الأولى، وحملة أبي المهاجر دينار، وتقدم إلى المغرب الأقصى مع ولاية عقبة الثانية. ثم أقبل عليه الناس على عهدي حسان وموســـى، وأخـــذ البربر الفقه والعلم الشرعي على عهد الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز و واليه إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر.[1]

تعريب البربر:

من الطبيعي جدا أن يفسح انتشار الإسلام بين البربر في منطقة الأوراس المجال أمام انتشار اللغة العربية، لأنها الوعاء الذي جاء فيه الإسلام، والشواهد على ذلك كثيرة كقوله تعالى:« ..وَهَـــذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَاناً عَرَبِيّاً لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ.»[2] فاتجه البربر إلى تعلم العربية لأن الفهم الصحيح للدين الإسلامي يقتضي من المؤمن به قراءة القرآن الكريم ودراســـة الســـنة النبوية الشريفة فهما مصدرا الإسلام ومظانه، ومن أجل ذلك كان من الواجب على المسلم معرفة لغتي القرآن والسنة.

لقد أكد فقهاء الإسلام وعلمائه على أن من شروط تفسير القرآن وشرح السنة النبويـــة أن يعرف المفسر والشارح اللغة العربية وفقهها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: « وذلك أن اللســـان الذي اختاره الله عز وجل لسان العرب فأنزل به كتابه العزيز وجعله لسان خاتم أنبيائه ع ولهـــذا نقول: ينبغي لكل أحد يقدر على تعلم العربية أن يتعلمها لأنها اللســـان الأولى.»[3]و« العربيـــة أشدها تمكنا وأشرفها تصرفا وأعدلها، ولذلك جُعلت حلية لنظم القرآن، وعلق بها الإعجاز وصار دلالة في النبوة.»[4] لقد طبق هؤلاء العلماء القاعدة الأصولية المعروفة:« ما لا يتم الواجب إلا به

---

(3) ابن عبدالحكم: فتوح مصر والمغرب، ص228.

(1) شكري فيصل: المرجع السابق،ص179-180.

(2) سورة الأحقاف، الآية 12.

(3) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب لجحيم، تح: محمد حامد الفقي ،ط2، مطبعة السنة المحمدية،القاهرة 1950،ص204.

(4) أبو بكر محمد بن القاسم: إعجاز القرآن،تح: أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، بلاتا،ص118.

فهو واجب.»[5] لذلك وجَبَ على المسلمين عامتهم، و خاصتهم تعلم العربية وهو الأمر الـــذي شجع البربر على تعلم العربية، والإقبال عليها بنفس الحماس الذي أقبلوا به على تعلم الإسلام.

كما أن السياسة التي سلكتها الدولة الأموية التي اعتمدت على العنصر العربي، كان لـــه دور بارز في شيوع اللغة العربية في الأقاليم المفتوحة، وخاصة في المغرب. فرغم تمسك الأمويين بمبـــدأ الاعتماد على العنصر العربي في إدارة شؤون الدولة، إلا أن هاجس الدولة كان منصبا على الدوام في مسألة تجسيد الروح العربية في جميع مناحي الحياة.

فعندما تمكن الخليفة عبد الملك بن مروان من إخماد حركات التمرد التي أقضت مضجع البيت الأموي، لأنها هددت الحكم الأموي بالسقوط والزوال في وقت مبكر، وما إن تمكنت الدولة من استعادة هيبتها، حتى قامت حركة واسعة من التعريب من أجل دعم الوجود العربي وتقوية الدولة، وهي العملية التي شملت دواوين الدولة والعملة؛ لأن تعريب الدواوين يؤدي بصفة آلية إلى دعـــم سلطة الدولة العربية إداريا بعد أن بسطت نفوذها وسلطانها على أقاليم واسعة من الأرض.[1]

لقد استهدف عبد الملك من انتهاج سياسة واسعة لتعريب الدولة إلى إتمام صبغ الدولة بالصبغة العربية الإسلامية « لأن حركة التعريب كانت مظهرا من مظاهر وجود الدولة وسيادتها- وقد — كان الاختلاف في لغات الدواوين يفتت نظام الدولة الاقتصادي ويعيق إدارتها المالية لذلك كانت حركة تعريب الدواوين دعما للمركزية العربية في النواحي الإدارية والاقتصادية وتصحيحا للنظام القديم.»[2]

وقد كان لجهود الخلافة في هذا المضمار تأثير كبير في توسيع دائرة اللغة العربية، حتى غـــدت اللغة الرئيسية بعد أن كانت تعد لغة أجنبية كسواها من اللغات بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة.[3]

كما أن اللغة العربية «كانت تجول جولتها باسم الدين، وباسم اللغة المقدسة، وكانت تكسب هذه الجولة في غير عناء، يساعدها على ذلك أن ليس وراء هذه اللهجات البربرية ماض ثقـــافي بعيد، ينفحها بالحياة ويمدها بالقوة.»[4]

---

(5) أبو حامد الغزالي: المستصفى، تح: محمد عبد السلام عبد الشافي، ط1،دار الكتب العلمية ، بيروت1983،ص217؛

(1) علي أحمد: مظاهر التعريب في العصر الأموي، / http://www.acatap.htmplanet.com/arabization المركز العربي للتعريب.

(2) حسان علي حلاق: تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي ،ط2، دار الكتاب اللبناني ، بـــيروت، ودار الكتـــاب المصـــري، القاهرة1989،ص123.

(3) نفس المرجع.

(4) شكري فيصل : المرجع السابق،ص184.

لقد أصبح مقياس التعلم أن يتمكن الرجل من قراءة العربية و يجيد كتابتها، حتى أصبحت المناصب السياسة والإدارية في الدولة الإسلامية تعطى للمستعربين الذين يتحكمون في زمام اللغة العربية وآدابها وثقافتها مكافئة لهم على ذلك.[5]

لذلك نرى أن اللغة العربية تمكنت في المغرب من التوسع والنمو على حساب اللغات المحلية حتى أننا نرى كيف صار البربر يغادرون لغاتهم، ويولون العربية من أنفسهم محلا أصيلا، فلا يكاد القرن الثاني الهجري يمضي حتى نجد العربية تتأصل في المجتمع البربري وتصبح إحدى الخصائص الملازمة له، بل ونلمح عددا من العلماء والفقهاء والمحدثين في عموم البلاد مما يؤكد هذه النقلة النوعية للبربر من لهجات قاصرة فاقدة لمبررات الديمومة والبقاء، إلى لغة مقدسة تنطق بآي القرآن في بلاغة وإعجاز.

فقد ظهر من أبناء الأوراس عدد منهم بلغت شهرتهم الآفاق من أمثال: أبو جابر يحي الطبني (ت 245هـ/859م) الفقيه المالكي، الذي تولى القضاء بطبنة للأغالبة.[1] والفقيه المحدث إسحاق بن أبي عبد الله الملشوني(ق3هـ/9م) الذي استقر به المقام برقادة[2]، والحافظ: أبي العباس أحمد بن علي البغائي(345-401هـ/956-1011م) خطيب جامع قرطبة[3]، والفقيه الإباضي المفسر: هود بن محكم الهواري الأوراسي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي، والذي يعد تفسيره الأول في المغرب الأوسط[4]، ووالده محكم الهواري الذي ولي القضاء للرستميين بتاهرت.

إن الأمر الذي لا يشك فيه هو أن الإسلام انتشر في بلاد المغرب انتشارا سريعا كما سبق وأن رأينا، والأمر الذي لا يشك فيه أيضا، هو أن هذا الانتشار للإسلام كان يفتح الطريق واسعا أمام العربية.

---

(5) على أحمد: المرجع السابق.

(1) السمعاني: الأنساب، تح: عبد اللع عمر البارودي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية ، دار الجنان، بيروت 1988، ج4، 50.

(2) أبو العرب: المصدر السابق، ص68؛ المالكي: المصدر السابق،ج1، ص401-403.

(3) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ج1، 93؛ ابن باشكوال: كتاب الصلة، ج1، ص255.

(4) هود بن محكم: تفسير كتاب الله العزيز،ج1، ص17، مقدمة المحقق؛ محمد بن موسى بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي ،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ج2، ص443؛ معجم أعلام الجزائر: ، ص338. أنظر ملحق أعلام الأوراس فقد أوردت عددا من علماء الأوراس ممن اشتهر اسمه وعلا في الآفاق ذكره.

واللغة العربية هنا لم تجد شديد خصومة من اللغة الرسمية التي ولت مع تولي الاستعمار البيزنطي وأفوله، و لم يبق منه إلا القليل حيث تتواجد بعض الجاليات الرومية التي آثرت البقاء في المغـــرب بعد زوال الهيمنة البيزنطية.[5]

وإذا كانت اللهجات البربرية ما زالت قائمة في منطقة الأوراس إلى يوم الناس هذا، فـــالأمر ليس مستغربا، لأن الإسلام لم يسع لإزالة هذه اللغات من ألسنة الناس، بل ربطهـــا بالإســـلام وعقيدته، فأصبحت مع توالي القرون من أدواته ووسائل انتشاره، والأمر في ذلك ليس قاصرا على الأوراس وحده، بل نجد اللغات المحلية في كثير من البلاد الإسلامية ظلت تستعمل بجانب اللغـــة العربية. والمثير للدهشة أننا نحن سكان الأوراس لا يسهل التواصل بيننا إلا بواسطة اللغة العربيـــة فيما تبقى اللهجات المحلية محصورة في جهات محدودة منه، كما أن بعض هذه اللـــهجات قـــد استعارت الكثير من مفرداتها من اللغة العربية.[1]

وهذا بالتأكيد لا يعني زوال اللهجات المحلية واختفائها نهائيا من المنطقة ولكنها تراجعـــت إلى حد جعلها قاصرة على المناطق الجبلية الحصينة كمثل دواخل الأوراس. فأصبح استعمالها منحصرا في التعاملات اليومية لسكان هذه المناطق النائية؛ و لم يكن في يوم من الأيام صراع بـــين العربيـــة واللغات المحلية كما يروج البعض، بل إن اللغات المحلية أسلمت هي الأخرى وصـــارت رافـــدا جديدا من روافد الإسلام على غرار ما جرى للغة الفارسية والتركية.[2]

لقد أصبحت اللغة العربية لغة رسمية في الدولة الإسلامية، مما ساعد على تقلص نفوذ العجـــم وأهل الذمة، وتحولت اللغة العربية بالتالي إلى وعاء للفكر والحضارة، فأقبل الموالي على تعلمهـــا وإتقانها.[3]

---

(5) شكري فيصل : المرجع السابق، ص184-185.

(1) يوسى آرو: المرجع السابق،ص71.

(2) ذكر (René Basset) في دائرة المعارف الإسلامية مادة (البربر) العديد من المصنفات التي كتبت باللهجات البربريـــة ومنـــها الشاوسة والشلحية ولهجة زواوة وغيرها وهي في الغالب كتب في الفرائض والتاريخ والشعر والقصص، ج3، ص518-521.

(3) حسان علي حلاق: المرجع السابق،ص124.

المبحث الرابع

حكم فتح الأوراس وإفريقية وعموم بلاد المغرب:

إن الذي دفع الفاتحين المسلمين لفتح المشارق والمغارب ليس الطمع في الغنائم والنفائس التي افتقدوها في صحرائهم الفقيرة كما يزعم أكثرية المستعربين الأوروبيين. وهذا من وسائل الدّس والتزوير في تاريخ الإسلام.

وهو المنهج الذي يلقى الرواج والقبول عند الكثير من الدارسين المسلمين المتأثرين بمنهج المستشرقين وكتاباتهم. ومن أمثلة هذا الدّس ما ساقه المستشرق المجري (جولد تسيهر)[1] من أن الغزاة العرب كانوا يقاتلون على طمع الدنيا، إذ كان الدافع الرئيسي لاندفاع جموع الأعراب البدو المولوعين بالنهب والمغامرات نحو المناطق الخصبة، هو ما تتوفر عليه من غنائم الحرب، وما تضمنه لهم من مرتبات تصرف لهم من بيت المال في وقت السلم. و لم يكن المغرب يخلو من مما يجذب العرب الفاتحين. فقد كان البربر في المناطق الصحراوية ومناطق الرعي يعيشون شظف

---

(1) غولد تسيهر Gold Ziher(1850-1921) تخرج من كلية اللغات السامية من جامعة بودابست ، وليبزينغ وبرلين ، وليدن، ولما نبه ذكره وأشتهر اسمه عين أستاذا محاضرا في كلية العلوم بجامعة بودابست سنة 1873ثم أستاذ كرسي سنة 1906رحل بتكليف من حكومته إلى سورية وفلسطين ومصر، حيث تضلع في اللغة العربية على شيوخ الأزهر ولا سيما الشيخ محمد عبده وتزي بزي الشيوخ اشتهر بتحقيقاته في التراث الإسلامي من أهم آثاره كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام ، والذي يعد من أكثر الكتب التي اشتهرت بالدس في الإسلام والطعن فيه ، ترجم إلى العربية .نجيب العقيقي : المستشرقون،ط4،دار المعارف ، القاهرة1981،ج3،ص40-42؛ مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون (ما لهم وما عليهم)، ط4، دار الوراق، بيروت 2003،ص 41.

العيش ويتحملون المشقة كما كانت حياة البدو في شبه الجزيرة العربية. لكن توجد مناطق خصبة في الشمال فيها من الثروة ما كان يغريهم على الغزو والتوسع. [2]

لكن الدارس المحايد الذي ينشد الحقيقة لا يجد تبريرا منطقيا لهذه التفسيرات البعيدة عن الحق المجانبة للصواب. وما يؤيد ما ذهبنا إليه من تضعيف هذه الأقوال، هو ما أثير من جدل فقهي بين فقهاء الإسلام بشأن حكم الشريعة الإسلامية في أرض المغرب وغيرها من الأراضي المفتوحة.

هل هي أرض فتحت عنوة أم صلحا، أم فيها الاثنين معا، أراض فتحت صلحا وأخرى فتحت عنوة؟ لأن الحكم الشرعي في هذا الفتح هو الذي سيحدد تبعية أرض المغرب للدولة الإسلامية أو لسكانها الأصليين.

وقد كانت مشكلة الأرض وملكيتها مطروحة بشأن سواد العراق ومصر بعد الفتح،[1] لكنها ثارت في المغرب في عصور متأخرة، لأن فترات الفتح الطويلة في المغرب لم تمكّن العرب الفاتحين من الاستقرار على غرار المناطق الأخرى المفتوحة في المشرق.

لقد كان العرب قلة قليلة بالنظر إلى عدد السكان المحليين، كما كانت الأرض واسعة، كما أن المسلمين كانوا لا يستقرون في منطقة حتى تخرجهم الحرب منها، فانصبت كل جهودهم على تثبيت الإسلام والوجود العربي على أرض المغرب.

ففي ولاية حسان بن النعمان شهد المغرب إنهاء آخر المقومات البربرية بعد القضاء على ثورة الأوراس بقيادة الكاهنة، فاتجه بعد ذلك إلى الاهتمام بالعمل الإداري الذي أخذت الدولة الأموية تسير عليه فقد حاول حسان أن يفرد كل قبيلة من البربر بجزء من الأرض يخصهم بها ويقفها عليهم، فكأنما يحاول أن ينتقل بالقبائل خطوة في طريق الاستقرار. [2]

وقد كان الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ميّز أرض الصلح من أرض العنوة ، فأقرّ القرى في يد ساكنيها، وترك أرض الصلح لأهلها يؤدون عنها الخراج. بينما خُمِستْ أرض العنوة ، وجعل خمسها لبيت مال المسلمين، وترك الباقي في يد الفاتحين المسلمين الذين استقروا عليها .

---

(2) نفس المرجع والصفحة.

(1) أبو يوسف يعقوب: كتاب الخراج، ط5، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة 1396،ص68-69.

(2) شكري فيصل: المرجع السابق،ص166.

لكن قصر فترة حكمه، وعودة الأوضاع إلى سالف عهدها من الاضطراب، والظلم الصادر عن عمال بني أمية أدى إلى غيبة الاستقرار، وبالتالي تقوضَ مشروع عمر في تكريس الشفافية وتحقيق العدالة في المغرب تجنبا للصراع، وحسما لمادة الخلاف و النزاع.[3]

لقد أثير النقاش الفقهي حول هذا الموضوع بعد ذلك، لأنه النزاع حول ملكية الأرض صارت من النتائج المباشرة للفتح، وبالتالي طرح التساؤل عن كيفية إسلام البربر. يقول الداودي بأن الروايات في هذا الشأن قد اختلفت « في أمر إفريقية فقيل إنها - فتحت- صلحا، وقيل — بل فتحت- عنوة ، وقيل أسلم عليها أهلها. وقال سحنون: كشفت عن أمرها فما ثبت عندي فيها أمر»[4] و إفريقية هنا في نص الداوي تشمل بلاد المغرب كله، وإن كان التحديد الجغرافي يحصرها في المغرب الأدنى وشرق المغرب الأوسط والذي يعد الأوراس جزء منه.

كما ذكر أبو الحسن القابسي[1]أن الناس اختلفوا في حكم أرض المغرب بين من يعتبرها أرض صلح، وبين من يعتبرها أرض عنوة، ومن يعتبرها أرضا بين الصلح و العنوة على ثلاثة أقوال:

القول الأول: وهو الذي يظهر من رواية ابن القاسم عن مالك بن أنس أنها فتحت بالسيف عنوة لأنه جعل النظر في معادنها للإمام، ولو صح ذلك لم يجز لأحد أن بيع شيء منها كأرض مصر لأنها فتحت بالسيف. [2]

القول الثاني: أنها فتحت صلحا بإسلام أهلها عليها وبالتالي بقيت في أيديهم، وليس للأمير عليها إلا أخذ العشر من نتاجها.

القول الثالث: أنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض وتركوها فمن بقي بيده شيء كان له، وهو الرأي المرجح. والدليل على ذلك ما يروى من أن أحد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب

---

(3) حسين مؤنس: تاريخ المغرب وحضارته، ج1،ص146.

(4) الأموال: تح: محمد أحمد سراج وعلي جمعة محمد ، ط1، دار السلام ، القاهرة2001،ص171.

(1) أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الفقيه شيخ المالكية أخذ عن ابن مسرور الدباغ وفي الرحلة عن حمزة الكتاني وطائفة وصنف تصانيف فائقة في الأصول والفروع وكان مع تقدمه في العلوم حافظا صالحا تقيا ورعا،حافظا للحديث وعلله، منقطع القرين، وكان ضريرا. ابن العماد:شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية ، بيروت بلاتا، ج: 2 ص، 168؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود،، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، بلاتانج2،ص616-621؛ محمد بن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية،تح: عبد المجيد خيالي، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت2003، ج1،ص145عبد الأمير شمس الدين : الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي ،،ط1،دار إقرأ، بيروت 1985،ص36-37؛ رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1981،ص262-263.

(2) السلاوي: المرجع السابق:ج1،ص146.

الأندلس عندما تغلب على أرض فاس، قال لأهلها :« أخبروني عن أرضكم أصْلٌ هي أم عنــوة؟ فقالوا له: لا جواب لنا حتى يأتي الفقيه؛ يعنون الشيخ أبا جيدة فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال: « ليست بصلح ولا عنوة إنما أسلم أهلها عليها فقال خلصكم الرجل.»[3]

وقد جاء في المدونة الكبرى أن الإمام مالك سئل عن معادن البربر التي ظهرت في أرضـــهم، فقال:« أرى ذلك للسلطان يليها ويقطع بها ممن يليها، ويأخذ منها الزكاة ..بعدما يخرج ذهبه أو فضته.. وهو إنما مثله مثل الزرع إذا حصد كانت في الزكاة مكانه.»[4]

قال أيضا في المدونة:« وما ظهر من المعادن في أرض العرب أو البربر فالإمام يليها ويقطعها لمن رأى ويأخذ زكاتها سواء ظهرت في الجاهلية أو في الإسلام وما ظهر منها في أرض الصلح فهــي لأهل الصلح دون الإمام ولهم أن يمنعوها من الناس أو يأذنوا لهم فيها وما ظهر منها بأرض العنوة فهي إلى الإمام لأن الأرض للذين أخذوها عنوة .»[1]

وفي هذا الصدد يورد الونشريسي فتوى لبعض علماء المغرب عن حكم الشرعي في فتح أرض المغرب، واختلاف العلماء هل فتحت عنوة أم صلحا. قال:« أختلف في أرض المغــرب، فقيــل عنوية، وقيل صلحية، وقيل التفصيل بين السهل والجبل، وقيل بالوقف. أما أرض إفريقية فقال ابن أبي يزيد[2] في أرض العنوية والصلح من النوادر عن سحنون قال: كشفتُ عن أرض إفريقية فلم أقف منها على حقيقة من عنوة أو صلح، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال لي: لم يصح عندي فيها شيء »[3]

وقد اختلف فقهاء المذاهب في طريقة التعامل مع أرض الغصب فالمالكية كما سلف يرون أن الأرض التي افتتحها المسلمون عنوة لا تقسم، وتكون وقفًا يصرف خراجها في مصالح المسلمين،

---

(3) نفس المرجع والصفحة.

(4) مالك بن أنس، دار صادر، بيروت بلا تا، ج،2 ص288.

(1) نفس المصدر، ج2،ص289-290

(2) ابن أبي زيد: أبو محمد عبد الله بن أبي زيد ، نفزي النسب، سكن القيروان ، كان إمام المالكية في وقته ، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله، كان واسع العلم كثير الحفظ والرواية وكتبه تشهد له بذلك، كان من الذابين عن مذهب مالك قائما بالحجة عليه . له تآليف نافعة أهمها الرسالة، النوادر والزيادات ، والفتاوى، مات سنة ست وثمانين وثلاثمائة . ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنان،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت 1996،ص222-223.ابن أبي يزيد: الرسالة الفقهية، تح: الهادي حمو ومحمد أبو الأجفان،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت1986،ص9-37.

(3) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربيـــة ، الرباط،1981، ج6،ص133-134؛البرزلي: المصدر السابق،ج4،ص454.

و أرزاق المقاتلة، وبناء القناطر والمساجد، وما إلى ذلك من سبل الخير، ولا تقسم إلا أن يرى الإمام في ذلك داع لهذه القسمة.[4]

وسبب هذا التعارض و الاختلاف بين الفقهاء ما يظن من تعارض بين آية سورة الأنفال « وأعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه.»[5] وآية الحشر:« والذين جاءوا من بعدهم..»[6]عطفا على من ذكر من الذين أوجب لهم النبي ε .

ويمكن أن يفهم من ذلك أن جميع الناس الحاضرين والآتين شركاء في الفيء كما ذهب إلى ذلك عبد الله بن عمر في تفسير آية الحشر . فهو يرى أن الآية عمت الخلق حتى الراعي بـ(كداء)[1] أو كلاما قريبا من هذا، لذلك لم يتم تقسيم الأرض العنوة في عهده كأرض العراق ومصر.[2]

من خلال ما تقدم بشأن حكم بلاد البربر يتضح بأنها خليط من أرض العنوة والصلح، و لم يتم تحديد هذه الأراضي حتى يسري عليها ما سرى على بقية الأراضي المفتوحة، كما أن عدم الوضوح هذا جعل بيان الحكم الشرعي فيها أمر موكول لاجتهاد الفقهاء، ولرأي الحكام والولاة.

ولعل هذا هو الذي كان سبب المظالم التي لحقت البربر نتيجة لسياسة ولاة بني أمية، التي دفعت سكان الأوراس وعموم المغرب إلى الوقوف بجانب الدعاة الخوارج الذين أحسنوا توظيف هذه المظالم لتنفيذ مشروعهم في تأسيس كيان سياسي كتعويض عن الفشل الذي لحقهم في المشرق الإسلامي، خاصة وأن البربر قد لمسوا حسن المعاملة من الفاتحين في عهدي أبي المهاجر وحسان بن النعمان فاعتقدوا أن دعاة الخوارج إنما أرادوا العودة بالإسلام إلى سالف عهده من الصفاء والعدل.

والذي يرجح عندنا أن الحكم في قضية أرض المغرب يكاد يتسق مع الحكم العام الذي طبق في غيره كما أورد ذلك أبو يوسف جوابا على سؤال الرشيد الذي سأله عن قوم من أهل الحرب

---

(4) أبو الوليد بن رشد الحفيد: بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، تح: علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت 2000،ج1،ص603.

(5) الآية41.

(6) الآية 10.

(1) كداء: موضع بأعلى مكة عند المحصب حلق (دار) عليه رسول الله من ذي طوى قاصدا مكة يوم الفتح. قال حسان :

عندما خيلنا إن لم تروها...تثير النقع موعدها كَدَاءُ. الحموي: معجم البلدان ،ج4،ص441.

(2) إبن رشد: المصدر السابق، ج1،ص603.

أسلموا على أرضهم فقال:« إن دمائهم حرام، وما أسلموا عليه من أموالهم فلهم وكذلك أرضهم لهم، وهي أرض عشر بمترلة المدينة، حيث أسلم أهلها مع رسول الله ε وكانت أرضهم أرض عشر، وكذلك الطائف والبحرين، وكذلك أهل البادية إذا أسلموا على مياههم و بلادهم فلهم ما أسلموا عليه في أيديهم.. و أرضهم أرض عشر لا يخرجون عنها فيما بعد ويتوارثونها و يتبايعونها، وكذلك كل بلاد أسلم عليها أهلها فهي لهم وما فيها.و أيما أرض فتحها الإمام عنوة فقسمها بين الذين افتتحوها فإن رأى أن ذلك أفضل فهو في سعة من ذلك وهي أرض عشر، وإن لم يسر قسمتها ورأى الصلاح في إقرارها في أيدي أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السواد فله ذلك وهي أرض خراج وليس له أن يأخذه بعد ذلك منهم، وهي ملك لهم يتوارثونها و يتبايعونها ويضع عليهم الخراج، ولا يكلفوا ذلك ما لا يطيقون.»[1]

لذلك فأرض المغرب ومنها الأوراس لا تخرج عن أحد الاحتمالين التاليين: إما أن تكون أرضا فتحت صلحا فهي لأصحابها وليس للإمام فيها شيء إلا العشر. وإما أن تكون فتحت عنوة، لكن الإمام لم يعمد إلى تقسيمها بين فاتحيها ، بل أقر أهلها عليها . وهي بذلك أرض خراج وليس له أن يأخذها منهم بعد ذلك مما يجعلها تؤل إليهم بالتقادم فيتوارثونها و يتبايعونها ولا يكلفون ما لا يطيقون. وإما أن تكون البلاد المغربية ومنها « بلاد إفريقية وهي معظم المغرب ففيها بلاد ليست بصلحية ولا عنوية على ما يظهر من كتاب الزكاة والتجارة إلى أرض الحرب من نوادر الشيخ -سحنون- بالجملة ففيها من الخلاف ما تقدم.»[2] لأن أرض المغرب هي كما قال أبو بكر بن عبد الرحمان « إذا خفي خبر الأرض و لم يُعلم أهي صلح أو عنوة ؟ أو أسلم عليها أهلها فهي لمن وجدت بيده وإن كان لا يدري بأي وجه صارت إليه.»[3]يقول الداودي:« والذي يوجب النظر فيها أن تجري على ما تواطأت عليه القرون في أمرها، وتقر بأيدي مالكيها، إلا ما تواترت الأخبار أنه اغتصب أو أجلي عنه أهله.»[4]

والذي ترتب عن هذه القضية الفقهية، وهذا الحكم الشرعي عن كيفية فتح أرض الأوراس والمغرب عموما في اعتقادي هو الذي يكون ربما سببا في دفع قبائل الأوراس إلى الهجرة فيما بعد إلى مناطق عديدة من المغرب، كإفريقية، والمغرب الأوسط، والأقصى على غرار قبيلة

---

(1) المصدر السابق، ص68-69؛ وانظر أيضا ابن سلام: كتاب الأموال،تح: عبد الأمير علي مهنا ،ط1، دار الحداثة، بيروت1988،ص 64-86.

(2) الونشريسي: المصدر السابق،ج6،ص134

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) المصدر السابق،ص172.

الكاهنة(جرواوة) التي استقر بها المقام بسواحل مليلة و نواحي تادلة.[5] وكذلك بني عبد الـــواد الذي شاركوا عقبة الفتح في حملته الثانية، كما سيكون الزحف الهلالي بعد ذلك عامل آخـــر في خلخلة سكان الأوراس ودفعهم إلى الهجرة فزالت الصبغة البربرية عـــن الأوراس و لم تبـــق إلا في منـــاطق ضيقة منه.

---

(5) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7،ص 10.

المبحث الأول

الخوارج في الأوراس:

لم يكن ظهور حركات الخوارج في المغرب الإسلامي نتيجة رد فعل ديني بحت تزعمته فئة القراء، كما كان الحال في المشرق، في الكوفة وصفين، و لم تكن هذه الحركات أيضا بسبب الحماس للدعوة الجديدة التي انتشرت بين أولئك الذين وجدوا تناقضا بين تعاليم الإسلام التي جاء بها القرآن والسنة، والواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي أصبح عليه المسلمون. إنما كانت هذه الحركات ردة فعل لتحول أشمل، مس جميع مناحي الحياة في المجتمع الإسلامي، فقد ظهرت فئات جديدة من المجتمع تجمعت في أيديها ثروات كان مصدرها في البداية غنائم الفتوحات، ثم بعد ذلك عوائد الإقطاعات الزراعية التي امتلكتها. لذلك لا يمكن الفصل بين الدافع الديني، والدافع الاقتصادي والاجتماعي في بروز هذه الحركات واستفحال أمرها.[1]

لم يبق الخوارج في المشرق الإسلامي بسبب ما تعرضوا له من خسائر فادحة في حروبهم مع الإمام علي، ثم أمام معاوية وابن الزبير، مما جعلهم يختارون مناطق الأطراف في الدولة الإسلامية في محاولة لتقوية شوكتهم والاستعداد لجولات أخرى من الحرب والصراع.

كان الشعار الذي رفعته جميع فرق الخوارج- على ما كانت عليه من خلاف- هو الاحتكام إلى كتاب الله رافعين شعارهم المعروف (لا حكم إلا لله)[2]كما أنكروا شرط القرشية في تولي الخلافة. فقاوموا كل فكرة تناقض تصورهم هذا، وقد زادت معارضتهم للدولة الأموية بسبب تبنيها للقومية العربية، وتمكين العنصر العربي من الهيمنة والسيطرة على مقاليد الأمور من إدارة وجيش، لكن العرب أنفسهم تنافسوا على الحكم عندما عمد خلفاء بني أمية إلى الاعتماد على العصبيتين العربيتين (اليمنية) و(القيسية)، وعملوا على حفظ التوازن بينهما خدمة للدولة. لكن عمال الدولة اشتّطوا في استغلال هذه النزعة، عندما بالغ الولاة من القيسية في تقريب عصبيتهم واضطهاد اليمنية، و إذا كان الوالي يمنيا أسرف في التحيز لعصبيته، مما كان سببا في إثارة الصراع العربي داخل الدولة، وانتقل هذا الصراع إلى الولايات حيث تتواجد الجاليات العربية التي تنحدر في أغلبها من القيسية و اليمنية.

---

(1) الحبيب الجنحاني: دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي، ط1، دار الطليعة، بيروت1980، ص29-30.

(2) الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص132.

يرى الأستاذ العروي أن المغاربة قد شرعوا منذ بداية القرن الخامس الميلادي وربما قبل ذلك في قطع الصلة بأي سلطة سياسية غير بربرية. ولما قام الحكم الأموي على الأنفة والحميَّة العربية وجعلها عمادا الحكم، لأن النخبة المسيطرة على الدولة كانت قائمة على العنصرية العربية والنعرة الجاهلية. فكان انخراط البربر في الجيش العربي قد أتاح لهم فرصة الارتقاء والانتماء إلى العنصر العربي.[1]

كانت السياسة الخاطئة التي سلكها الأمويون قد أدت إلى تضرر الموالي في المغرب الإسلامي، خاصة مع وصول الوالي الجديد (يزيد بن أبي مسلم)[2] إلى المغرب سنة 102هـ/720-721م والذي أراد أن يسير بالبربر سيرة مولاه الحجاج[3]. فقد عزم على وشم أيدي حرسه وكانوا من البتر. فخطب في الناس قائلا:« إني إن أصبحت صالحا، وشمت حرسي في أيديهم كما تصنع الروم فأشِمُ في يد الرجل اليمنى اسمه، وفي اليسرى حرسي فيعرفوا بذلك من غيرهم.»[4]

فاستنكر الحراس ما أراد فعله بهم لأنه جعلهم بمرتبة النصارى، فقرروا التخلص منه من ليلته تلك. والراجح أن هذا الاغتيال كان من تنفيذ البربر الذين كانوا موالي لموسى بن نصير.[5] أو ربما بتحريض من ولده عبد الله بن موسى[6].

لقد تسربت النحلة الخارجية إلى المغرب بسبب الملاحقات المستمرة والمتابعات المتلاحقة التي كان خوارج المشرق يتعرضون لها، والتنكيل الذي لحقهم من القيادات الأموية مثل الحجاج بن يوسف الثقفي والمهلب بن أبي صفرة[7]، فدفعت الكثير من أنصار الفكر الخارجي إلى الفرار إلى أطراف الدولة الإسلامية، وكان المغرب مرشحا لاستقبال هؤلاء لما كان المغرب يتمتع به من استقرار سياسي، وخلوه من الصراعات العرقية التي كانت تضطرم في المشرق، ناهيك عن كون

---

(1) المرجع السابق، ج 2، ص142-143.

(2) يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه، وقيل كان أخاه من الرضاعة، ولاه يزيد بن عبد الملك في سنة إحدى ومائة إفريقية فقدمها في سنه اثنتين، وفيها كان مقتله على يد حرسه. ابن الإبار: المصدر السابق، ج2،ص33.

(3) الحجاج بن يوسف الثقفي الطائفي، ولي الحجاز سنين ثم ولي العراق وخراسان عشرين سنة ، كان شجاعا مقداما مهيبا فصيحا سفاكا ولاه عبد الملك بن مروان قتال ابن الزبير، وهو الذي استباح مكة وضربها بالمنجنيق، مات بمدينة واسط سنة 95هـ ، ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص ابن العماد: شذرات الذهب، ج1،ص106.

(4) إبن عبد الحكم : فتوح إفريقيا والأندلس ،ص88-89.

(5) محمد بن عميرة : المرجع السابق، ص75-58.

(6) ابن عبد الحكم : فتوح إفريقا والأندلس، ص90.

(7) ولد قبل وفاة النبيε بسنتين، كان من أشجع الناس حمى البصرة من الخوارج، وله معهم وقائع كثيرة، خليفة بن خياط: كتاب الطبقات، ص344؛ ابن خلكان: المصدر السابق،

البربر كانوا يوفرون مرتعا خصيبا للدعاة الخارجين على الدولة، ولكل صاحب نحلة جديدة قال فيهم ياقوت:« والبربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشا وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصفاهم لنمق الجهالة و لم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء ...وكم ادعى فيهم مذاهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا ثم سفكوا الدماء المحرمة واستباحوا الفروج بغير حق ونهبوا الأموال واستباحوا الرجال لا بشجاعة فيهم معروفة، ولكن بكثرة العدد وتواتر المدد.»[1]

في ظل هذه البيئة تسرب دعاة الخوارج إلى المغرب ينشرون فكرهم ويحثون على مقاومة الظلم والفساد الذي كانت الدولة الأموية تمثله. وقد وجد البربر في هذه الأفكار الجريئة ما يلبي رغباتهم المكبوتة والتي عمل الإسلام على صقلها وتهذيبها منذ أن بدأ ينتشر في المغرب مع بدايات الفتح.

بمجرد أن التجأ الخوارج إلى إفريقية دَاخلُوا عامة البربر، واستغلوا تمردهم وكرههم للولاة. فتحلّق حولهم الكثيرون في المساجد، خاصة في المسجد الجامع في القيروان، يستمعون إلى مقالتهم وآرائهم في الدين والسياسة والمال، فأخذ البربر يقارنون بين ما كان عمال بني أمية يمارسونه من عسف وظلم، وبين التعاليم التي يقول بها الخوارج، والتي كانت تصدر عن القرآن والسنة وما ساس عليه الرسول ρ والشيخين أبو بكر وعمر الأمة. وما كان هؤلاء الدعاة يوجهونه من نقد لاذع للإدارة الأموية، والواقع الذي يموج بالأهواء وسو التطبيق. فانغرست هذه المقالة في قلوب الناس. كما انبثَّ الخوارج بين عامة البربر في القرى، والبوادي، والجبال، فنجحوا في حملهم على آرائهم، وفي تحريضهم على الثورة، والإطاحة بأولي الأمر.[2]

لقد ساهم ظلم ولاة بني أمية في انتشار الفكر الخارجي بين القبائل البربرية خاصة في منطقة الأوراس وقد وفرت البيئة الحصينة التي يتمتع بها الأوراس المنطقة المثالية لاجتذاب دعاة الخوارج، والمتعاطفين معهم ومنها خاضوا حروبهم وقاموا بثوراتهم، مستفيدين من الطبيعة القبلية التي كان عليها سكان المنطقة، فهم أشبه حالا وأقرب وضعا من القبائل العربية التي فشا فيها الفكر الخارجي كقبيلتي تميم وعبد القيس وهما من سكان البادية، حتى أن أبو حمزة الخارجي وهو يخطب على منبر المدينة بعد أن دخلها ينتقد المخالفين للخوارج لأنهم كانوا يصفونهم بالحفاة العراة إذ قال:« يا أهل المدينة بلغني إنكم تنتقصون أصحابي، قلتم: شباب أحداث وأعراب حفاة، ويحكم! وهل كان أصحاب رسول الله إلا شبابا أحداثا، وأعرابا حفاة، هم والله مكتهلون في شبابهم غضة

---

(1) الحموي: معجم البلدان، ج1،ص369.

(2) عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بافريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية للنشر ، تونس1975،ص5.

عن الشر أعينهم ثقيلة عن الباطل أقدامهم »[1]إنه الوضع نفسه تكرر في بلاد المغرب، لقد رأى الخوارج سكان البوادي والجبال فاستطاعوا تجنيدهم برفعهم شعارات مغرية تدعوا إلى المساواة والعدالة والتوزيع العادل للثروة، والعودة إلى الإسلام كما نزل.

أ - الحركة الصفرية وثوراتها:

لقيت الحركة الصفرية لدى كثير من القبائل البربرية القبول والتأييد، كقبيلة ورفجومة في الجهة الشرقية من جبل أوراس.[2] وقد كانت الحركة الصفرية السباقة في رفع لواء المقاومة والثورة؛ إذ استغل دعاتها مظالم رجال الإدارة الأموية فعملوا على تأليب البربر عليهم، ودفعهم إلى خلع طاعة الخليفة. وهذه الدعوة يتضمنها نص الطبري الذي يلخص الحوار بين دعاة الخوارج وبعض سادة البربر الذين رفضوا خلع طاعة الخلافة بسب ما يفعله ولاتها إذ قالوا: « لا نخالف الأئمة بما يجني العمال، فقالوا لهم-أي دعاة الخوارج- إنما يعمل هؤلاء بأوامر أولئك، فقالوا حتى نخبرهم.»[3]

يؤكد النص أن البربر كانوا إلى هذا الوقت موالين لدولة الخلافة متحملين الأذى من ولاتها، لذلك لم يبادروا هم إلى شق عصا الطاعة، حتى عاد الوفد الذي ذهب للقاء الخليفة هشام بن عبد الملك في دمشق، فلما منعوا من لقائه، اقتنعوا بما قاله دعاة الخوارج من أن ظلم الولاة تتحمل الخلافة وزره. فادروا إلى الثورة من المغرب الأقصى وعم لهيبها في فترة وجيزة معظم بلاد المغرب لتصل إلى الأوراس الذي سيصبح أحد معاقل الخوارج.

تطلعت الحركة الصفرية لاحتلال القيروان، والسيطرة على ولاية إفريقية بكاملها. عندما سار إليها عكاشة بن أيوب الفزاري بجموعه متحالفا مع عبد الواحد بن يزيد الهواري.[4] لكن حنظلة بن صفوان عاجل الصفرية في معركتي القرن والأصنام[5]

ورغم الانتصارات الكبيرة التي حققها جيش القيروان، وهزيمته هوارة وأحلافها من الصفرية؛ إلا أن جهود الولاة في عموم المغرب في هذه الفترة الحرجة أصبح يكاد يكون منحصرا في المحافظة على الوجود العربي في إفريقية والمغرب.

---

[1] ابن الأثير : الكامل ج: 4 ص 315.

[2] عبد الحميد حاجيات : التطور المذهبي في الأوراس في العصر الوسيط ، مجلة الأصالة ،ع61/60،ص45.

[3] المصدر السابق ،ج2،ص598؛ الكامل،مصدر سابق، ج3،ص47.

[4] نفس المصدر،ج1،ص58.

[5] ذكر ابن عذاري أن الليث بن سعد الفقيه المعروف قال:" ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر ، أحب إلي من غزوة القرن والأصنام ." المصدر السابق ،ج1،ص59.

« ثم خَفَتَ صوت الخلافة بالمشرق والتاث[1] أمرها لِماَ كان بين بني أمية من الفتنة » كما يقول ابن خلدون[2] وما صاحب ذلك من اشتداد أمر الشيعة والخوارج مع مروان بن محمد. فمالت الأمور لبني العباس. فكان ذلك سببا في عبور عبد الرحمن بن حبيب من الأندلس إلى إفريقية فملكها وانتصر على حنظلة بن صفوان سنة 126هـ/744م. مما فتح المجال للصراع على حكم المغرب _ خاصة إفريقية _ بين أحفاد عقبة بن نافع الذين سيدخلون المنطقة بأكملها في صراع دامي من أجل السلطة. فكان الصراع بين ولاة بني أمية والخوارج قد هيأ المجال لبني عقبة من استعادة حكم إفريقية بدعم من العرب الأفارقة والبربر، فأصبحوا سادة القيروان التي خطها جدهم.

وثب عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة على كرسي الحكم في القيروان سنة 127هـ/745م دونما حاجة إلى استعمال القوة، وأعلن استقلاله بإفريقية، في الوقت الذي كانت الدولة الأموية توشك على السقوط، وهو ما جعل الخليفة مروان بن محمد يعترف بعبد الرحمن ويقره في منصبه واليا على إفريقية والمغرب كله[3]، فأكسب عبد الرحمن شرعية ووجاهةً وصل ذكرها إلى الأندلس.[4]وقد كان يروم إنشاء ملك وراثي في آل عقبة، ومما يؤيد ذلك أنه ضرب نقودا ذهبية وفضية على الطراز الأموي.[5]

لكن التنافس بين الفهريين على الحكم عجل بذهاب ريحهم وزوال ملكهم بعدما أدخلوا المغرب في حرب أهلية طاحنة.كما ساعد الحركة الصفرية إلى العودة من جديد إلى الظهور والعمل المسلح، ففي سنة 128هـ/746م قام البربر بإفريقية على حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب. فبعدما قتل حبيب عمه إلياس هرب عبد الوارث بن حبيب ومن معه إلى قبيلة ورفجومة لاجئين، فنزلوا على أميرهم عاصم بن جميل بالأوراس.[6]« وكان - عاصم-كاهنا يدّعي النبوة فأجاره، ثم نهض إليهم حبيب فأوقعوا به وهزموه، واستفحل أمر عاصم وشايعه على شأنه من

---

(1) التاث فلان في عمله :أي أبطأ ، واللوثة بالضم : الاسترخاء و البطء ،ابن منظور: ج2،ص185.

(2) كتاب العبر ،ج6،ص131.

(3) الرقيق: المصدر السابق، ص92.

(4) عمر فروخ: المرجع السابق،ص158.

(5) صالح بن قربة: المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1986،ص128-129.

(6) كان مقدم ورفجومة في الأوراس ادعى النبوة والكهانة فبدل الدين وزاد الصلاة وأسقط ذكر النبيρ من الأذان. ابن الأثير: المصدر السابق،ج4،ص502؛ يقول ابن خلدون بأنه كان يتعاطى الكهانة.العبر،مصدر سابق،ج6،ص135.

رجالات نفزاوة: عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي، ويزيد بن سكوم الولهاصي، وانضمت إليهم سائر نفزاوة، واشتدت شوكتهم»[1]وعظم خطرهم، فأعلنوا الدعوة للخليفة المنصور.

لقد كتب أهل القيروان من العرب إلى عاصم للقدوم عليهم بعد الفوضى التي عمّت القيروان إثر فرار أميرها إلى قابس شريطة أن يعلن عاصم الولاء للمنصور العباسي. وقد ظن العرب في القيروان أن البربر تفي لهم بما وعدهم، لكن ورفجومة عندما دخلوا القيروان سنة 133هـ/-751-750م « استحلوا المحارم وارتكبوا العظائم.»[2] وقتلوا من بها من قريش وسائر العرب، وارتكبوا أشنع الأعمال وأقبحها، وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، وندم الذين أعانوهم أشد الندم[3].وكان تغلب الصفرية على القيروان نحو سنة وشهرين.[4]

سار عاصم بن جميل إلى قابس لقتال حبيب بن عبد الرحمن، فاتجه حبيب إلى أخوال أبيه في الأوراس طلبا للنصرة، فلحق به عاصم، لكنه قتل هو وأكثر أصحابه.[5] ومن جديد يتدخل الأوراس في إفريقية وفي الحرب الدائرة بين الفهريين بدافع الولاء لأحد الأطراف، استجابة لعلاقة المصاهرة، فمكن من ترجيح كفة حبيب بن عبد الرحمن، لكن التنافس بين أفراد العائلة الفهرية عجل بزوال ملكهم.

إن التصرفات التي صدرت من ورفجومة، والتي تناقض روح الإسلام وتعاليمه، تجعلنا نستنتج بأن إسلامها كان سطحيا يومئذ، فهم لم يراعوا للدماء والأموال والأنفس والأعراض حرمة، ولا لبيوت الله قداسة، بل أطلقوا العنان لنزواتهم وشهواتهم دون رقيب ولا حسيب، يدفعهم إلى ذلك كرههم للعرب بسبب التعاليم التي اعتنقوها من دعاة الصفرية.

وليس من المستبعد أن يكون في إسلام ورفجومة بعض الرواسب من المعتقدات القديمة التي كانت قبيلة جراوة تدين بها، والمجاورة لورفجومة في النواحي الشرقية للأوراس، خاصة وأن زعيم ورفجومة عاصم بن جميل كان كاهنا متنبئا، خلط بين تعاليم الإسلام ومعتقدات أخرى ربما يكون استوحاها من الديانات السابقة للإسلام.[6]

---

(1) السلاوي: المرجع السابق،ج1 ص: 178

(2) الرقيق: المصدر السابق، ص103.

(3) نفس المصدر، ص102-103؛ إبن خلدون : كتاب العبر ،ج6،ص135؛ ابن الأثير : المصدر السابق ،ج5،ص281؛ النويري : المصدر السابق، ج24،ص38.

(4) النويري: المصدر نفسه،ج24، ص38-39.

(5) الرقيق: المصدر السابق، ص103.

(6) عبد الحميد حاجيات : المرجع السابق، ص48.

إن غياب المصادر الصفرية جعلت الكتاب يبالغون في تشنيع أعمالهم، وربما المبالغة في وصفها، وبالتالي التشكيك في صحة إسلامها، ولكن الثابت أن العنف والقسوة التي صحبت حملة ورفجومة على القيروان هي التي جعلت إباضية نفوسة تتدخل لإنقاذ المدينة المنكوبة وأهلها.

يقول الأستاذ حسين مؤنس وهو يعبر عن موقف معظم الكتاب من أعمال ورفجومة: «كانت سيادة هذه القبيلة شرا خالصا على إفريقية وأهلها، لأن كراهيتهم للعرب بلغت مبلغا جعلهم يستبيحون كل محرم، وكانت دعوة الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الإسلام من نفوسهم بعد فأضلتهم وأخرجتهم من الإسلام جملة.»[1]

لم ينتهي أمر الصفرية في القيروان حتى ظهر من جديد في جنوب غرب الأوراس عندما اشترك بنو يفرن بأربعين ألفا من الصفرية يقودهم أبو قرة اليفرني في حصار عمر بن حفص المهلبي و لم يكن معه إلا خمسة آلاف وخمسمائة من المقاتلة.[2]واشتد الحصار على طبنة لولا أن عمر لجأ إلى إعمال الحيلة والمكيدة، عندما بذل المال بسخاء لزعماء بني يفرن - وكانوا يومئذ أكثر زناتة جمعا وأصلب عودا وأقوى شوكة- إذ صالح زعيمها على أربعين ألفا. ومنح إبنه- من أجل إتمام الصفقة وتفتيت التحالف- أربعة آلاف أخرى، فارتحل بنو يفرن عن طبنة.[3]

ولكن بعد مقتل عمرو بن حفص سنة 154هـ/771م هزت إفريقية فتنة أخرى أغرت نفزاوة جبل أوراس على الثورة على الوالي الجديد يزيد بن حاتم، فأرسل جيشا لقمع الثورة وإخمادها سنة 157هـ774م. ثم عاودت الثورة بعد وفاة يزيد في رمضان 171هـ/788م على خليفته وولده داود. وقد قاد الثورة أحد الإباضيين وهو (نصير بن صالح)[4]بعدما تحولت نفزاوة هذه المرة إلى دين الإباضية كما يقول إبن خلدون[5]

لاشك أن تحول نفزاوة الى المذهب الإباضي يعدُّ نقلة نوعية في التطور المذهبي لمنطقة الأوراس في هذه المرحلة. وربما يكون الدافع وراء هذا التحول تلك الممارسات المنافية لتعاليم الإسلام التي اقترفتها ورفجومة عند دخولها القيران، عندما شاركت في الحرب الأهلية بين الفهريين. وأفسدت

---

(1) فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية(711-756م)،ط2، الدار السعودية، جدة1985، ص184-185.

(2) النويري : المصدر السابق،ج24،ص43.

(3) إبن خلدون: كتاب العبر،ج6،ص132.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق ،ج1،ص32.

(5) كتاب العبر ،ج6،ص135

أشد الإفساد عند دخولها القيروان. فتضائل حجم التأييد الشعبي للمذهب الصفري المتطرف مما دفع بأكثرية سكانه للتحول إلى الإباضية.[1]

ثم عاودت ورفجومة الثورة سنة سبع وخمسين ومائة، فهزموا مرة أخرى، خاصة وان آل المهلب كانوا بالمرصاد لكل ثورة وتمرد فركدت « ريح الخوارج من البربر من إفريقية وتداعت بدعتهم إلى الاضمحلال.» [2] وهو ما دعا عبد الرحمن بن رستم إلى موادعة أمير القيروان روح بن حاتم، فاستقرت الأوضاع بعد طول اضطراب. حتى تولى إبراهيم بن الأغلب التميمي حكم إفريقية من قبل هارون الرشيد سنة 185هـ /801م. فاستقامت له الأمور وتمكن من رأب الصدع وجمع الكلمة.[3]مستقلا بولاية إفريقية من غير منازع هو وبنوه وأقاموا بها ملكا كبيرا « بين الطاعة والاستبداد والمشاركة والإنفراد، وكانت لهم آثار وأخبار وتداولوا الملك ولدا عن ولد وتوارثوه خلفا عن سلف بعد أن تقدم القوم أمراء من قبل السلف الصالح.»[4]

وإذا كان خطر الحركة الصفرية قد انتهي إلى الزوال تقريبا بعدما خسرت عسكريا وسياسيا وفكريا، فقلّ أتباعها وضعف أثرها مع مرور الوقت. فهي لم تختف بشكل نهائي، وإنما ظلت كامنة تحت السطح تتحين الفرصة للثورة مرة أخرى متى توفرت لها الظروف.

وقد حصل أن ظهرت من جديد إلى السطح في عهد الدولة العبيدية فلم تتواني في الجهر بعداوتهم والتمرد على أحكامهم، ومناهضة عمالهم.خاصة صفرية سجلماسة.[5]

ثورات الإباضية في الأوراس:

سارت الإباضية في بدء ظهورها بالمغرب إلى اعتماد النشاط السلمي في نشر المذهب بين البربر، و لم يعمدوا إلى استعمال العنف، والقيام بالثورة إلا في ثلاثينات القرن الثاني للهجرة، عندما عملت الظروف في المغرب على بروزهم كقوة تغيير جديدة. لما صارت إفريقية كلها بيد أسرة عربية يمثلها أحفاد عقبة بن نافع الفهري. والذين أدخلوا المغرب في حروب متتالية أفضت في نهاية المطاف إلى نهاية الفهريين أنفسهم بسيوف بعضهم البعض.

---

(1) عبد الحميد حاجيات : المرجع السابق،ص50.

(2) إبن خلدون: كتاب العبر،ج6، ص133.

(3) نفس المصدر والصفحة.

(4) لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام، تح: سيد كسروي حسن،ط1،دار الكتب العلمية، بيروت 2004،ج2،ص293.

(5) محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإسلامي،ص166.

كانت تصرفات عاصم بن جميل زعيم ورفجومة الأوراسية، وعبد الملك بن أبي الجعد اليفرني، والمنكرات التي اقترفوها و الحرمات التي انتهكوها عندما دخلوا القيروان، فندم الذين أعـــانوهم ودعموهم.

يورد الرقيق نصا لحادثة وقعت في القيروان دفعت أهل القيروان إلى طلب النجدة من إباضية طرابلس. قال:« أن رجلا من الإباضية دخل القيروان، فرأى ناسا من الورفجوميين قد أخـــذوا امرأة وكابروها على نفسها، وهو ينظر، والناس ينظرون، فترك حاجته التي أتى فيها. وخرج حتى أتى أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري، فأعلمه الذي رأى. فخرج وهو يقـــول لبيـــك اللهم لبيك. واجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وتوجهوا نحو طرابلس فاخرجوا عمر بن عثمان القرشي منها واستولى أبو الخطاب على طرابلس.»[1]ثم سار إلى حرب ورفجومة يريد القـــيروان حيث التقى معهم وقاتلهم « ثم هزمهم وتبعهم يقتلهم. ثم انصرف إلى القيروان؛ فولى عليها عبد الرحمن بن رستم صاحب تيهرت بعد ذلك.»[2] كان ذلك سنة إحدى وأربعين ومائة، ثم رجعت الإباضية إلى طرابلس.

استفاد إباضيوا المغرب من إنقاذ القيروان، ونصب حمايتهم عليها ولو بصفة مؤقتـــة، ماديـــا ومعنويا وحققوا ما كان الناس يرومونه من الأمن في عموم إفريقية، فأسلموا القيادة لأبي الخطاب، وابن رستم، خاصة بعد هزيمة الجيش العباسي الذي كلف بضبط النظام في إفريقية، فساء ذلـــك الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الذي لم يرض خروج إفريقية عن سلطان دولته، فأرسل قائده محمد بن مسلمة، وحدد له الهدف من حملته: وهو القضاء على الحركة الخارجيـــة في إفريقيـــة وإعادتها إلى سلطان الخلافة مهما كانت التكاليف.[3]

يقول ابن خلدون :«و أضطرم المغرب نارًا وعظمت فتنة ورفجومة هؤلاء إلى قدوم محمد بن الأشعث سنة ست وأربعين من قبل المنصور فأثخن في البربر وأطفأ نار هذه الفتنة .»[4]

وإذا كان أبو الخطاب قد قلّم أظافر الورفجوميين ولو إلى حين، وكشف عن مدى القوة التي صارت الإباضية تملكها، فإنه بالمقابل فتح المجال واسعا للصراع مع الخلافة العباسية، التي أوكلت

---

(1) المصدر السابق، ص103-104؛ وانظر الرواية التي أوردها أبو زكرياء ، والتي تختلف عن رواية الرقيق ،التي كانت تبين قبح أفعال ورفجومة ، والأفعال الشنيعة التي اقترفتها في حق سكان القيروان مما دعا إباضية طرابلس تتدخل استجابة لاستغاثة سكانها، المصدر السابق،ص60.

(2) إبن عذاري: المصدر السابق، ج1،ص70-71.

(3) موسى لقبال : المغرب الإسلامي ،ص169.

(4) كتاب العبر ، ج6،ص135-136.

مهمة القضاء على الخوارج لقائدهم محمد بن الأشعث. و الذي وجه ضربة قاصمة لإباضية طرابلس وقتل زعيمها أبو الخطاب عبد الأعلى وشتت أتباعه، و لم يتمكن أبو هريرة الزناتي في ستة عشر ألفا من محو آثار الهزيمة فلحقه ما لحق أبو الخطاب.

ولما علم ابن رستم _وقد كان في القيروان_ بالأمر فر مع أصحابه إلى تيهرت.[1]مما سيدفعهم للالتجاء غربا في محاولة لتأسيس كيان سياسي جديد يحافظ على المشروع السياسي والفكري للمذهب الإباضي، وإن بقي الأثر الذي ستقوم به طرابلس وجبل نفوسة في توجيه سياسة الإمارة الجديدة في تاهرت واضحا من خلال لعبها دور المرجعية المذهبية، حتى حدث الانفصام السياسي فيما بعد إثر الصراع على السلطة داخل الدولة الرستمية.

هرب عبد الرحمن بن رستم إلى قبيلة لماية لحلف كان بينه وبينها، ولكونهما على مذهب الإباضية فبايعوه بالإمامة، وشرعوا في بناء مدينة تاهرت، والتي ستصبح عاصمة الإباضية في المغرب الإسلامي كله، وسيكون الأوراس بالتالي جزء تابعا لها مواليا لأئمتها مشاركا في خدمتها.

يقول إبن الصغير كبير مؤرخي الدولة الرستمية عن الظروف التي تأسست فيها، وكيف اصطلح الناس على تسمية ابن رستم إماما لهم من دون الناس، والدواعي التي منعت اختيار أحد البربر للرئاسة:« لما نزلت الإباضية مدينة تاهرت وأرادوا عمارتها اجتمع رؤسائهم فقالوا قد علمتم أنه لا يقيم أمرنا إلا إمام نرجع إليه في أحكامنا وينصف مظلوما من ظالمنا ويقيم لنا صلاتنا ونؤدي إليه زكاتنا ويقسم فينا، فقلبوا أمرهم فيما بينهم فوجدوا كل قبيل منهم فيه رأس أو رأسان أو أكثر يدبر أمر القبيل ويستحق أمر الإمامة فقال بعضهم لبعض أنتم رؤساء ولا نأمن أن يتقدم واحد على صاحبه فتفسد نيته ولعل المقدم أن يرفع أهل بيته وعشيرته على غيرهم فتفسد النيات ويكثر الاختلاف، ويقل الائتلاف، ولكن هذا عبد الرحمن بن رستم لا قبيلة له يشرف بها ولا عشيرة له تحميه وقد كان الإمام أبو الخطاب رضي لكم عبد الرحمن قاضيا وناظرا فقلدوه أموركم.»[2]

أجمعوا على توليته الإمارة ومبايعته على أن يسير بهم بما يوافق الحق ويقيم العدل. والظاهر أن هذا المخرج الذكي الذي اهتدى إليه كبار القوم، إنما جاء حلا مثاليا لحسم مادة الخلاف الذي قوض من قبل السلطة التي أقامتها الإباضية في طرابلس، عندما انحاز أبو الخطاب ومال إلى هوارة

(1) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص72.

(2) أخبار الأئمة الرستميين ، تح: محمد ناصر و إبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1986، ص29-31.

على حساب زناتة مما أدى إلى الانقسام في الجيش الإباضي الذي كانت تنتظره مواجهة عسكرية حاسمة مع جيش ابن الأشعث.[1]

لقد كان ذلك الدرس الذي استوعبته إباضية تاهرت وعملت على الاستفادة منه. حـــتى لا تتكرر المأساة فيضيع كل الجهد الذي بذله الخوارج لإيجاد قاعدة لتكوين إمارة العدل والشـــورى كما كانوا يهدفون.

(1) ابن عذاري : المصدر السابق، ج1، ص72.

المبحث الثاني

الحلف النكاري السني ضد الفاطميين (ثورة الأوراس بقيادة أبي يزيد مخلد بن كداد):

تمكن الفاطميون نتيجة لتشتت القوى الإباضية بين جبل نفوسة ووارجلان وبـــلاد الجريـــد ومنطقة تاهرت وغيرها من القضاء عليها، إذ سهل عليهم مواجهة هذه القوى المشتتة الواحدة بعد الأخرى، مما أضعف هذه الحركة وشل حركتها، فما عادت تشكل خطرا على الدولة الفاطمية، وكل المحاولات التي قامت بها كانت مجرد ثورات إقليمية محدودة الزمان والمكـــان. حـــتى ظـــن العبيديون بأنهم قد تمكنوا من بسط نفوذهم على معظم بلاد المغرب لا ينازعهم أحـــد، خاصـــة بعدما أسقطوا الدولة الرستمية في تاهرت.

لم يتحرر الإباضية من الأتاوات والمغارم التي كان الفاطميون يفرضونها عليهم إلا بعد قيـــام ثورة الإباضية الكبرى بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي. وهي الثورة التي اســـتوعبت جميع العناصر الإباضية في بلاد المغرب من نكار ووهبية وخلفية ونفاثية. وهي الثورة الوحيدة التي هددت الدولة الفاطمية وأوشكت على اقتلاعها من الجذور.[1]

و أبو يزيد هو: مخلد بن كيداد[2] بن سعد الله بن مغيث[3] قال ابن خلدون بأن «هذا الرجل من بني واركو إخوة مرنجيصة، وكلهم من بطون يفرن وكنيته أبو يزيد، وأسمه مخلد بن كيـــداد، ولا يعلم من نسبه فيهم غير هذا.»[4] أما إبن حزم فنقل عن يوسف الوراق « عن أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد بن سعد الله بن مغيث بن كرمان بن مخلد بن عثمان بن وريمت بن خونيفر بـــن سميران بن يفرن بن شانا، وهو زناتة.»[5]وعند إبن عذاري « هو مخلد بن كيداد بن سعد الله بن يفرن، ويفرن هو أبو الكاهنة؛ وتنتسب إلى جانا بن يحي زناتة كلها ».[6]كان كيداد والـــد أبي يزيد من سكان تيقيوس[7]من بلاد قسطيلية، وكان يختلف إلى بلاد السودان للتجارة، فولد له بها

---

(1) محمود إسماعيل: الخوارج،ص176.

(2) عند ابن الأثير (كنداد)، الكامل، ج6،ص302.

(3) ابن حماد: المصدر السابق، ص29.

(4) كتاب العبر، ج7، ص16.

(5) المصدر السابق،ص495.

(6) المصدر السابق ،ج1، ص216.مفاخر البربر، مصدر سابق، ص188.

(7) تيقيوس: بالفتح ثم السكون وياء مضمومة وواو ساكنة وسين مهملة ، مدينة بإفريقية قريبة من توزر ، الحموي: معجم البلـــدان، ج2،ص37.

أبو يزيد من جارية هوارية[1]، أتى به توزر[2] فتعلم بها القرآن وصاحب جماعة من النكارية[3] فاعتنق مذهبهم بعد أن كان وهبيا[4] إلا القاضي عياض يرى بأنه كان يبطن رأي الصفرية ويتمذهب بمذهب الخوارج.[5]

مات أبوه وتركه فقيرا معدما، فكان« أهل قيطون[6]يصلونه بفضل أموالهم، وكان يعلم صبيانهم القرآن ومذاهب النكارية.»[7]

رحل إلى تاهرت وفيها أقام معلما للصبيان، حتى إذا انتقل الشيعي إلى سجلماسة في طلب المهدي. غادرها إلى تيقيوس يختلف بينها وبين مدينة توزر، وحمل على نفسه مهمة تغيير المنكر، و الإنكار على الولاة.

حدثته نفسه بالخروج على السلطان، فعدّ من دعاة الفتنة، « فنذر الولاة بقسطيلية دمه»[8].

ففر إلى المشرق يريد الحج، فوجه المهدي في طلبه فرجع من طرابلس مع صاحبه أبي عمار إلى تيقيوس، فورد كتاب المهدي في طلبه مرة أخرى، مما جعله كثير التنقل والحركة، ينشر فكره ومبشرا بدعوته، مستترا من العيون.

لكنه اعتقل وزج به في السجن، فثار أنصاره لاستنقاذه ومعهم أبو عمار الأعور رأس النكارية[9] وأهل النجدة من رجال زناتة، وسعوا في إطلاق سراحه، فلما تعلل الوالي في إخراجه

---

(1) عند المقريزي:جارية صفراء هوارية. إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح: محمد عبد القادر أحمد عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2001، ج1، ص157.

(2) وهي أم مدائن قسطيلية، حصينة كثيرة النخيل والثمار، وهي أكثر بلاد إفريقية تمرا ، البكري: المصدر السابق،ص38.

(3) النكّار أو النكارية، ويقال لهم أيضا النجوية والشعبية، والشغبية؛ وهم خوارج المغرب والأندلس من الإباضية ، أو كانوا الغالبين على خوارج المغرب والأندلس، وهم جماعة يزيد بن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن ، لأنه لم يكن الإمام بالإجماع ، وكان فيهم من يبزّه علما، فاعتبروه مغتصبا للإمامة ، ونكثوا بيعته، فقيل لهم النكّاث، وكانوا في اجتماعاتهم يكثرون النجوى فقيل هم النجوية، وأحدثوا في الجماعة الشعب بمعنى الفُرقة، أو الشغب بمعنى العصيان والفوضى فقيل هم الشعبية أو الشغبية .عبد المنعم الحنفي : موسوعة الفرق والجماعات والمذاهب ،ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة 1999، ص652-653.

(4) ، الوهبية: هم الذين أيدوا إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، وصوبوا إمامته ، وهم جمهور إباضية المغرب،. أبو زكرياء: المصدر السابق،ص176

(5) ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تح: أحمد بكير محمود ،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت بلاتا،ج2،ص318.

(6) قيطون بفتح أوله وسكون ثانيه بلدة بإفريقية بينها وبين قفصة ثلاث مراحل وبينها وبين نفطة مرحلة ، ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج،4 ص: 423.

(7) إبن خلدون : كتاب العبر ،ج7ص16.

(8) نفس المصدر والصفحة.

(9) وهو الذي أخذ عنه أبو يزيد مبادئ المذهب النكاري.

أجمعوا على قتل حراس السجن و أخرجوه، فلحق ببلد بني واركلا ومنها كان يختلف إلى جبل أوراس يدعو القبائل البربرية للثورة على العبيديين.[1]

أصبحت له جماعة تتبنى رأيه وتدعوا إلى ما يدعوا إليه، فصار يغير ويحرق ويفسد فكثر نتيجة لذلك أنصاره وعظم خطره.[2]وكان مذهبه تكفير أهل الملة، وسب علي، واستباحة الأموال والدماء، والخروج على السلطان.[3]

تمثل ثورة أبي يزيد من الناحية الاجتماعية كما يرى محمود إسماعيل حلقة من حلقات الصراع التقليدي بين البتر والبرانس ، فهي من جهة تعبر عن الترعة الاستقلالية للبربر البتر من الناحية السياسية، ومن جهة أخرى تمثل الصراع بين سكان البوادي وأهل القرار. كما أنها من الناحية الإقليمية تمثل أيضا صراعا بين الدولة الفاطمية والدولة الأموية في الأندلس وإن كانت جبهة هذا الصراع هي بلاد المغرب[4].

تعد الثورة أفضل تعبير عن السخط الذي كان يجيش في صدور أهل إفريقية والمغرب الأوسط من جراء السياسات الفاطمية الرامية لفرض المذهب الشيعي الإسماعيلي على السكان، وعلى السياسة المالية الصارمة التي كانت الدولة تنتهجها، والمتمثلة أساسا في الضرائب الفادحة التي كانت تفرضها على التجارات والزروع.[5] وهي التي تكون دفعت الناس للانخراط في الثورة ومشايعة الثائر أبو يزيد مخلد بن كداد اليفرني.

كان سبب خروجه فيما يروى من أن « أبو القاسم الشيعي لما مات أبوه عبيد الله أظهر مذهبه، وأمر بسب الغار والعباء وغير ذلك من تكذيب الله تعالى؛ فمن تكلم عُذب وقتل واشتدّ الأمر على المسلمين، ثم إن أبا يزيد هبط من جبل أوراس يدعوا إلى الحق بزعمه، و لم يعلم الناس مذهبه فرجوا فيه الخير والقيام بالسنة.»[6] وقد وجد أبو يزيد دعما من فقهاء المالكية الذين أفتوا بمشروعية الخروج على العبيديين ومقاتلتهم، نصرة للدين وذودا عن السنة.

---

(1) ابن خلدون: كتاب العبر،ج7،ص16-17.

(2) إبن الأثير : المصدر السابق،ج6،ص303.

(3) المقريزي: اتعاظ الحنفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تح: جمال الدين الشيال ، ط2، القاهرة1996، ج1، ص75.

(4) محمود اسماعيل: الخوارج، ص177.

(5) بوبة مجاني : أثر الضرائب في ثوابت ومتغيرات سياسة الخلافة الفاطمية في مرحلتها المغربية ، مجلة دراسات تاريخية ،دمشق، ع:67-68، كانون الثاني –حزيران،1999،ص141-142؛ الحبيب الجنحاني: السياسة المالية للدولة الفاطمية في المغرب، الأصالة، ع50/49، وزارة الشؤون الدينية، سبتمبر- أكتوبر1977، ص56-57.

(6) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص216.

كما أورد المالكي العديد من آراء علماء المالكية في النهوض مع صاحب الحمار قال:« خرج الشيخ أبو إسحاق السبائي - رحمه الله تعالى- مع شيوخ إفريقية إلى حرب بني عدوّ الله _ يريد بني عبيد- مع أبي يزيد فكان أبو إسحاق يقول ويشير إلى عسكر أبي يزيد: هؤلاء من أهل القبلة وهؤلاء ليسوا من أهل القبلة، فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال من هو على غير القبلة..فإن ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، لأنه خارجي، والله عزو جل يسلط عليه إماما عادلا فيخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنا.»[1]

كما أن السياسة التي سلكها الفاطميون تجاه خصومهم قد زادت في تأليب الناس عليهم ودفعهم للانخراط في الثورة. فقد صور القاضي عياض ما كان يتعرض له الناس من محن شديدة على يد بني عبيد قال:« ولما أظهر بني عبيد أمرهم، ونصبوا حسينا الأعمى السباب لعنه الله في الأسواق للسب بأسجاع لُقنها يوصل منها إلى سب النبيε، في ألفاظ حفظها. كقوله لعنه الله: العنوا الغار وما وعى والكساء وما حوى. وغير ذلك، وعلقت رؤوس الأكباش والحمر على أبواب الحوانيت، عليها قراطيس مغلقة مكتوب فيها أسماء الصحابة. اشتد الأمر على أهل السنة. فمن تكلم أو تحرك قتل، ومثّل به في أيام الثالث من بني عبيد، وهو إسماعيل الملقب بالمنصور،[2]لعنه الله تعالى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة. وكان في قبائل زناتة رجل منهم يكنى بأبي يزيد ويعرف بالأعرج..فقام على بني عبيد، والناس يتمنون قائما عليهم ..»[3]

وعلى العكس من ذلك فإن الروايات الإسماعيلية المعادية للثورة تذكر الثائر بأنه كان يسير مع أبي عمار الأعمى« في البربر، ويسعيان في الفساد، والتأليف على الدولة العلوية، وتكفير المسلمين غير من يدين بدين الخوارج، واستحلال قتالهم وجهادهم ورميهم بالكفر، وعظمهما البربر.»[4] وقد سلك في نشر إيديولوجيته الثورية الطريق الذي سلكه الشيعة في نشر مذهبهم من أجل كسب الأتباع، وإقناع الأنصار.يقول الداعي إدريس أن صاحب الحمار كان:« إذا لقي أحدا

---

(1) المصدر السابق، ج2،ص339.

(2) ولد برقادة سنة إحدى وثلاثمائة أستفتح أمره بعد أن تولى الخلافة بإطلاف المحبوسين وقتل الرجال الذي كانوا يسعون في فساد الدولة، أظهر موت أبيه سنة ست وثلاثين بعد أن تمكن من أبي يزيد دام حكمه سبع سنين من (334- 341هـ) المقريزي:كتاب المقفى الكبير (تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية)، إختيار وتحقيق : محمد السيعلاوي، ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت19887، ص142-192

(3) المصدر السابق،ج2،ص318.

(4) ادريس عماد الدين القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار ، السبع الخامس، تح: مصطفي غالب، دار الأندلس، بيروت1975،ص172-173.

يذكر له الشيخين أبا بكر وعمر، ويشنع على الشيعة لبغضهما، و انهم لا يرون رأيهما، ويأتي أهل الرياسة من حيث يحبون في تزيين الرياسة لهم، وان السلطان قد ساوى بينهم وبين غيرهم ممن هو دونهم، وإذا لقي من همه الغارة والفتنة من الغوغاء والعوام أتاهم من باب تحليل الأموال والفروج، يحضهم على القيام والخروج حتى اجتمع له مائتا فارس.»[1]

كان أتباع الثورة والمنخرطين فيها من البربر البتر الـذين يسـكنون منطقـة الأوراس ومـا جاورها[2]، وأغلبهم من زناتة ولواتة وهوارة وبني برزال ومغراوة وبني كمـلان، ومزاتـة مـن الإباضيين النكار والوهبية، كما حاول أبو يزيد استنفار أتباع كافة المذاهب والفرق الناقمة على الشيعة، لذلك لم يعلن في البداية عن ميولاته المذهبية تقية منه، بل لقد أعلن أنه خـرج غضـبا لله.[3]كما صرح بعد اعتقاله.

اختار أبو يزيد جبل أوراس دارا للهجرة، ومنطلقا للثورة، لأنه منطقة حصينة توفر له ولإتباعه الحماية والمنعة. مستفيدا من موقع الأوراس القريب من إفريقية ، كما أن صعوبة مسالكه تقلل من فعالية الجيوش النظامية، وهو الأمر الذي حدث عندما حاول الجيش الفاطمي حصـار الثـائر، فاستطاع أبو يزيد فك الحصار وهزيمة الجيش العبيدي يقول أبو زكرياء في كتاب السـير[4] أن أنصاره «اجتمعوا إليه وقالوا له : قد رأيت ما حل بنا ونزل علينا ..ولم يبق لنا طاقة للقوم فهلاك رجل واحد أيسر من هلاك العامة» فأمر بخمسمائة ثور، يُشَدُّ على قرن كل ثور حزمة من حلفاء وإلى ذنبه حزمة أخرى، واختار من رجاله خمسمائة من الشجعان، ساقوا الثيران حتى إذا قـاربوا المعسكر الفاطمي، أشعل كل واحد النار في حزمة الحلفاء، فاندفعت الثيران وخاضت في المعسكر والرجال خلفها بسيوفهم يقتلون كل من أدركوه.[5]

لقد كان هذا النصر الذي أحرزه أبو يزيد كاف لجعل القبائل تتقاطر عليه من كل مكـان، وكلهم أمل في الغنائم والسبي. فأغراه ذلك على إعلان الثورة والسير لفتح المدن والحصون.

كان النكار يهدفون من الثورة على الفاطميين إلى جملة من الأمور:

---

(1) المصدر السابق، ص174.

(2) في رسالة القائم بأمر الله التي أنفذها إلى الكتاميين يدعوهم لجهاد الفسـقين الكفـرة المـارقين أهـل أوراس. نفـس المصـدر، ص200.وانظر:ولفرد ماداونغ: ثورة أبي يزيد صاحب الحمار في الأوراس، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشـر - باتنـة، ج2،ص267-268.

(3) ابن خلكان: المصدر السابق،ج1، ص235؛ المقريزي: كتاب المقفى الكبير تراجم، ص170.

(4) المصدر السابق، ص179.

(5) نفس المصدر والصفحة.

- السعي لقلب النظام الشيعي الفاطمي الفاسد الجائر على المسلمين بحسب نظرهم. وذلك باعتماد العنف المسلح لإسقاط الدولة.

- إقامة دولة المساواة النكارية المثالية يتساوى فيها جميع المسلمين، تقوم علـــى الشـــورى والمساواة، و التي كانت منشد الخوارج و مبتغاهم منذ ظهورهم على الساحة الإسلامية.

- استباحة الغنائم والسبي، بحكم أن أعدائهم الشيعة كفارا، لذلك تباح أمـــوالهم وتسـبى نساؤهم.[1]

و من عجائب القدر أن هذه الثورة جمعت بين متناقضات يصعب الجمع بينها في مثل هـــذه المشاهد إلا فيما ندر؛ ذلك أن مُنظِّر هذه الحركة الثورية وفيلسوفها ومستشار قائـــدها- ابـــن عمار- لم يكن سوى شيخا ضريرا، في حين كان الثائر هو الآخر يعاني من عاهة العرج، إضافة إلى ما كان عليه من قصر القامة، وقبح المنظر، ودمامة الخلقة، وبه علل كثيرة[2] فكانت هـــذه النقائص الخلقِية هي التي ربطت بين الشخصين منذ بدايات الثورة حتى مهلكهما معا. والعجيب في الأمر أن أبو يزيد كان يقول لأهل القيروان:« لم لا تجاهدون بني عبيد ؟ هأنا رجـــل أعـــرج وصاحبي ابن عمار أعمى ، وقد عذره الله سبحانه ورفع عنه حرج القتال والجهاد!.»[3]

بدأت الثورة ضد الأئمة الشرفاء سنة 332هـ/43-944م، و طوال أربع سنوات ساد فيها القتل وسفك الدماء وطال الخراب جهات كثيرة من المنطقة حتى غدت في التراث الفاطمي محنة امتحنت إيمان الأتباع، فقد عمت جميع البلاد، وعندما تبلغ الفتنة مداها، يلوح من خـــلال هذه المحنة بريق الأمل، الذي لا يراه إلا الإمام الفاطمي – المعصوم المطلع على غيب الحـــوادث- فقد أخبر بأن الثائر لن يتجاوز بباب مصلى الإمام.[4]يقول القاضي النعمان وهو يصور إطـــلاع الإمام بما سيحدث قال: « ثم ثار عليه الدجال الذي كان ينتظره وجاءت فيه الروايات، وأتى فيه الخبر..وانتهى إلى بابها- أي المهدية- ووقف ساعة وقد أغلق الباب دونه...فانصرف لما انتهى إليه . وهذه الساعة هي الساعة التي كان المهدي يذكرها ويذكر أنه إنما ابتنى المهدية من أجلها.»[5]

لقد مرت الثورة بأربعة مراحل:

---

(1) الداعي إدريس: المصدر السابق،ص172-173؛ المقريزي: المقفى الكبير، تراجم ،168-171.

(2) ابن حماد: المصدر السابق، ص30 طبعة الجزائر.

(3) نفس المصدر،ص31..

(4) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1، ص 219.

(5) كتاب افتتاح الدعوة، ص332-333.

- **المرحلة الأولى:** وفيها استولى أبو يزيد على بلاد الزاب حيث كانت الجماعات الخارجية منتشرة [1] كما سيطر على الأقاليم الساحلية الشمالية في باجة وتونس.

- **المرحلة الثانية** : تغلب فيها على عاصمة إفريقية القيروان، وبذلك دخلت الحركة الثورية مرحلة لتأسيس دولة الشورى حتى يحقق حلم النكارية الذي خاب أملهم في دولة بني رستم قبل ذلك، والتي لم تحقق الهدف الخارجي الذي ناضلوا قرونا في سبيل تحقيقه، وبذلوا لذلك الكثير من الأنفس و الأموال في سبيل تطبيقه.

- **المرحلة الثالثة:** وفيها تمت محاصرة المهدية، عاصمة الدولة الشيعية، وهي المرحلة الـــتي بلغت فيها الثورة ذروة اتساعها، حتى ظن كل الناس أن الدولة الفاطمية لم يبق لســـقوطها إلا أن يتجاوز صاحب الحمار عتبة باب مصلى الإمام حتى يسطر على العاصمة العصية.[2]

- **المرحلة الرابعة:** وهي التي انحسرت فيها الثورة عن مدينتي المهدية والقيروان، حتى تنتهي الثورة في بتبديد جيش الثائر وهزيمته بالأوراس ، ثم ملاحقته إلى بلاد الزاب حيث يلقى القـــبض على صاحب الحمار، الذي يموت في الأسر، فانتهت الثورة.[3]

لقد كانت هزيمة جيش الثائر عائدة بلا شك إلى طبيعة تكوين هذا الجيش الـــذي تشـــكل أساسا من سكان الجبال غير المدربين على فنون الحصار، كما كان هو قليل الخبرة بمكائد الحرب فلم يستطع استثمار الانتصارات التي حققها، كما أن انكشافه عن المالكية، واستشهاد الكثير من فقهائهم، قد عجل بفشل الثورة لأن الناس قد زالوا عنه لما رأوا المؤامرة التي حاكها مع أصـــحابه لتمكين العبيديين من قتل فقهاء القيروان. يقول ابن عذاري:« ولما رأى أبو يزيد أنه قد اســـتولى على الأمر أو كاد، وأن الشيعي قد كاد يبيد، أو باد، قال لجنوده: إذا التقيتم مع القوم، فانكشفوا عن أهل القيروان حتى يتمكن أعداؤكم من قتلهم، فيكونوا هم الذين قتلوهم، لا نحن! فنستريح منهم.»[4]

لقد بلغ من تهديد أبو يزيد للدولة الفاطمية أنه لما حاصر المهدية في زحفته الرابعـــة في أواخر شوال سنة 333هـــ /جوان 945م وجرى قتال عظيم بين الفريقين، خَرج الناس إليه

---

(1) ابن الأثير: المصدر السابق،ج6،ص305.

(2) المقريزي: اتعاظ الحنفاء، ج1،ص79.

(3) القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، ص334.

(4) المصدر السابق، ج1،ص218.

من شدة الجوع، والغلاء الحاصل في المدينة، الأمر الذي دفع القائم بأمر الله لفتح الأهراء[1] التي عملها أبوه المهدي، وفرق ما فيها على رجاله، فيما اضطرت العامة إلى أكل الدواب الميتة، وغادر المهدية أكثر سكانها وتجارها وسوقتها، فكان البربر يترصدون كل من يخرج منها يشقون بطونهم طلبا للذهب.[2]

لقد كان ذلك سببا في شيوع أعمال النهب والسلب في إفريقية على نطاق واسع. فذهب الأمن وزال النظام، وقطعت السابلة، فخاف الناس على أنفسهم وأموالهم. وكأن أبو يزيد كان يروم تحقيق ذلك حتى تضعف سلطة الدولة الفاطمية وتقل حاصلاتها من الجبايات والضرائب، فتتفرق الجموع من حول القائم الفاطمي، عندما لا يجد ما يقدمه من عطايا وأجور للجند والمتطوعة.[3]

تلك سياسة سلكها صاحب الحمار للتضييق على العبيديين، كادت أن تؤتي أكلها، لكن المفاسد التي ارتكبها أصحابه من استباحة الحرمات، وسفك الدماء، واغتصاب الأموال وإتلاف الأرزاق، واستحلال الفروج، والغدر بالمالكية أضعف جبهته، وفكك تحالفه.[4]

لقد خرج صاحب الحمار على العبيديين بدعوى سعيه لإلغاء جور الأئمة وظلمهم، لكنه كان بعد أن اتسعت حركته وفتح المدائن أثبت بأن جوره أعظم من جور أعدائه. إذ تتفق الروايات السنية والشيعية على أن أبا يزيد كان أكثر جورا في أخذ الأموال من الفاطميين، فتذكر رواية شيعية أن رجلا جاء أبو يزيد مستغيثا به يخبره عن أن كتامة كانت لم تأخذ منه طوال أربعين سنة كان يدفع إليها الضرائب غير ألف دينار، والسجلات التي كان يحملها كانت تثبت صدق قوله، وأن ما أخذه أصحاب أبو يزيد في ساعة واحدة يزيد عن أربعة آلاف دينار. كما سبوا له نساء حرائر.[5]

كل ذلك قوض حركته وأغرى الناس بمحاربته. فعندما رأى أهل المدائن والقرى تفرق عسكر أبي يزيد على هذه الحالة، قاموا يهاجمون عماله، كما ثار أهل سوسة ضد جماعة أبو يزيد وطردوهم منها. ورغم محاولة أيوب بن أبي يزيد ترجيح الكفة لصالح والده ، عندما هاجم تونس

---

(1) و الهري: بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان والجمع أهراء قال الأزهري ولا أدري أعربي هو أم دخيل، ابن منظور: المصدر السابق، ج: 15 ص: 361

(2) المقرزي: اتعاظ الحنفاء، ج1،ص،79.

(3) بوبة مجاني: المرجع السابق، ص129-130.

(4) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص218.

(5) بوبة مجاني، المرجع السابق ،ص144.

وأعمل فيها سلبا ونهبا وحرقا وتدميرا، إلا أن جيش القائم هزمه إلى القيروان في ربيع الأول سنة 334هـ/نوفمبر945م[1]. وبذلك رحل أبو يزيد وأصحابه عن المهدية وما جاورها، حتى فكر الثائر من مغادرة القيروان. ثم أخذ أبو يزيد يتراجع أمام الهجوم المعاكس الذي شنه المنصور العبيدي[2]ثم أخذ في ملاحقة الثائر جامعا حوله كل من يقدر على حمل السلاح، يفرق الأموال والأرزاق، مرغبا الناس في ملاحقة أبو يزيد حتى حاصره في جبل كيانة، فأمر المنصور زناتة بالإغارة على سدراتة، ففعلوا ذلك وقتلوا كل من كان يدعم الثائر ويحمل له الطعام ، ثم وقعت موقعة فاصلة بين المنصور والثائر في فحص باتنة، وفيها قتل من أصحاب أبو يزيد خلق كثير، حتى عرف ذلك اليوم (بيوم الرؤوس)[3] ففر أبو يزيد، والمنصور يلاحقه حتى ظفر به في المحرم 336هـ/947م، لكنه مات من الجراح التي أصابته فأمر المنصور بسلخه، وحشي جلده تبنا، وجعل في قفص مع قردين يلاعبانه.[4]، ولم يفلح أبناء أبي يزيد من إعادة إيقاد فتيل الثورة من جديد رغم محاولاتهم القيام بذلك، فقد عمد المنصور إلى اغتيال الفضل بن أبي يزيد، ثم أيوب، وفر بقية أبناء أبي يزيد إلى الأندلس .[5]

نتائج ثورة أبي يزيد:

وكان لثورات الخوارج عامة وثورة أبو يزيد خاصة نتائج وخيمة على الأوراس، والمغرب الأوسط، وإفريقية. ذلك أن هذه الثورات قد قوضت اقتصاديات المنطقة عندما تعطلت الزراعة بسب هجرة الزراع إلى المناطق الآمنة فرارا بأرواحهم من الملاحقات والتصفيات الجسدية، خاصة أثناء ثورة النكار على الفاطميين إذ صارت كل أنحاء المغرب مستباحة للطرفين فلم يكن منهم من يرقب في الناس إلاً ولا ذمة، إذ تعرض الناس لقمع شديد وتصفية أموالهم، خاصة المعارضين لكل طرف. كما كانت سببا في التمهيد لزول الفكر الخارجي الذي حُمِّل تبعات كل الاضطرابات

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق، ج6، ص306-308.

(2) المقريزي: تراجم ،ص150-152؛ ابن حماد: المصدر السابق، ص35-36؛ إبراهيم أيوب: التاريخ الفاطمي السياسي ،ط1،الشركة العالمية للكتاب ، بيروت،ص29-30.

(3) ابن حماد : المصدر السابق، طبعة الجزائر، ص14.

(4) المقريزي: كتاب المقفى الكبير، تراجم، ص171.

(5) سليمان بن الحاج داود: سليمان بن الحاج داود بن يوسف: ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله ،ط1، دار البعث، قسنطينة 1981،ص85-86.

التي وقعت في المغرب الأوسط وإفريقية مما جعل البقية الباقية منهم يبحثون عن ملجأ آمن يحتمون به بعيدا الصراعات التي أضعفت وجودهم وقوضت كيانهم فاختاروا الصحراء مستقرا وملجئا.[1]

كما أدرك العبيديون هم أيضا أن المغرب لم يعد دار قرار، مما جعلهم يعجّلون بالانتقـــال إلى مصر في عهد المعز لدين الله سنة 362هـــ/972م.تاركين وراءهم صنهاجة كقـــوة ناميـــة تخلفهم، وتحكم المغرب باسمهم، بعدما أفل نجم زناتة بعد الذي أصابها مـــن جـــزاء الحـــروب والثورات التي شاركت فيها منذ مراحل الفتح الأولى إلى ثورات الخوارج والصراع بينها وبـــين كتامة الفاطميين.

وقد كان ذلك كله فرصة لعودة المذهب المالكي وانتعاشه والذي سيخلف المذهب الشـــيعي الإسماعيلي.[2]

كما أن الأطراف الخارجية وجدت الفرصة المواتية للتدخل في شؤون المغرب، والسعي لتأزيم الوضع أكثر خاصة، الخليفة الأموي الناصر الذي قدم العون لصاحب الحمار وقد كانت بينـــهما مراسلات وسفارات.[3] فقد ذكر صاحب التكملة أن صاحب الحمار أنفذ أحمد بن أبي العرب رسولا إلى الناصر طلبا للعون والمدد.[4]

رغم النهاية المأساوية للثورة، فإنه يمكننا أن نسجل بعض الملاحظات التي يمكن أن تزيد الثورة تفسيرا ، ومواقف القوى المتصارعة توضيحا فنقول:

- لقد شكلت ثورة النكار بقيادة أبو يزيد ما يشبه الملحمة القريبة من الأسطورة ، فقد ذاع صيت الرجل، وهو الذي أوشك أن يقضي على دولة قائمة ويقيم مكانها دولة أخرى.[5]
- لقد كانت أسباب الثورة سياسية واقتصادية واجتماعية كما سبق أن رأينا، لكن هـــذه الأسباب كانت تغطي سببا أقوى وهو انفجار قوى العصبية الزناتية التي ينتمي إليها أبـــو

---

(1) مسعود الإباضية في المغرب الأوسط منذ سقوط الدولة الرســتمية إلى هجــرة بــني هــلال إلى بــلاد المغــرب (296-1058-909/442م) المطبعة العربية، غرداية 1996.: المرجع السابق،ص102.

(2) نفس المرجع والصفحة.

(3) ابن خلدون: العبر،ج7،ص18؛ الداعي إدريس: المصدر السابق،ص 249-250؛ سليمان بن الحاج داود بن يوســف: المرجع السابق،ص74-75؛ عبد العزيز فيلال: العلاقات بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، الشركة الوطنية للنشـــر والتوزيع، الجزائر1982،ص169-179.

(4) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة،تح: عبد السلام الهراس، ط1، دار الفكر ، بيروت1995،ج1،ص111.

(5) سليمان بن الحاج داود بن يوسف: المرجع السابق، ص89-95.

يزيد اليفرني، والمناوئة لعصبية كتامة التي استقوت بالدولة الشيعية وسعت للهيمنة وفرض نفوذها على المجال الذي كانت تستوطنه زناتة.(1)

- كان للعامل الديني والمذهبي الأثر الكبير في اشتداد الثورة ، وإذكاء الصراع ، فقد شهد المذهب الخارجي صحوة بين قبائل البربر في قسطيلية والزاب والأوراس، وهو نفس المذهب الذي اعتنقه البربر لمواجهة ولاة بني أمية. كما تدعمت الثورة بوقوف المالكية مع الثائر لمواجهة العبيديين الروافض.
- كان أبو يزيد يرى نفسه مؤهلا لقيادة حركة أصلاحية دينية تهدف إلى إقرار العدل والمساواة ، فقد ثار من أجل رفع الظلم الذي لحق الناس من جراء السياسات الفاطمية الجائرة ، وقد أثبت كفاءة عسكرية وسياسية جعلت حركته وإن منيت بالفشل، لكنها أقنعت الفاطميين أن المنهج الذي سلكوه مع البربر قادر على الذهاب بدولتهم والقضاء على مشروعهم .
- كما أظهرت الثورة إضافة إلى ذلك نزوع الأوراس نحو الاستقلال عن الدولة الفاطمية، وإنما كانت حركة أبي يزيد تعبيرا عن هذا الطموح الذي ظل يراود سكان الأوراس منذ العهد الأموي مروا بالمرحلة الأغلبية، فعلى الرغم من تمكن المنصور الفاطمي من قتل الثائر وتتبع أتباعه بالقتل والاغتيال، ثم جولان المعز في الأوراس سنة 342هـ/ لإخضاع أهل الخلاف به لم تكلل جهود الدولة الفاطمية في ضبط المنطقة وإحكام السيطرة عليها، بل وقد استمر الأوراس خلال حكم الزيريين مستقلا مما يعني تأصل هذه النزعة في الأوراس وسكانه.(2)

والخلاصة التي يمكننا الخروج بها من استعراض هذه الثورة وتتبع مراحلها ، والوقوف على أسبابها، والتعرف على أطرافها، أن الثورة وإن شاركت فيها قبائل عديدة ، كلها تنتمي إلى زناتة، فإن الدور الذي لعبه سكان الأوراس في جميع فصول الثورة كان كبيرا مما جعل القائم بأمر الله الفاطمي يرسل كتابا إلى بني لهيصة ، وهم من أنصار الدولة الفاطمية يحضهم فيه

---

(1) محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمال إفريقية ومصر وبلاد الشام،ط1، دار النفائس، بيروت2001،ص140.

(2) ولفرد مادلونغ: ثورة أبي يزيد الخارجي صاحب الحمار في الأوراس، كتاب الأصالة، ج1، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر، ص274.

على قتال أبي يزيد ومن معه من أهل أوراس والذين نعتهم بالفاسـقين الكفـرة المـارقين ، ويرغبهم في جهادهم لأنه أعظم من جهاد الكفار.[2]

المبحث الثالث

تأثير الخوارج على سكان الأوراس:

اعتنق البربر خلال العهدين الروماني والبيزنطي المذهب الدوناتي المعـارض للمـذهب الرسمـي الكاثوليكي أو الأرثوذوكسي، كتعبير عن ردة الفعل تجاه الظلم الذي لحقهم من جراء السياسات الظالمة التي اعتمدها الدولتين، فارتبطت بذلك الحركة الدوناتية بحركة المقاومة التي مثلها حركـة الدوارين، وهي النزعة التي ظهرت عند البربر بعد الفتح الإسلامي، خاصة في مرحلة عصر الولاة كما يقول العروي[1]،عندما اعتنقوا المذهب الخارجي المعارض للسلطة المركزية، تعـبيرا عـن رفضهم للنزعة العصبية التي تبنتها الدولة الأموية.

فالبربر لم يعتنقوا المذهب الخارجي، لأن المذهب السني الذي كان عليه جمهور المسـلمين لا يلبي احتياجاتهم الروحية والاجتماعية، التي ناضلوا من أجلها قرونا عديدة قبل الفتح، ولكن رأوا أن الخلافة الأموية تتحمل جزء كبيرا من المسؤولية تجاه مظالم عمالها في بلاد المغرب. فـالبربر في أول وهله رفضوا العصيان بما كان يفعله الولاة، لكنهم أعلنوا تمردهم عندما اقتنعوا بأن الخليفـة هشام بن عبد الملك لم ينصفهم، وقد رأوا ممارسات الولاة تناقض ما جاء به القرآن والسنة عندما كتبوا للخليفة وأرادوا استجلاء موقفه مما يحدث قالوا:«فأحببنا أن نعلم أعن رأي أمير المـؤمنين ذلك أم لا؟»[2]

ولما كان الأوراس منطقة حصنيه فقد التجأ إليها الدعاة الخوارج، فساهموا في الثورة على دولة الخلافة، والدارس لطبيعة سكان الأوراس وميلهم للتحرر، وإباء الخضوع، والتروع لرفض الهيمنة الأجنبية ومقاومتها، يجد فيهم ميلا فطريا لما كان يدعوا له الخوارج. مما أغـرى سـكانه علـى اعتناقه.

---

(2) الداعي إدريس: المصدر السابق،ص ص199-200.

(1) العروي: المرجع السابق،ج1، ص146.

(2) الطبري: المصدر السابق، ج2، ص 598.

فالمذهب الخارجي يعد أكثر المذاهب الإسلامية ميلا إلى الحرية والديمقراطية، فإذا كانت السنة تجعل الخلافة في قريش[3]، والشيعة بجميع فرقها ومذاهبها تجعلها في على بن أبي طالب وعقبه، فإن الخوارج يقررون مبدأ جواز تولي الإمامة، لكل مسلم عالم بالكتاب والسنة. وهي الفكرة التي لقيت القبول والرضا لدى العناصر غير العربية ولدي الموالي، وخاصة لدي بربر الأوراس الذي ألفوا حياة الحرية في جبالهم وبواديهم منذ العصر الوندالي، إذ شكلوا إمارة تحكمهم، وكانت أشبه ما تكون بإتحاد كونفديرالي قبلي، لذلك لم يكونوا مستعدين لمنح الولاء والخضوع لغير سادتهم وزعمائهم، وهو الوضع الذي ظل عليه الأوراس طوال الفترة التي يغطيها البحث فقد بقي مستقلا عن السلطة المركزية في إفريقية والمغرب الأوسط.

كما أن المذهب الخارجي - خاصة الإباضي- قد حقق على صعيد الحياة الاجتماعية شكلا من أشكال المساواة بين كافة عناصر المجتمع على اختلاف عناصرهم وأجناسهم، دون تفرقة وتميز، فيكون ذلك بدون شك سبب تراجع مكانة العرب، فقد تعرضوا للملاحقة والقتل عندما تمكنت قبيلة ورفجومة البربرية من دخول القيروان، فأصبح العنصر البربري أكثر بروزا من ذي قبل.[1]

لقد ساعد انتشار المذهب الخارجي كما يقول محمود إسماعيل[2] على توحيد البربر وجمع كلمتهم، حيث تعايشت القبائل البربرية في ظل الدولة الخارجية الرستمية، فاختفت بذلك الخصومات التي كانت تفرقها من قبل. كما ظهرت عناصر أخرى في المجتمع كانت مغمورة كالأفارقة، والسودانيين الذين اعتنقوا الإسلام، وكذلك اليهود، فساهمت هذه العناصر في التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلاد المغرب.

كما كان للخوارج أيضا تأثير على الحياة الثقافية في الأوراس، إذ كان دعاتهم يجوبون المنطقة ينشرون تعاليم المذهب، ويفقهون الناس، مثلما فعل عاصم السدراتي، الذي جال في الأوراس داعيا ومعلما، و لم يكن الداعية الوحيد الذي عمل على نشر تعاليم المذهب في المنطقة مما أثمر في بناء المساجد وإقامة المصليات، فانتشر تدريس المذهب وفقهه ما أدى إلى ظهور العديد من الأعلام خدموا المذهب تأليفا أو بما شغلوه من وظائف وخطط إدارية.[3]

---

(3) الشهرستاني: المصدر السابق،ج1،ص،134 ، 169؛ محمود اسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي، ص191.

(1) محمود إسماعيل: الخوارج، ،ص213-214.

(2) نفس المرجع،ص215.

(3) علي يحي معمر :المرجع السابق، ص127.

ولما كان المذهب الخارجي قد استقرار في الأوراس واعتنقه السكان عن إيمان واقتناع، فإنه لم يزل بزوال الدولة الرستمية التي كانت تمثل المذهب الخارجي الإباضي على الصعيد السياسي والفكري في بلاد المغرب. فقد بقي دعاة المذهب يعملون ضد الدولة الفاطمية، مما أدى إلى قيام ثورة عارمة كادت أن تعصف بالدولة العبيدية. لولا الأخطاء الفادحة التي وقعت فيها قيادات الثورة فأقتنع الفاطميون باستحالة تثبيت دعائم دولتهم في مثل هذا الوسط المعادي.[1] كما أجبرهم على تغيير سياستهم تجاه الخصوم فالتزموا التقية، وقللوا من غلوائهم تجاه المذهبين السني والخارجي، وهذا التحول نلمسه في ما أورده أبو زكرياء [2]من أن المعز لدين الله الفاطمي« كان يرسل إلى أبي نوح – الإباضي- يناظر بين يديه المخالفين.» ولما « دخل عليه الشيخ أبو خزر رحب به وأكرمه وتلطف به وعظّم شأنه وجعل له قدرا وجاها ومنزلة عظيمة.»

كما أن المذهب الخارجي وثوراته قد أثبتت عمق ولاء أهل أوراس للخوارج عموما ولثورة النكار على وجه الخصوص فقد ظلوا ثابتين مع أبي يزيد و لم يتخلوا عنه رغم النكسات التي مني بها في أفريقية والأوراس، الأمر الذي جعل القائم يحظ على قتال أهل الأوراس خاصة ويصفهم بالكفرة المارقين[3]، فلما تفرق جميع البربر عن أبي يزيد في ذي الحجة سنة 333هـ/جويلية 945 م بعدما انتهبوا ما بإفريقية كله وأفنوه، لم يبق معه غير أهل جبل أوراس وبني كملان... وبهم كان يثق وعليهم يعول.

ومن الآثار البارزة أيضا للخوارج في بلاد المغرب أن ثوراتهم وحركاتهم المعارضة قد استوعبت جميع القبائل البربرية من بتر وبرانس، و لم تكن هذه الحركات حكرا على قبيلة زناتة لوحدها كما يرى(Gautier)[4] الذي يقول بان زناتة كانت روح الثورة الخارجية فهي التي رفعت راية نوميديا المنكوسة، والتي رفعها من قبل كسيلة والكاهنة.

لكن الحقيقة خلاف ما ذهب (غوتي) لأن حركات الخوارج شملت معظم جهات المغرب وشاركت فيها معظم القبائل البربرية، وإذا كانت زناتة قد ضربت فيها بسهم كبير فإن غيرها من القبائل شاركت في تبني الفكر الخارجي والثورة باسمه، فهذه قبيلة مطغرة في المغرب الأقصى قد

---

(1) بل: المرجع السابق، ص162-163.

(2) المصدر السابق، ص228.

(3) الداعي إدريس: المصدر السابق، ص119.

(4) Op.cit,p275.

بدأت الثورة على ولاة بني أمية بقيادة ميسرة المطغري قبل أن تتصدى لها زناتة وتقودها عن طريق خالد بن حميد الزناتي. كما لعبت هوارة هي الأخرى نفس الدور الذي قامت بها مطغرة في ثورة الصفرية التي قادها كل من: عكاشة بن أيوب النفزاوي، وعبد الواحد الهواري سنة 124هـ/742م و لم تشترك فيها زناتة إلا كحليف لهوارة ونفزة.

أما في ثورات الإباضية فكان إسهام زناتة فيها ضئيلا لأن الذي تزعمها من البداية حتى النهاية هي قبيلة هوارة.[1]

ومن الآثار الواضحة التي تركها الخوارج في منطقة الأوراس ما تمخض عن حروبهم وصراعاتهم مع الخصوم من خراب البلاد، وكساد الاقتصاد، فتعطلت الزراعة وركدت التجارة، وقطعت السابلة بما قاموا به من عمليات حرق وإتلاف، ونهب ومصادرة. فقد استباح الخوارج أموال ونساء وذراري خصومهم الأمويين والعباسيين ثم الفاطميين، وقد رأينا كيف أن صاحب الحمار عمد إلى تخريب بغاية وأباحها لأتباعه عندما بدأ ثورته ضد الفاطميين مما أغرى « من كان همه الغارة والفتنة من الغوغاء والعوام » على متابعته كما يقول الداعي إدريس.[2]

كما استنزفت هذه الصراعات القوى المتصارعة إلى الحد الذي جعل بعض ولاة بني أمية لا يجدون المال الكافي لتسديد رواتب الجند، كما عانت الدولة الفاطمية هي الأخرى – وقد كانت على قدر كبير من الغنى نتيجة لسياستها المالية الصارمة التي مكنتها من التحكم في موارد المغرب- من نقص الموارد ما جعل القائم بأمر الله يخرج المخزون الاحتياطي من الغذاء الذي أعده المهدي وتفريقه، فلم يكن ذلك كافيا لسد حاجات الناس، فانتشرت المجاعات حتى أكل الناس الدواب والميتة.

كما ساهمت هذه الاضطرابات في هجرة الكثير من السكان نحو المدن وتركوا الأرياف، أو حدث العكس عندما تركوا المدن نحو الأرياف، فأدى ذلك إلى حدوث مجاعات في جهات كثيرة من بلاد المغرب حتى « .. لم يبق في إفريقية معمور ، ولا سقف مرفوع.» [3] ولقد اعتبر بعض الدارسين[4] أن ثورة النكار بقيادة أبي يزيد كانت أشبه ما تكون بصراع بين الريف الفقير والحواضر الغنية، وقد كان للفاطميين دور في تكريس هذا الصراع وتعميقه، يبين ذلك ما وصي

---

(1) محمود اسماعيل: الخوارج، ص80.
(2) المصدر السابق، ص174.
(3) المقرزي: اتعاظ الحنفا، ج1،ص158.
(4) الحبيب الجنحاني: دراسات مغربية، ص62.

به المعز لدين الله يوسف بن زيري«..أياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية..وافعل معه أهل الحاضرة خيرا.»[5]

ولعل أبرز تأثير للفكر الخارجي في منطقة الأوراس، هو أنه صاغ سكان الأوراس صياغة جديدة، عندما ساهم في تكريس الانغلاق الذي فرضته الطبيعة الجغرافية على المنطقة، وازداد هذا الغلق مع الطابع القبلي الذي كانت عليه زناتة. فشكل الأوراس عن طريق هذا التحالف الطبيعي والبشري والإيديولوجي أهم منطقة امتناع ورفض، ظلت خلال القرون الثلاثة الأولى بؤرة اضطراب وتوتر.

(5) المقريزي: إتعاظ الحنفا، ج1، ص177.

المبحث الرابع

الأوراس بين السلط والمعارضة:

إن الأهمية التي يكتسيها الأوراس كمنطقة عبور، أو كملجأ حصين ، ومأوى لكل ثائر الطريد ومعارض شريد، جعله مجالا للصراع بين السلط المتعاقبة على حكم المغرب الأوسط وإفريقية، والمتمردين الثائرين عليها. فلم يتح لسلطة بعينها أن بسطت نفوذها على منطقة الأوراس، وفرضت هيمنتها عليه لمدة طويلة، فكل المحاولات كانت تجابه بالثورة المسلحة، أو بالرفض المعلن أو المستتر.

فمنذ بدايات الفتح الإسلامي ظل جبل أوراس يشكل حاجزا منيعا أمام تقدم جيوش الفتح. حتى أن عقبة عندما تمكن من اختراق الأوراس في طريقه إلى المغرب الأقصى، لم يتجاوزه بعد عودته، فقد استدرج لمعركة تهودة جنوب الأوراس للإجهاز على جيشه القليل، ثم سير البربر جيوشهم للسيطرة على القيروان عاصمة إفريقية التي هادنت جيش الأوراس المنتصر. عندما راسلت كسيلة وطلبت منه الأمان، مما مكنه من تثبيت حكمه على إفريقية طيلة سنوات خمس.[1]مغتنما ما أصاب الخلافة الأموية من اضطراب بسبب الحروب التي أثارتها المعارضة في المشرق.

ورغم قتل زهير لكسيلة، لم يصفو الجو للعرب، إذ سرعان ما قامت الثورة من جديد من الأوراس بقيادة الكاهنة الجراوية التي خرجت كما قال ابن الأثير «غضبا لقتل كسيلة.»[2] والتي استطاعت إبقاء الجيش الإسلامي خارج منطقة الأوراس وما جاورها. عندما صدت جيوش حسان بالقرب من وادي مسكيانة وقتلت الكثير من صفوة جنوده، وتمكنت من أسر نحو ثمانين

(1) المالكي: المصدر السابق، ج1، ص44.

(2) المصدر السابق، ج4، ص33.

منهم. مما جعل الخليفة عبد المالك بن مروان يمد الجيش الفاتح بالمال والرجال لإنقــاذ الموقــف المتردي.(3)

تمكنت الكاهنة في هذه المرة أن تعيد سيطرة بربر الأوراس على كامل إفريقية وشرق المغرب الأوسط، وأن تمارس عليه حكما مطلقا ومستبدا خمس سنوات متوالية تمنع فيها العرب من إعادة الكرة لفتح المغرب، ولولا السياسة غير الموفقة التي سلكتها بعد ذلك، والمتمثلة في انتهاج سياسة الأرض المحروقة، والقائمة على تخريب المزارع وتدمير العمران، لما تكن المسلمون من التوغــل إلى دواخل المغرب، لاعتقادها بأن المسلمين كانوا يريدون المدن والنواحي العامرة يسعون للإســتلاء عليها طمعا في ثرواها وغنائمها، الأمر جعل البربر، وبقايا الروم -ملاك الأراضي- ينفضون مــن حولها، ويتصلون بالمسلمين مستعينين عليها، كاشفين عوراها. مما مكن حسان من اهتبال هــذا السلوك الأرعن من ملكة لا تريد خسارة عرشها مهما كلف الأمر ولو أدى ذلــك إلى تحويــل إفريقية خرابا يبابا.

وبقتل الكاهنة يعطي الأوراس الولاء للمسلمين الذين جندوا الكثير من أهله في الجيش الفاتح، وبالتالي إشراكهم في فتح المناطق الأخرى من المغرب.

لقد بقي ولاء منطقة الأوراس للدولة الإسلامية طوال فترة حسان وموسى بن نصير. لكن هذا الولاء والخضوع للفاتحين المسلمين لم يدم طويلا إذ عادت المنطقة إلى الثورة ضد العرب بســبب ممارسات ولاة بني أمية وتعسفهم. و لم تفلح السفَرية التي قادت وفدا بربريا إلى دمشق للقاء الخليفة هشام بن عبد الملك من نزع فتيل الثورة.

فكان الانقلاب على الدولة الأموية بدافع الانتصار لسكان المغرب من جور الولاة، وتحــت تأثير الأفكار الخارجية التي تسرب إلى المغرب من العراق، فوجدت البيئة المواتية لتأليب الســكان على بني أمية وإشاعة الاضطراب خاصة مع تراخي قبضة الدولة وتراجع هيبتها عند الشعوب غير العربية، عندما غالى الأمويون في التعصب للجنس العربي واعتماده كعصبية تحتمي بها الدولة. كما زاد من متاعبها النجاحات التي كانت الدعوة العباسية تحققها، فلم يطل الأمر حتى سقطت الدولة الأموية سنة132هـ/ 748م

في هذه الفترة تمكن بنو رستم من إقامة دولة إباضية بتاهرت، وهي الدولة التي كان إباضــيوا الأوراس يوالونها بحكم العصبية المذهبية.« كما كان يوجد مضيق يمتد بين جزء مــن الحضــنة

(3) الرقيق : المصدر السابق،ص25؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج1،ص36؛ النويري : المصدر السابق، ج24،ص19

والزاب وجبل أوراس يقطنه الإباضيون ويمثل حلقة الوصل بين إمامة تيهرت وبين المناطق المأهولة بالاباضيين في جنوب تونس وطرابلس.»[1] وبالتالي كان الأوراس تابعا للدولة الرستمية، يؤيد ذلك ما قامت به الدولة من تولية العالم الإباضي محكم الهواري القضاء في تاهرت.

روى ابن الصغير أن أفلح بن عبد الوهاب اجتمعت إليه الشراة « وسألوه أن يولي القضاء من يستحق ذلك، فقال لهم اجمعوا جمعكم وقدموا خيركم، ثم أعلموني به أجبره لكم وأعضده على ما يكون فيه الصلاح لكم، فقلبوا أمرهم فلم يرتضوا أحدا منهم، وأجمع رأيهم على محكم الهواري الساكن بجبل أوراس، فأتوا إلى أفلح بن عبد الوهاب فقالوا: قد تدافعنا هذا فيما بيننا فلم نرتض أحدا منا وقد ارتضينا جميعا بمحكم الهواري الساكن بجبل أوراس لخاصتنا وعامتنا وديننا ودنيانا، فقال أفلح: ويحكم دعوتم إلى رجل كما وصفتم في ورعه ودينه ولكن هو رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه...»[1] والنص يؤكد ولاء أهل أوراس للدولة الإباضية الرستمية في تاهرت، وكون محكم نشأ بجبل أوراس يدل على تجذر المذهب الخارجي فيه، ما يجعله محل اهتمام أمراء الدولة، وقبولهم بالقاضي محكم وتقديمه على غيره من علماء تيهرت ونفوسة، واهتمام الرستميين بالمنطقة خاصة وأنها موطن الداعي الإباضي عاصم السدراتي الذي كان يزور مواطن قبيلتة سدراتة الإباضية في الأوراس، وكان في أثاء هذه الجولات الدعوية يلقي الدروس ويقدم المواعظ ويؤسس المصليات.[2] وقد لزم عاصم جبل أوراس واستقر به عقب مقتل أبو الخطاب.[3]

ولما سقطت الدولة الرستمية على يد العبيديين هاجر كثير من الإباضيين تاهرت واستقروا في منطقة الزاب وجبل أوراس مما سيكون عنصرا مشجعا لقيام حركة النكار المناهضة للفاطميين وبالتالي تكريس استقلال منطقة الأوراس من جديد.

كما خضعت بعض جهات من الأوراس للحكم الأغلبي بواسطة «المستعمرة العربية بلزمة، فلما خرب زيادة الله الأخير هذه المستعمرة أصبح البربر من أول المناصرين لعبيد الله الشيعي، وأثبتهم على عهده.»[4] كما كانت باغاية هي الأخرى تحت حكم الأغالبة رغم الفتن التي

---

(1) أبو زكرياء : المصدر السابق،.مقدمة المحقق، ص20.

(1) المصدر السابق، ص57-58.

(2) علي يحي معمر: المرجع السابق، ج1، ص124-126.

(3) نفس المرجع، ص127.

(4) G. Yver:دائرة المعارف الأسلامية، مادة (أوراس)،ج3، ص561،

كانت تموج بها، و التي كان الخوارج يثيرونها باستمرار، وقد كانت هذه الاضطرابات التي أثارها الخوارج من العوامل التي أضعفت الدولة الأغلبية وخدمت خصومهم الفـــاطميين، خاصـــة وأن الأغالبة لم يوفقوا في تبني سياسة راشدة تمكنهم من اجتذاب البربر واستخدامهم للتصدي للشيعة قبل استفحال أمرهم؛ بل لقد فشلت الدولة حتى في استقطاب الفقهاء والعلماء السنة للتصـــدي للمذهب الشيعي النامي.

والمرجح أن العبيديين يكونون قد استثمروا الفتن المتلاحقة التي كانت الدولة الأغلبية تشهدها لتقوية نفوذهم، ونشر مذهبهم وما خسارة الأغالبة لمدينة بلزمة إلا تكريسا لهذه السياسة الموفقـــة التي سلكها العبيديون، ثم توالى سقوط حواضر الأوراس في يد الفاطميين الذين أمّنـــوا ســـكانها، فعملوا بذلك على تدعيم نفوذهم في الأوراس وبلاد الزاب. فقد استسلمت طبنة للداعي الشيعي ثم باغاية. وبذلك تمكنت الدولة العبيدية من بسط سيطرتها على أحصن منطقة في المغرب الأوسط فتمكنت بعدها من بسط نفوذا على ما سواها من المناطق الأخرى.

ولما كان المذهب الخارجي متأصلا في نفوس سكانه، فقد ظل الأوراس يتحين الفرصة للقيام بالثورة، وقد بدأت فعلا بوادرها في الظهور عندما قتل أهل الأوراس قائد عبيد الله المهدي فحلون الكتامي سنة 310هـــ/922م الذي أراد تهجيرهم إلى المهدية قسرا مما جعلهم يغـــيرون عليـــه وعلى جيشه بليل فقتلوه وجميع رجاله.[1]

الظاهر أن هذه الحادثة التي جاءت كردة فعل على ممارسات الجيش الفاطمي الـــتي ســـتعمق حجم الفجوة بين سكان جبل أوراس والفاطميين. هو ما شجع أبو يزيد مخلد بن كيـــداد علـــى الاستقرار بالأوراس عندما اعتزم إعلان الثور على العبيديين. يؤكد ذلك ما أورده الدرجيني عن المكانة التي كانت للثائر عند سكان المنطقة عندما قال بأن أبا يزيد «كان عند إخوانـــه بالجبـــل مكرما» وفيه حوصر لمدة قاربت سبع سنين حتى تمكن أبو يزيد من فك الحصار والزحف علـــى حواضر الأوراس التي كانت بيد الشيعة.

---

(1) ابن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص187.
(2) مسعود مزهودي:مرجع سابق، ص71.
(3) عوض خلفات: التنظيمات السياسية والإدارية عنـــد الاباضـــية في مرحلـــة الكتمـــان نظـــرة خاصـــة الى بـــلاد المغـــرب العـــربي
http://www.mara.gov.om/library/book/tanthimat.html

والمحرك الذي يكون دفع أهل الأوراس للانخراط في الثورة ما كان عليه المــذهبين الشــيعي والإباضي من التنافر والاختلاف، والذي لاشك فيه أنه يرقى إلى فترة الصراع الدامي بين الخوارج والإمام على بن أبي طالب الذي كسر شوكتهم في معركة النهروان[4] « فقد كانـــت معركـــة النهروان نقطة تحول هامة في تاريخ المحَكِّمَة تشبه إلى حد كبير حادثة كربلاء ومقتل الحسين بـــن علي بالنسبة للشيعة. فقد اعتبر المحكمة ما حل بهم في النهروان أمرا لا يجوز نسيانه، ولا السكوت عليه، وجعلوا من تلك المعركة ذكرى أليمة تحفزهم للثأر من معارضيهم وتُجَدِدُ فـــيهم العـــزم لتحقيق الهدف الذي ثاروا من أجله.. »

كما نظر خوارج الأوراس إلى العبيدين كنظرهم لولاة بني أمية، فكما أنهم حرضوا السكان على مقاومة ظلم الولاة وجورهم، فقد غالوا أيضاء في بيان العداء للشيعة. وما احتضانهم للثورة النكارية إلا دليل على تأصل العداء بين الفريقين.

وفي الختام نؤكد بأن منطقة الأوراس ومنذ بداية الفتح الأولى لم تعرف الاستقرار الذي عرفته المناطق الأخرى بسبب الاضطرابات المتجددة التي كانت المنطقة تشهدها، والتي كانت تمنـــع أي دولة أو إمارة من حكمه وضمه سياسيا أو إداريا. وقد يكون ذلك عائد إلى الطبيعة الجبلية الغالبة على المنطقة وحصانتها. مما يجعلها بمنأى عن الغارات التأديبية والحملات التي تجردها أي دولـــة لقهر المعارضة، أو قمع أية حركة للتمرد تروم الاستقلال عن الدولة المركزية.

كما أن التركيبة القبلية للأوراس ساهمت هي الأخرى في تكريس هذا الوضع، لذلك صعب تحقيق أي نوع من أشكال الوحدة السياسية أو الإدارية، لأن القبائل القاطنة بالأوراس لم يكـــن بمقدورها تجميع الولآءات المبعثرة بين هذه القبائل لتحقيق دولة أو إمارة كالتي كانت قبيل الفتح الإسلامي بقيادة الأمير يبداس، والتي سقطت تحت سنابك خيول البيزنطيين. وهم الذي أدركوا أن البربر لا يمكن أن يهزمهم إلا البربر، فتحالفوا مع شيوخ القبائل لمحاربة مملكة الأوراس والقضاء عليها.

كما كان استقرار المذهب الخارجي في منطقة الأوراس منذ بداية الحركات الثورية التي قامت في المنطقة، بقيادة الحركة الصفرية ثم الإباضية، والتي يمكن القول بأنها عزلت الأوراس، بل وفصلته

(4) النهروان: وأكثر ما يجري على الألسنة بكسر النون وهي ثلاثة نهروانات الأعلى والأوسط والأسفل وهي كورة واسعة بين بغـــداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة كان بها وقعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع الخوارج مشهورة. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 5 ،ص: 324-325.

عن المناطق الأخرى فبقي معقلا من معاقل الخوارج حتى في الفترة التي تمكن فيها العبيديون من دخول الأوراس واحتلال حواضره ومدنه كطبنة وبلزمة وباغاية ونقاوس.

وبالتالي من الصعب علينا أن نحدد الزمان الذي زال فيه المذهب الإباضي من ناحية الأوراس. « ولاشك أن ما لقيته قبيلة ورفجومة الصفرية، وبنو كملان النكارية، وغيرهم من خوارج أوراس، من تشريد وتقتيل بعد الهزائم التي تكبدوها، قد شتت شملهم وأخلى كثيرا من جهات بلاد أوراس»[1] ولكن ذلك لم يكن كافيا لاجتثاثه من المنطقة بصفة نهائية، إذ لم يتم ذلك حتى الهجرة الهلالية إلى المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر، وانتقال حكم المغرب إلى الزيريين الذين سرعان ما تحولوا إلى المذهب السني المالكي، وروّجوا له كبديل عن المذهب الشيعي الذي ارتبط بالدولة العبيدية قبل ذلك. ولإدراكهم لمدي تعصب المغاربة لمذهب إمام دار الهجرة.

كما أن عصر العواصف و الاضطراب زال بزوال الدولة العبيدية، مما سهل عمليات التواصل بين مناطق المغرب، وأدى في النهاية إلى الانتصار لمذهب مالك في الأوراس وإقبال أهله على تعلمه، كما كان احتكاكهم بالقبائل العربية عامل حاسم في تعريبهم واختلاطهم، فنتج عن ذلك التلاحم والتقارب في مجال الدين واللغة وهدأت الأفكار وسادت الطمأنينة منطقة الأوراس بعد طول ثورة وكثير اضطراب.[1]

(1) عبد الحميد حاجيات: المرجع السابق،ص54.

(1) نفس المرجع والصفحة.

المبحث الأول

أصل سكان الأوراس:

سكن المغرب منذ آلاف السنين من طرف أقوام كثر ذكروا في المصادر القديمة بأسماء عديدة (كالمور- البوار- النوميديون- الجيتوليون- الموزولامي)[1]والمعلومات المتوفرة عن هؤلاء الأقوام قليلة ومضطربة، ولأنها كتبت من طرف الغزاة الذين بسطوا نفوذهم على المنطقة، أو خطت بأقلام مؤرخي المدرسة الاستعمارية، وهي كما عهدناها مرة تنفي صلة المغرب بالمشرق ، ومرة تزعم أن سكان المغرب قدموا من أوروبا عن طريق اسبانيا، أو من سكان البحر المتوسط، كما أنها تتهم السكان الأصليين للمغرب تارة بالفوضى وعدم النظام، وطورا بالتروع إلى سفك الدماء والاقتتال الداخلي.

فهذا (R.Basset) يرى أن البربر:«..ظلوا عاجزين عن الإتحاد أمام العدو الأجنبي وطرده من بلادهم ..لقد شهد وسط المغرب وغربيه نشوء نظام سياسي.. في عهد الحروب البونية، أما شرقيه فقد ظلت تسوده الفوضى، و قد تمكن ماسنيسا بفضل مواهبه وبفضل معونة رومية من أن يوحد بلاد نوميديا تحت سلطانه.»[2]ثم أردف يقول بشأن ثوراتهم ضد المحتلين إنها «.. غارات يقوم بها بدو الصحراء أو القبائل التي تعيش في الداخل والتي لم تأخذ بأسباب الحضارة ..»[3]

أما المصادر العربية الإسلامية تذكر لنا سكان المغرب و الأوراس على أنهم بربر وأنهم أقوام وشعوب وقبائل وان اختلفت أصولهم وكثرت فروعهم، إلا أنهم ينتمون إلى أصول واحدة، فهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام.

---

(1) Hérodote : texte relatifs à l'histoire de 13-20. l'Afrique du nord, par Stéphane GSELL, Alger 1915,pp
محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب، ص157-167.

(2) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (البربر)، ج3،ص502-504.

(3) نفس المرجع، ج3،ص502.

لكن بعض الطوائف من البربر تدعي بأنها من اليمن فنسبت نفسها إلى حمير، ونسب البعض الآخر نفسه إلى بُرّ بن قيس عيلان، « وهذا _ قول_ باطل لاشك فيه، وما علم النسابون لقيس عيلان ابنا اسمه برّ أصلا، و لا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن»[4].

كما يقول ابن حزم[1] و الذي يرى بأن جدي البربر هما لأب واحد، وهم من نسل كنعان بن حام بن نوح. أما ابن خلدون فيؤكد على أن هناك اتفاق بين النسابين في أصل البربر وأنه يجمعهم جدان عظيمان هما برنس، ومادغيس بن الأبتر، لذلك تسمي شعب منهم بالبرانس نسبة لبرنس، وتسمي شعب آخر باسم البتر نسبة للأبتر هذا.[2]

أما الطبري وابن الأثير[3] فيذهبان إلى القول بأن البربر هم من ولد إبراهيم – عليه السلام- من ولده يقشان أو يقسان وأمه امرأة من الكنعانين تزوجها إبراهيم بعد وفاة سارة وتسمى المرأة الكنعانية هذه (قطورا ابنة يقطن)، وهي الرواية التي ينكرها ابن خلدون.[4] كما فند أيضا المزاعم الأخرى التي ساقها البعض من كون البربر كانوا من أتباع جالوت الذي كان قائداً للجيش الكنعاني، والذي هُزم أمام العبرانيين في بلاد الشام، فهاجرت الفلول الباقية من جيشه إلى المغرب واستقروا به. فالرواية تقول بأنهم كانوا بفلسطين، وكان ملكهم جالوت بن جلهم الذي قتله داود، فلما أُخرج البربر من أرض فلسطين، رحلوا إلى أرض المغرب فنزلوها وتفرقوا فيها.[5]

ونُقل ابن عبد الحليم وغيره عن سابق المطماطي وبعض نسابة البربر أن البرانس هم فقط من نسل كنعان، في حين ينسب البتر إلى بنو برّ بن قيس عيلان بن مضر.[6] والراجح أن البربر جميعهم من ولد مازيغ، وأن مازيغ من ولد كنعان بن حام.[7]

---

(4) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، تحك عبد السلام هارون ،ط3، دار المعارف بمصر ،1971،ص495.

(1) المصدر السابق، ص496.

(2) كتاب العبر، ج6،ص105.

(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1987،ج1،ص185؛ الكامل في التاريخ ،ج1،ص70؛ تتحدث التوراة عن زواج النبي إبراهيم -عليه السلام- بقطورة بعد وفاة سارة وقد ولدت له يقشان الذي ولد شبا و ددان. سفر التكوين25: 1-2.

(4) كتاب العبر،ج6،ص113، 105.

(5) ابن أعثم : المصدر السابق، ج1، ص266؛ ابن عبد الحليم:كتاب الأنساب،تح: محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، مدريد1996،ص44-45؛ ابن خرداذبة: المصدر السابق، ص83؛ المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تح:محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة ، بيروت بلاتا،ج2،ص119-120؛ ابن الفقيه: كتاب البلدان،تح: يوسف الهادي، ط1، عالم الكتب، بيروت 1996،ص153،ابن عبد الحليم: المصدر السابق،ص37.

(6) المصدر السابق، ص45، السلاوي: المصدر السابق، ج1، ص121

وقد أطلق العرب على سكان المغرب اسم البربر لعدم معرفتهم بلغتهم، خاصة بعد أن خالطوهم ورأوا اختلاف لسانهم عن اللسان العربي، وقد استعمل العرب هذه التسمية كصفة لمن يخلط في الكلام مع غضب. فقد جاء في لسان العرب مادة (بربر): البربري الكثير الكلام بلا منفعة، وقد بربر في كلامه إذا أكثر[1]. والبربرة الصوت والكلام من غضب، وفي النهاية مجد الدين إبن الأثير[2]: البربرة التخليط في الكلام مع غضب ونفور.

فيما نرى بعض الدارسين المعاصرين يميلون إلى القول بان كلمة البربر هو مصطلح غير دلالي، لأنه مشتق من كلمة إغريقو- بربرية ومن السامية والعربية، و يعني المصطلح عدم فهم اللغة. وهي تسمية أطلقت من قوي على ضعيف، أو بالأحرى من منتصر على منهزم، لأنه لا يمكن لشعب كيفما كان حاله أن يطلق هذه التسمية على نفسه.[3]

و البربر كلمة تطلق على جماعات مختلفة كل الاختلاف بخصائصها العرقية في المغرب، ومن هذا التنوع العرقي يمكن الاستنتاج بان شعب البربر كما يقول (بل) تشكل من عناصر غير متجانسة و أن هذا الشعب تكوّن من تمازج عناصر سكانية كثيرة هاجرت إلى المغرب عبر العصور مع تفاوت هذا التمازج.[4]

ولسنا هنا بسبيل إيراد هذه الآراء المختلفة عن أصول البربر، والاختلاف الحاصل بين المؤرخين في الأمر، ومدى صدق هذه الفرضيات واتساقها مع الحقائق التاريخية، ولكن المسلّم به بداهة هو أن العرب والبربر كانوا على وضع مماثل من حيث النظام الاجتماعي القبلي، والتقسيم العمراني السكني؛ إذ كانوا هم أيضا حضرا متمدنين، وبدواً ظاعنين، وهو التشابه الذي سهل فيما بعد عمليات التواصل الديني و الحضاري بين الشعبين.

وهنا يجب أن نذكِّر بأمر قد سبق لنا الحديث عنه في فصل سابق، وهو الأثر الذي تركه العرب في المجتمع البربري خاصة في ميدان التعريب، فقد سبق وأن بينا بأن اللغة العربية تمكنت

---

(7) السلاوي: ج1، ص121.

(1) ابن منظور: المصدر السابق، ج4، ص56.

(2) النهاية في غريب الحديث والأثر، تح:طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت 1979، ج1،ص112. وفيه أن علي بن أبي طالب لما طلب إليه أهل الطائف أن يكتب لهم الأمان على تحليل الربا والخمر فامتنع، قاموا ولهم تغزمر وبربرة.

(3) Jean Servier, LES BERBERES , 1Ed, Que sais je, P.U.F, paris1990, p7.

(4) المرجع السابق، ص44.

من الهيمنة على اللغات المحلية، وهذا ما جعل البربر يتجهون حتى إلى تعريب أنسابهم، ووصـــل الحال أحيانا إلى إدعاء بعض القبائل البربرية النسب العربي فقد ذكر ابن خلـــدون[5] أن زناتـــة وعلى ما كانت عليه من كثير عدد ووفرة مدد، وعز وملك، قد أعجبت « بالدخول في النسب العربي لصراحته و ما فيه من المزية بتعدد الأنبياء و لا سيما نسب مضر و أنهم من ولد إسماعيـــل بن إبراهبم بن نوح بن شيث بن آدم ، خمسة من الأنبياء ليس للبربر إذا نسبوا إلى حام مثلها مع خروجهم عن نسب إبراهيم الذي هو الأب الثالث للخليقة، إذ الأكثر من أجيال العـــالم لهـــذا العهد من نسله. و لم يخرج عنه لهذا العهد إلا الأقل مع ما في العربية أيضا من عز التـــوحش، و السلامة من مذمومات الخلق بانفرادهم في البيداء. فأعجب زناتة نسبهم و زينه لهم نسابتهم، و الحق بمعزل عنه، و كونهم من البربر بعموم النسب لا ينافي شعارهم من الغلب و العز، فقد كان الكثير من شعوب البربر مثل ذلك و أعظم منه.» .

لقد كانت الغلبة قبل الفتح الإسلامي للبتر (أي البدو)، فلما جاء العـــرب كـــانوا أســـرع استجابة للدين الجديد من إخوانهم البرانس الذين تبعوهم بعد ذلك.[1] وكان سبب تأخر البرانس في اعتناق الإسلام عائد لا شك إلى الصراع بين الفريقين، [2] ولكون البرانس كانوا دوما مرتبطين بالحضارات الوافدة منذ الوجود الفينيقي في تونس حتى الاحتلال البيزنطي الذي ســـبق الفـــتح العربي.

ورغم هذا التقسيم الواقعي لسكان المغرب فإننا لا نستطيع رسم خريطة لتوزيع هذه القبائل في العصور الإسلامية المبكرة، بسبب التداخل في هذا التوزيع ، فقد حدثت تحالفـــات قبليـــة في مرات عديدة بين قبائل البرانس سكان الحضر مع سكان الجبال والتخوم الصحراوية ، كما حصل عندما وقف سكان الأوراس بجانب كسيلة، حتى عُدّت ثورته على العرب بأنها إحدى انتفاضات الأوراس.[3] كما أن مصادر عديدة تشير إلى أن مقتل عقبة كان بإيعاز من طرف الكاهنة الـــتي

---

(5) ابن خلدون: كتاب العبر، ج6،ص168.

(1) حسين مؤنس: تاريخ العرب وحضارته، ج1، ص67.

(2) هناك تباين بين الدارسين في هذا الشأن، فبعضهم يرى أن البرانس أسبق تجاوبا مع المسلمين لأنهم كانوا أهل قـــرار عرفـــوا أهميـــة الاستقرار ووفرة الأمن، وما يوفرانه من تطور ورخاء، وبالتالي كان الفتح يخدمهم من هذه الجهة مما يجعلهم يحـــافظون علـــى ثـــرواتهم وامتيازاتهم.أما البتر فقد ألفوا حياة التنقل والترحال وأعمال السلب والنهب، ولذلك فإن الفتح العربي سيقلل من نشاطهم ويحـــد مـــن حركتهم مما جعلهم ينخرطون في المقاومة منذ بدايات الفتح حتى نهايته. محمود أحمد أبو صوة: تاريخ العرب الاجتماعي والاقتصادي في العصر الوسيط، قراءة مغايرة،ط1، شركةELGA ، فاليتا- مالطا2002،ص20-22.

(3) هشام جعيط: المرجع السابق، ص31.

حرضت كسيلة على المسلمين، كما ذكر اليعقوبي أن بعض فروع قبيلة أوربة البرنســـية كانـــت تسكن بالقرب من مدينة نقاوس. [4]

وبرر الأوراس في غالبيتهم العظمي ينتمون إلى زناتة التي تشكل شعبا كبيرا وقبائل عديـــدة، وقد كان الطابع المعيشي الغالب عليها هو الطابع البدوي، لأنها تقطن في غالبيتها مناطق الجبـــال والصحراء، وبذلك فهي أشبه بالعرب من حيث أنماط الحياة، وأساليب العيش.

(4) صفة المغرب، ،ص12.

المبحث الثاني

القبائل البربرية في الأوراس:

إن الطبيعة الجبلية للأوراس وموقعه القريب من التخوم الصحراوية، هو الذي اجتـذب إليـه القبائل البترية التي درجت على الظعن والترحال، ووفر لها الملجأ الآمن، والمرعى الوفير لقطعـان ماشيتها، التي تعد أهم مصادر ثروتها، وأكبر مورد لاقتصادها.

سكن المنطقة أيام الفتح العربي قبائل بربرية تنحدر في معظمها من قبيلة زناتة الكبيرة. وقـد احتفظت هذه القبائل بالاستقلال في الجبال بعيدا عن النفوذ الروماني و الوندالي، و من ثم اكتفى حكام بيزنطا على منعهم من التقدم خـارج الأوراس عـن طريـق خطـوط مـن الحـواجز والاستحكامات التي أقاموها لمراقبة جبال أوراس ومنع سكانها من الإغارة على المناطق الشمالية الخاضعة للإدارة البيزنطية.

يقول ابن خلدون عن معنى كلمة زناتة بأن كثيرا « من الناس يبحثون عـن مـبنى الكلمـة واشتقاقها على ما ليس معروفا للعرب ولا لأهل الجيل أنفسهم فيقال: هو اسم وضعته العـرب على هذا الجيل، ويقال: بل الجيل وضعوه لأنفسهم أو اصطلحوا عليه. ويقال: هو زانا بن جانـا فيزيدون في النسب شيئا لم تذكره النسّابة»[1]

وقول ابن خلدون هذا يؤكد ما أشرت إليه سابقا من أن الباحث يواجه صـعوبة في تحديـد معاني الأسماء التي تعترضه وهو يكتب في تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط ، وأن كـل محاولة لتفسير هذه الكلمات هو تجاوز لحد التفسير إلى حد التأويل مما يخرج الأسماء والكلمات عن مدلولاتها الحقيقية.

تنسب زناتة إلى شانا أو (جانا) بن يحي بن صولات بن ورماك أو (ورساك) بن ضري بـن رحيك بن مادغيس بن بربر[2] في حين ذهب ابن أبي زيد – وهو كبير زناتة- إلى القـول بـأن

(1) كتاب العبر، ج7،ص8.
(2) نفس المصدر ،ج7،ص3- 4.

البربر من نسل برنس فقط، وأما البتر فليسوا من البربر ومنهم زناتة وإن كـــانوا كلـــهم إخـــوة لرجوعهم إلى كنعان بن حام.[3]

و لم يُعرف عن زناتة أي دور في العهد الذي سبق الفتح الإسلامي، فلم تُذكر بـــين القبائـــل البربرية بهذا الاسم، وكل ما وصلنا هو ما أورده غوتي من أن أحد المغاربة في العصر الروماني كان يسمى (كلوديوس زناتوس Claudius Zenatus) الذي ربما يكون بربريا مـــن زناتة.[1]وهو قول لا يمكن تأكيده أو نفيه لعدم توفر المصادر التي تتحدث عن ذلك.

أما في العصر الإسلامي فقد اشتهرت قبيلة زناتة شهرة واسعة، لما لعبته من دور في بناء تاريخ المغرب الإسلامي كله. إذ تحملت عبأ مقاومة العرب الفاتحين في أول الأمر ثم ساهمت في تعمـــيم الدين الجديد ونشره في عموم المغرب بعد إسلامها. لكنها ثارت ضد السياسة الظالمة لبعض ولاة بني أمية تحت تأثير الفكر الخارجي الذي تسرب إلى المغرب من العراق.

و زناتة أكبر من قبيلة لأن صاحب العبر[2]يصفها في كثير من الأحيان بالجيل، وبـــأن فيهـــا شعوبا أكثر من أن تحصى عددا، وفي كل هذه الشعوب الكثيرة بطون متعددة ســـكنت المنطقـــة الممتدة من طرابلس حتى جبل أوراس إلى نواحي الزاب وتلمسان.

لقد تحملت زناتة نصيب كبير من التضحيات في سبيل المحافظة على اســـتقلالها في مواطنـــها خاصة في منطقة الأوراس، فكانت لذلك سببا لنقمة الحكام عليها، لأنها تقع مرابعها في نقـــاط إستراتيجية لا يمكن تمهيد المناطق الأخرى من المغرب دون إخضاع بلادها، وهذا ما يفسر طـــول فترة المقاومة التي خاضتها زناتة قبل أن يلين قيادها للعرب. [3]

كانت زناتة في المرحلة التي سبقت الفتح مستقرة في دواخل المغرب وفي الأوراس والصحراء، ولما كانت أرضها محاذية للبيزنطيين، اضطرت أن تؤدي لهم الطاعة، وان تدفع لهم خراجا معلوما، وتشاركهم في حروبهم ، فلم تمكن المسلمون من القضاء على (جرجير) فانفضـــت زناتـــة مـــن حولهم، فظنت زناتة أنها قادرة على مواجهة العرب فكان ما جرى بينها وبين العرب.

جراوة

---

(3) نفس المصدر والصفحة.

(1) Gautier Op.cit.p208

(2) ابن خلدون :ج7،ص6-10..

(3) إبراهيم حركات: المرجع السابق،ص263.

وهي من أقوى فروع قبيلة زناتة المستقرة في منطقة الأوراس، تنتسب إليها الكاهنـــة مقتولـــة العرب في مرحلة الفتح.كانت جراوة تعطي الطاعة للفرنجة في موطنها، فيما كانت هـــي تملـــك الضواحي المجاورة والنواحي القريبة.

و جراوة من ولد كراو بن الديرت بن جانا كانت الرئاسة فيهم للكاهنة دهيا بنت تابنة بـــن نيقان بن باورا بن مصكسري بن افرد بن وصلا بن جروا.[4] تجمعت زناتة حولها لمقاومة العرب بعد مقتل كسيلة ونهاية ثورته. يقول ابن خلدون بأن جراوة كانوا ملوك البربر وزعمائهم، وهـــو ما يفسر التفاف القبائل البترية حولهم لمقاتلة العرب.[1]

سكنت جراوة الجهة الشرقية من جبل أوراس، وكانت في كثرة عدد، ووفرة مدد، مما جعـــل القبائل الأوراسية الأخرى تنظم إليها وتُسلم لها زمام القيادة. اجتمع إليها بنو يفرن ومـــن كـــان بإفريقية من زناتة وسائر البتر. فزاد ذلك من قوتها، وشجع زعيمتها الكاهنة على محاربة المسلمين، ثم بسط نفوذها على إفريقية وشرق المغرب الأوسط.وطرد العرب إلى برقة، ومنعتهم من دخولها لمدة خمس سنوات كاملة.

وبعد هزيمة الكاهنة افترقت جراوة أوزاعا بين القبائل. فمنهم من أسلم مع ابني الكاهنة اللذين عقد لهما حسان على قومها، ومن انضوى إليهما من جبل أوراس.[2] وقد كان حسان اشـــترط عليهم أن يعطوه أثني عشر ألفا يكونون معه في جهاده العدو، فوافقوه وأسلموا. فبعثهم مع العرب يقاتلون الروم ومن كفر من البربر.[3] ثم رحل قوم من جراوة واستقروا بسواحل مليلة بـــالمغرب الأقصى، وكان لهم أثر بين جيرانهم هناك، لكنهم صاروا كما يقول ابن خلدون « مندرجين في (يطوفت) ومن إليهم من قبائل غمارة.»[4]

بنو عبد الواد

كما سكن الأوراس طائفة من بني عبد الواد الذين كان موطنهم منذ عهـــد الفـــتح، وهـــم معروفون بين ساكنيه.وبنو عبد الواد هم أبناء زحيك بن واسين بن ورشيكبن جانا [5]. شاركوا عقبة في فتح المغرب، وقد أبلوا البلاء الحسن. وقبيل استكماله الفتح والوصول إلى البحر المحـــيط

---

(4) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص10-11؛ السلاوي : المرجع السابق ،ج1،ص149-150.

(1) كتاب العبر،ج6،ص128.

(2) إبن خلدون : كتاب العبر ،ج7،ص11.

(3) المالكي: المصدر السابق ، ج1، ص56.

(4) كتاب العبر، ج7،ص11.

(5) نفس المصدر، ج7،ص84.

أذن لهم بالرجوع إلى موطنهم في الأوراس، تقديرا لجهودهم التي بذلوها دفاعا عن الدين ونشـــرا للدعوة.[6]ولما تراجعت زناتة إلى المغرب الأقصى أمام كتامة و صنهاجة رحل هؤلاء واســـتقروا قريبا من ملوية.[7]

بنو يفرن

كان بنو يقرن في مرحلة الفتح إحدى أكبر قبائل زناتة وأقواها شوكة. وهم عند نسابة زناتة بنو يفرن بن يصليتن بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديريت بن جانا، وهم إخوة مغراوة وبنو يرنيان وبنو واسين، وكلهم ينحدرون من يصلتين .

ويفرن كما يقول ابن خلدون في لغة البربر يعني القار.[1] منهم طائفة بإفريقية وجبل أوراس والمغرب الأوسط بطونا وشعوبا.[2] انظموا إلى الكاهنة في قتال الجيش الإسلامي الـــذي قـــاده حسان بن النعمان[3]. ثم رحلوا إلى المغرب الأقصى أمام زحف القبائـــل الطرابلســـية (لواتـــة وهوارة) المنتشرتين بالأوراس وجنوب القطر التونسي.

لما فشا المذهب الخارجي في المشرق الإسلامي، وضيّق الخلفاء عليهم، لجأ دعاتهم إلى القاصية، يدعون لمذهبهم ويؤلبون الناس على السلطة المركزية ففشا المذهب الخارجي في البربر وكان بنـــو يفرن قد ضربوا فيه بسهم وقاتلوا من أجله. وقد ظهر دورهم بوضوح من خلال ثورة صـــاحب الحمار وقومه بنو واركوا ومرنجيصة.[4]

مغراوة

كما كانت مغراوة هي الأخرى من أكثر بطون زناتة عددا في هذه الفتـــرة كـــبني يفـــرن و جراوة، استقرت بعض فروعها(ريغة) بين مسيلة الزاب و نقاوس في الأوراس.[5] مشـــهورون بالنجدة و الامتناع من العرب، كان بينهم وبين بنو يفرن منافسة وصراع.

---

(6) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص71.

(7) نفس المصدر والصفحة .

(1) ابن خلدون: كتاب العبر ،ج7ص13؛ ابن حزم :المصدر السابق،ص498.

(2) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7 ،ص14.

(3) السلاوي : المصدر السابق، ج1،ص149.

(4) إبن خلدون : كتاب العبر، ج7،ص14.

(5) محمد بن عميرة : المرجع السابق، ص19.

و نسب مغراوة إلى «مغراو بن يصلتين بن مسرا بن زاكيا بن ورسيك بن الديرت بن جانـــا، إخوة بني يفرن وبني يرنان.»[6]. وقد قيل بأن أميرهم في فترة الفتح (صولات بن وزمار) ذهـــب إلى المدينة المنورة مقر الخلافة. فقابل الخليفة عثمان بن عفان وأسلم هو وقومه، فصاروا من موالي عثمان وبني أمية.[7] وقد استمر سلطانهم قويا إلى أن غلبتهم صنهاجة فرحلوا إلى المغرب الأقصى.

لواتة

تنسب لواتة إلى لوا الأصغر بن لوا الأكبر بن زحيك بطن عظيم من بطون البربر البتر. زعم البعض أنها من القبط[1]، وهو قول غير صحيح. فيها قبائل كثيرة مثل سدراتة، ومزاتة.

كانت لواتة بنواحي برقة لكنهم هاجروا غربا، حيث استقر كثير منـــهم بجبـــل أوراس[2]، وشايعوا صاحب الحمار، متحالفين مع بني كملان. وكانوا في عهد ابـــن خلـــدون لا يزالـــون بالأوراس في قوة ومنعة، وافري العدة كثيري العدد يقهرون هوارة وكتامة.[3]

نفزاوة:

وهم أبناء يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، فيها بطون كثيرة، وكانت ورفجومة من « أوسم بطون نفزاوة وأشدهم قوة .»[4]انخرطوا في الحرب الأهلية بين أبناء عقبة بن نافع . فقد سانتدت نفزاوة عبد الوارث، الذي لجأ إلي زعيم ورفجومة عاصم بن جميل الذي ادعى الكهانة والنبـــوة فآواه ونصره، ثم زحفت نفزاوة إلى القيروان سنة 140هـــ/757م واستولت عليها، وقتلوا من بها من قريش، و لم تتوقف نفزاوة عن إفسادها حتى تدخلت إباضية طرابلس بقيادة أبي الخطـــاب عبد الأعلى بن السمح المعافري.[5]

ولما بنيت مدينة طبنة نزلتها ورفجومة شيعة لعمر بن حفص فحازوا الثروة والغناء، ثم تفرقت ورفجومة بعد ذلك بين القبائل وصارت أوزاعا هي الأخرى.[6]

هوارة

---

(6) ابن خلدون : كتاب العبر،ج7،ص29.

(7) نفس المصدر ،ج7،ص30.ابن عبد الحليم: المصدر السابق،ص77-78.

(1) ابن حزم: الجمهرة، ص468.

(2) ابن سعيد كتاب الجغرافيا ، تح: اسماعيل العربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1970،ص145.

(3) ابن خلدون :كتاب العبر،ج6،ص137.

(4) نفس المصدر،ج6،ص135.

(5) أبو زكرياء: المصدر السابق،ص63.

(6) ابن خلدون: كتاب العبر،ج6، ص135-136.

وهم من بطون البرانس، ومن ولد هوار بن أوريغ بن برنس. وقد زعم البعض خطأ بأنهم من عرب اليمن. كان موطنهم الأول نواحي طرابلس فرحل بعضهم إلى مناطق بعيدة، شـــاركوا في حروب الخوارج. وكانت لهم مقامات مذكورة أثناء ثورة صاحب الحمار، فقد اجتمع منهم إليه بجبل أوراس ومرماجنة « فانحاشوا إلى ولايته وفعلوا الأفاعيل.»[7]

كان منهم الظاعن والمستقر، وكان لهم في الردة آثار في المراحل الأولى من الفتح، كما ساندوا المذهب الخارجي بعد ذلك. كان منهم فصيل في نواحي الأوراس.[1] تحت سيادة لواتـــة الـــتي أرغمتهم على الخضوع لها. كما ركنوا إلى العرب من بني سليم فألفوا عوائدهم فقلـــدوهم في « اللغة والزيّ وسكنى الخيام وركوب الخيل، وكسب الإبل وممارسة الحروب، وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف. قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب.»[2]

كان منهم القاضي محكم الهواري الذي ذاع صيته في تيهرت قاضيا عادلا استقدم من جبـــل أوراس في ولاية أفلح بن عبد الوهاب.[3]كما اشتهر ولده هود صاحب التفسير المعروف.[4]

أوربة

من ولد أوْرَب بن برنس. كان الأمير فيهم في أول الفتح سكرديد، الذي ولي عليهم ثـــلاث وسبعين سنة، أدرك الفتح. فلما مات خلفه على رئاسة البرانس كلهم زعيمها كسيلة بن لمزم.

كانت أوربة تسكن الناحية الغربية من المغرب الأوسط، وقد تمكن أبو المهاجر دينـــار مـــن استمالتها في أول الفتح، ثم ثارت ضد عقبة بن نافع بعدما اعتقل زعيمها، وتمكنت بالتحالف مع الروم من قتله في جنوب الأوراس.[5]وقد ذكر اليعقوبي[6] أن طائفة من أوربة خلال القرن الثالث الهجري قد سكنت قريبا من مدينة نقاوس جنوب غرب الأوراس.

---

(7) ابن خلدون: كتاب العبر،ج6،ص166.

(1) اليعقوبي: صفة الغرب ، ص11.

(2) ابن خلدون: كتاب العبر،ج6،ص168.

(3) إبن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين ، تح: محمد ناصر و ابراهيم بحاز ، ط1، دار الغرب الإسلامي ، بـــيروت 1986،ص57.؛ وأنظر أيضا هود بن محكم الهواري :تفسير كتاب الله العزيز ، تح:بالحاج بن سعيد شريفي ،ط1، دار الغـــرب الإســـلامي ، بـــيروت 1990،ج1،ص5؛ إبراهيم بحاز: القضاء في المغرب الإسلامي من تمام الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية (96-296هـــ/715-909م)دكتوراه دولة في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط ، جامعة قسنطينة ، 1996-1997،ص214.

(4) هود بن محكم الهواري : المصدر السابق ،ج1،ص5؛ محمد بن موسى بابا عمي وآخرون: معجم أعلام الإباضية من القـــرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر، قسم المغرب الإسلامي ،ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000، ج2، ص443.

(5) عبد الحميد حاجيات: التطور المذهبي بناحية الأوراس في العصر الوسيط، مجلة الأصالة ع:60-61،أوت 1978،ص42-43

(6) المصدر السابق،ص12.

المبحث الثالث

العناصر السكانية غير البربرية:

كما سكن الأوراس أخلاط أخرى من الناس، وهم الذين وفدوا عليه قبل الفتح الإسلامي. كما قدمت عناصر أخرى مع جيوش الفاتحين. وأثناء استقرار الإسلام في منطقة المغرب الإسلامي وفدت هجرات عدة من شبه الجزيرة العربية والشام وخراسان، مما أدى إلى تنوع ملحوظ في سكان المنطقة، الأمر الذي سيشجع الدول التي ستقوم بالمغرب على حسن استغلال هذا التنوع في التركيبة السكانية، لإيجاد عصبيات تدعم بها سلطانها السياسي.

كما أن العناصر الجديدة الوافدة، ستدفع القبائل البربرية التي ضعف سلطنها للانضواء تحت مظلة القبائل العربية القوية، تخدمها وتخضع لسلطانها السياسي والعسكري. كما اختلق بعض البربر أنسابا عربية للحصول على الشرف الذي تتمتع به غيرها من القبائل العربية، وما حصل لها من شرف النبوة في بني إسماعيل عليه السلام.[1]

القبائل العربية في الأوراس:

بدأت العناصر العربية في التوافد على المغرب مع بدايات الفتح الإسلامي للمنطقة، خاصة وأن الفتوح كانت تستلزم من الجند المرابطة في الإقليم المراد فتحه. كما حصل في العراق وبلاد الشام وفارس .. وهو الأمر الذي لم يكن في المراحل الأولى من فتح بلاد المغرب عندما كان الفاتحون يعودون إلى مصر أو برقة عقب كل حملة. حتى مجيء عقبة بن نافع الفهري الذي كانت خطته ترمي إلى تحقيق أهداف بعيدة المدى من تلك التي وضعها من سبقه من الفاتحين، فبدأ في تثبيت العرب في إفريقية من أجل نشر الإسلام وتعميم الرسالة. وذلك ببناء حاضرة القيروان التي أضحت عنصرا جديدا يجذب العرب إلى المغرب بنية الجهاد أو الاستقرار، خاصة والكل تسامع خبر الغنائم الوفيرة التي غنمها عبد الله بن سعد.

---

(1) إبن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص5.

وقد كان الفاتحون الذين سبقوه يغزون إفريقية من مصر أو من برقة في أحسن الأحوال، فأدى تأسيس القيروان إلى تدفق العائلات العربية عليها طوال القرون الأولى. انتقلوا إليها مع الجيوش الفاتحة، كما استقروا في الرباطات التي أنشئت في العديد من المناطق. ومن ثم بدأ الكيان العربي في الظهور بجانب سكان البلاد من البربر والعناصر التي سبق لها الاستقرار في المغرب. كالروم والأفارق والسودانين.

والمتتبع للاستقرار العربي في منطقة الأوراس يجدهم يستقرون في الحواضر الكبرى، حيث تتواجد الحاميات العسكرية، وحيث تتوفر الإدارة العربية، وتسود الحضارة والمدنية على عكس البربر، خاصة منهم البتر، الذين يستقرون في الجبال والشعاب والوديان بحكم احترافهم للرعي وتربية الماشية.

ففي مدينة بلزمة كان أغلب أهلها كما يقول اليعقوبي من بني تميم ومواليهم المناهضين للسلطة الأغلبية في هذا الوقت.[1]

وبنو تميم كما يقول ابن حزم[2] هم قاعدة من أكبر قواعد العرب سكنوا مدبنة بلزمة، وهي بلد« محدث للعرب، وفيه بقاياهم إلى الآن.»كما يقول إبن حوقل.[3]وقد كانت بلزمة إحدى المناطق الهامة المتنازع عليها بين الأغالبة والفاطميين، خلال الصراع بين الدولتين على منطقة الأوراس.

وقد تمكن عبيد الله الداعي من افتتاح بلزمة بالسيف بعد أن حاصرها مرارا، وقتل رجالها وهدم أسوارها، وكانت أهم قواعد الزاب الموالية للأغالبة والتي ظلت على ولائها لهم، لكن الذي ساهم في سقوطها في يد كتامة وبالتالي سقوط الدولة الأغلبية ما قام به إبراهيم بن أحمد سنة 280هـ/893م من الإيقاع برجال بلزمة، وهم الذين ينحدرون من أبناء العرب، والجند الداخلين إلى إفريقية منذ الفتح، وقد كان أغلبهم من القيسية، قريبين من الأغالبة التميمين.[4]

---

(1) المصدر السابق ، طبعة ليدن،ص12.

(2) الجمهرة، ص199؛ الكلبي: المصدر السابق، ص281؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد،تح: محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 2004،ج3، ص279-280.

(3) المصدر السابق ،ص92.

(4) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص123. .

ورغم ولاء القبائل العربية في بلزمة للدولة الأغلبية وولائها لها فقد كانت هذه القبائل تتمتع بنوع من الاستقلال، مما جعلها تتجرأ على إيواء بعض المناهضين، فأوغر ذلك علـــيهم صـــدور رجال الدولة الأغلبية، فسعوا لإخضاعهم بالقوة.[5]

فقد سار إليهم إبراهيم بن أحمد حسب التاريخ الـــذي يقدمـــه النـــويري[6] وهـــو ســـنة 278هــ/891م في قوة عسكرية وناوشهم بالحرب، ولما أدرك استحالة تغلبه عليهم، أظهـــر لهم العفو، ورجع إلى رقادة، وأخذ يلاطف رجال بلزمة خديعة، بعدما أعيته الحـــرب، حـــتى إذا قبلوا إرسال وفد من رجالهم نيف عدده عن 700(سبعمائة) مـــن أبطـــالهم،[1] وفي روايـــة النويري[2] نحوا من 1000(ألف) رجل، أسكنهم معه في رقادة في دار كبيرة كالفندق، [3] أو يكون بناها خصيصا لهم،[4]تشتمل على عدد من الدور ترجع كلها إلى باب واحد.[5]

لما أطمئن إبراهيم إلى استقرارهم بعد الذي أجراه عليهم من الأرزاق والخلع، جمـــع ثقـــات رجاله وأمرهم بالقضاء على البلزميين المخدوعين، والذين دافعوا عن أنفسهم حتى قتلوا جميعا.[6]

ظن الأغالبة أن قتل رجال بلزمة كفيل بإنهاء كل تمرد في الأوراس وبلاد الزاب، ومنع غيرهم من التفكير في الاستقلال والتطاول على الدولة الأغلبية. ولكن الأمر انقلب على بني الأغلب حتى حقَّ للكتاب القول بأن أن الفتك برجال بلزمة كان سببا في انقطاع دولة الأغالبة « لأن أهـــل بلزمة كانوا من العرب القيسية، ومن العرب البلديين الخلص المستقرين في إفريقية منذ الفتح يذلون قبائل كتامة، ويتخذونهم خولا وعبيدا، ويفرضون عليهم العشور والصدقات، فكان الذي صـــنع إبراهيم بن أحمد مما أنقذ كتامة من تلك الذّلة، وأوجد لهم السبيل إلى القيام مع الشيعي.»[7]

يلخص القاضي النعمان كيف تمكن الشيعي من افتتاح بلزمـــة بعـــد غـــارات متكـــررة. قال:« وأخرج إليها عساكره مرّة بعد أخرى. كل ذلك يقاتلونه، ويدفعونه. وكان يخرج إلـــيهم

---

(5) يقول اليعقوبي بأن سكان مدينة بلزمة قد خالفوا على ابن الأغلب في هذا الوقت، صفة المغرب، ص12.
(6) النويري ،ج24،ص71.
(1) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص123.
(2) المصدر السابق، ج24،ص 71.
(3) نفس المصدر والصفحة.
(4) إبن عذاري: المصدر السابق، ج1، ص123.
(5) نفس المصدر والصفحة.
(6) نفس المصدر والصفحة؛ النويري: المصدر السابق، ج24،ص71.
(7) النويري:المصدر السابق،ج24،ص71، ابن عذاري:المصدر السابق، ج1، ص123.

العساكر في أوان زراعتهم، فيأتي عليها.»[8]فعل بأهل بلزمة ذلك ثلاث سنين متوالية « حتى انقطع الطعام من أيديهم.»[9]فدبَّ الضعف في أهل بلزمة ويئسوا أشد اليأس لما حل بهم من ضيق وأزمة.« وقاتل أهل بلزمة قتالا شديدا، ودافعوا مدافعة عظيمة. ونصب عليهم أبو عبد الله الدبابات والأبرجة، فأحرقوها. و لم يصل إليهم إلا من شدة الجهد وغلبة الجوع عليهم.»[10] فقد لبث يحاصرهم حتى نفذ ما كان لديهم من وطعام حتى أكلوا دوابهم « ثم أكلوا جلدوها، ثم لما نفذ ما كان بأيديهم ..إلى أن غلب عليهم الجوع فاستأسروا. وأفتتحها أبو عبد الله عنوة. فقتل من بها من المقاتلة، و لم يعرض لامرأة حرة. وغنم العسكر ما وجدوا بها من الأثاث والأمتعة وغير ذلك. وأمر أبو عبد الله بهدم سورها، فهدم. وانصرف إلى إيكجان.»[1]

وغير بعيد عن مدينة بلزمة يتجمع الجند في مدينة نقاوس.[2] وفي عاصمة الزاب طبنة التي يترلها الولاة بها عناصر سكانية من قريش وسائر العرب والمولدين، [3]فإذا قامت الحرب استمد العرب بعرب مدينة تهودة و سطيف، فيما كان المولدون يستمدون بأهل بسكرة وما جاورها من البلاد.[4]

ولما كان الأوراس منطقة مضطربة في مراحل الفتح الأولى، وطوال مرحلة عصر الولاة، والثورات التي أشعلها الخوارج على ولاة بني أمية فقد اتجه العرب إلى تفضيل المناطق الأخرى عن الأوراس ، فاستقروا بأعداد كبيرة في طبنة وبسكرة وسطيف ومسيلة، ولا ننسى ما قامت به ورفجومة من ملاحقة العرب خاصة قريش عند دخول القيروان سنة 140هـ/757م.و لم يشهد التواجد العربي في منطقة الأوراس انتعاشا واستقرارا حتى مجيء الهلالين، الذين ساهموا في تغيير البنية السكانية للمنطقة، مما دفع ببعض قبائل الأوراس البربرية إلى تقليد العرب في أساليب المعاش.

يرى حسين مؤنس أن العرب لم يبقوا منفصلين عن السكان المحليين على عادة المستعمرين السابقين للمغرب بل حدث تزاوج واختلاط بينهم وبين البربر، لأن العرب قدموا بلاد المغرب

---

(8) المصدر السابق، ص178.

(9) نفس المصدر والصفحة.

(10) نفس المصدر، ص179.

(1) القاضي النعمان: افتتاح الدعوة ،ص179.

(2) اليعقوبي: البلدان، ص190.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق،ص92..

(4) البكري : المصدر السابق،ص51.

رجالا فاتحين لا نساء لهم ، فكانت العادة أن يتزوج العربي من قبيلة بربرية، فيكون الولـــد تبعـــا لوالده من حيث اللغة والدين.[5] وقد مر معنا في فصل سابق كيف أن حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري قد لحق بالأوراس بعدما هزمه عاصم بن جميل، إلى حيث أخوال أبيه الذين ساندوه استجابة لعلاقة المصاهرة بينهم وبين حفيد عفبة:حبيب بن أبي عبيدة وقاموا معه إلى القيروان.[6]

العناصر غير العربية:

كما سكن الأوراس عناصر سكانية أخرى غير عربية استقرت بجانب البربر والعرب وهم:

الجند الخراساني:

وهم الجند الذي تم استقدامه إلى بلاد المغرب في عهد الدولة العباسية، لأنها قامت على كواهل العجم مما جعل الدولة تستخدمهم في الجيش. فقد أرسل المنصور جيشا إلى المغرب قوامه أربيعين ألفا منهم ثلاثون ألفا من الخراسانيين.[1]

وهؤلاء لا يمثلون تركيبة قبلية معينة، بقدر تمثيلهم بنية جغرافية محددة، فهم ليسوا من الفرس الخلص ولا من العرب الخلص؛ بل هم خليط من الأجناس أرسلوا إلى المغرب عندما كانت إفريقية والمغرب الأوسط تابعين للخلافة العباسية، فكانوا يترلون المراكز الحربية والمسالح في الأوراس وبلاد الزاب لحمايتها، فيقيمون بها إلى أن يستدعيهم الأمير للمشاركة في حرب أو قمع ثورة.[2] وقد طائفة منهم بمدينة بغاية على مشارف جبل أوراس والتي تعد إحدى القلاع التي تستخدم لمراقبة سكانه.[3] كما وجدت أعداد منهم بمديني نقاوس وطبنة.[4]

العجم:

(5) تاريخ المغرب، ج1،ص108

(6) الرقيق: مصدر سابق،ص103، لم يرد في الرقيق القبيلة الأوراسية التي تزوج منها حفيد عقبة حبيب بن أبي عبيدة كما لم ترد أيضا عند ابن خلدون..

(1) مصطفى ابوضيف: المرجع السابق،ص42.

(2) حسن حسني عبد الوهاب: ورقات عـــن الحضـــارة العربيـــة بإفريقيـــة التونســـية، القســـم الأول،ط2، مكتبـــة دار المنـــار، تونس1972،ص132-133.

(3) اليعقوبي: صفة المغرب،ص11.

(4) نفس المصدر، والصفحة.

وهم الذين يعرفون بعجم[5] أهل البلد استقر بعضهم في باغاية وفي تجيس وهي من أعمالهــا كما استقر منهم جماعة في مدينة طبنة.[6] والعجم هؤلاء من بقايا الروم والفرنج، ظلوا يشكلون جماعات منفصلة عن البربر رغم حالات التزاوج الحاصل بينهما، لكن ذلك كـــان محـــدودا لان المصادر لا تذكر لنا إلا حالة واحدة من هذا التزاوج، والمتمثلة في زواج ملكـــة الأوراس بأحـــد الروم.

الأفارق أو الأفارقة:

وهم أخلاط من الناس، ومزيج من المستعمرين السابقين، ونفر من البربر ممن دخلوا في طاعة المستعمر، وهم كما يوصفون حماة النظام من أهل قرطاجة أو رعاياها، ومن الممكن أن يكـــون هؤلاء من المولدين انصبغوا بالحضارة الرومانية كما يكونوا اعتنقوا المسيحية تأســيا بســـادتهم. وامتلكوا الأراضي والإقطاعيات الزراعية، مما جعلهم يستعينون بالفاتحين المسلمين ضد الكاهنـــة عندما عمدت إلى إتباع سياسة الأرض المحروقة لمنع المسلمين من التقدم نحو دواخـــل المغـــرب الأوسط ومنطقة الأوراس.[1] قال البكري[2]« وقال قوم إنما سموا الأفارقة، وبلدهم إفريقية لأنهم من ولد فارق بن مصريم» أي أنهم سكان أصليون يضافون إلى البربر وهم العنصر الغالب علـــى الأوراس والمغرب كله. ورغم أن كثيرا منهم دخل في الإسلام، فقد بقي كثير منهم يتكلمون لغة خاصة بهم، ربما تكون مزيجا من اللغة البربرية واللاتينية أو لهجة محلية.[3] وبشـــأن دخـــولهم في الإسلام يعتقد سعد زغلول عبد الحميد أن الذي دعاهم إلى ذلك هو سعيهم للمحافظـــة علـــى ثرواتهم وممتلكاتهم من التدمير أو المصادرة.[4] ولسنا ندري الأساس الذي بنى عليه الأستاذ هذا

---

(5) العجم بالضم ضد العرب وفي لسانه عجمة و العجماء البهيمة وإنما سميت عجماء لأنها لا تتكلم وكل من لا يقدر على الكلام أصلا فهو أعجم، و مستعجم و الأعجم أيضا الذي لا يفصح ولا يبين كلامه، وإن كان من العرب، والمرأة عجماء، و الأعجم أيضا الـــذي في لسانه عجمة وإن أفصح بالعجمية ورجلان أعجمان وقوم أعجمون و أعاجم قال الله تعالى: ولو نزلنا على بعض الأعجمين ثم ينسب إليه فيقال لسان أعجمي وكتاب أعجمي ولا يقال رجل أعجمي فينسب إلى نفسه إلا أن يكون أعجم و أعجمي بمعنى مثـــل دوار ودواري وجمل قعسر وقعسري هذا إذا ورد وردا لا يمكن رده وصلاة النهار عجماء لأنه لا يجهر فيها بالقراءة الرازي: مختار الصحاح مـــادة (عجم)، ص: 175؛ ابن منظور: المصدر السابق، ج12، ص385.

(6) نفس المصدر والصفحة؛ البكري : المصدر السابق،ص50، إسماعيل العربي: المدن المغربية المؤسســـة الوطنيـــة للكتـــاب ،الجزائـــر 1984،ص178.

(1) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق،ج1،ص106.

(2) المسالك والممالك، ج2،ص193

(3) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق،ج1، ص113.

(4) نفس المرجع، والصفحة.

الرأي، وهذا الحكم إذ لم نجد في المصادر ما يؤيد ذلك ويؤكده. وكأنه بذلك يشكك في قـــدرة الإسلام على اجتذاب سكان المغرب وهو الدين الذي جاء لنشر العدل بين الناس، وليس ديـــن الجبر والإكراه.

اليهود والنصارى(أهل الذمّة):

عندما فتح العرب بلاد المغرب وجدوا إضافة إلى سكان البلاد الأصلين من البربر والأفارقـــة، وبقايا الروم والعجم، جماعات قليلة من اليهود. وقد تكلمنا في الفصل الأول عن وصول اليهـــود إلى المنطقة وأن ذلك كان في العهد الفنيقي، ثم زاد عددهم في العهد الروماني، وأن ما تعرضوا له من اضطهاد خاصة تحت ظل حكم جستنيان هو الذي دفعهم إلى الهجرة إلى المناطق الداخلية من بلاد المغرب وبالتحديد إلى منطقة الأوراس. وقد ظن بعض الكتاب خطأ أن جراوة قبيلة الكاهنة هي من القبائل العبرانية التي قدمت من الشرق الأدنى مهاجرة لتستقر في جبل أوراس.[1]وهـــو القول الذي يراد تكريسه كحقيقة مؤكدة، رغم أن بعض مؤرخي اليهود لم يقولوا ذلك.[2]

يقول شارل جنيبير واصفا حال اليهود في مجتمعات الأغيار بأنهم « وأينما حلوا فهم عامة لا ينسون أصلهم ولا دينهم ؛ لذلك نراهم يتكاتفون وينظمون صفوفهم ويسعون لـــدى ســـلطات البلاد التي يقيمون فيها للحصول على حقوقها الشرعية. وكانوا ينتظمون من الناحية الزمنيـــة في جماعات لها رؤساء وحكاما وقضاؤها وتقاليد أما من الناحية الروحية فكانت تجمعهم المعابد التي يقصدونها للاستماع الى تلاوة النصوص المقدسة، وللصلاة والتعبد الجماعي.»[3]

كما سكن الأوراس بعض النصارى خاصة في المدن والحواضر. فقد سأل الداعي أحد الجباة عندما دخل مدينة طبنة عن مصدر بعض الدنانير الذهبية التي كانت بحوزته، فأخبر الداعي بأنهـــا جزية أخذت من اليهود والنصارى في المدينة عن حول مضى، فأخذ الداعي ذلك المال وقال بأنه مال طيب.[4]

---

(1) G.Marçais,La Berbérie et l'Orient musulman ou Moyen Age,paris,1946,p34.

(2) Maurice EISENBETH, op.cit, p147-148.

(3) شارل جنيبير: المسيحية نشأتها وتطورها، تر: عبد الحليم محمود، ط1، المكتبة العصرية، بيروت، بلاتا، ص57.

(4) ابن عذارى: المصدر السابق،ج1،ص141؛ موسى لقبال:قاعدة طبنة والشرعية الخلافية في بلاد المغرب الإسلامي،حوليات جامعة الجزائر، ع5،السنة1990،ص99.

لكن المؤكد أن أعداد هؤلاء اليهود والنصارى كان قليلا، بل هم بقايا انـــدمجت في المجتمـــع البربري ووجدت الحماية من المجتمع الإسلامي الذي اعترف لهم بالمواطنة، واقرهم على ما هـــم عليه من دين ونظام اجتماعي، شريطة أن يدفعوا الجزية المفروضة عليهم وأن لا يتـــآمروا علـــى الإسلام والمسلمين كما كانت عادتهم.

والمؤسف أن المصادر التي تتحدث عن الأوراس لا تتحدث عنـــهم ، ولا عـــن أعـــدادهم وأنشطتهم وعلاقتهم بالسكان المحليين، وما هو موجود مجرد أقوال قد لا تصمد أمام النقـــد، لأن القول بوجود مستعمرات أو مستوطنات يهودية في المناطق الجبلية النائيـــة كـــالأوراس ، والـــتي تكونت في القرنين الأول والثاني الميلاديين غير صحيح البتة، لعدم وجود نصوص تؤكـــد ذلـــك ولأن هذه المناطق الجبلية الممتنعة عن الرومنة كانت ليبية أو بونيقية ظلت مستعصـــمة بمناطقهـــا تتحمل تكاليف مقاومتها للاستعمار الروماني ومن بعده البيزنطي. كما أن المستندين إلى ما أورده ابن خلدون[5] في كتاب العبر من احتمال أن تكون الكاهنة وقومها على دين اليهودية، فهو رأي ليس بالقوي كفاية ليصمد أمام النقد، لأن صاحب العبر لم يجزم بذلك، ولأن اغلب النصـــوص تشير إلى أنها كانت وثنية، إذ كانت تحمل تمثال لها في المعارك وهو ما يناقض عقيدة التوحيـــد في الديانة اليهودية.

أما النصارى فهم من بقايا الرومان و البيزنطيين وعجم البلد الذين تنصروا في الفترات السابقة للإسلام وقد ظهر دورهم في فترات الفتح، فقد كانوا يخضعون لحكم البربر ويـــدينون بـــالولاء لملوكهم. وكانت لهم مزارع ومسارح سعوا للمحافظة عليها من التدمير عندما اتصلوا بحسان بن النعمان مستنجدين به من الكاهنة وهؤلاء هم الذين تسميهم المصادر بالأفارقة أو عجم البلد.

يرى (السير توماس أرنولد) أن الولايات الرومانية في إفريقية التي كان المسيحيون يسكنونها لم تمتد قط بعيدا إلى الجنوب إلى الصحراء، بل كان هؤلاء النصارى في المناطق الساحلية، ومع أنـــه كان قبل غزو الوندال عددا من الأسقفيات المسيحية والتي قد تبلغ نحو خمسمائة أسقفية ، فـــإن هذا العدد لا يمكن اعتباره مقياسا لعدد المؤمنين النصارى، لأن الكنيسة الإفريقية قد درجت على تعين أسقف في معظم المدن الصغيرة.[1]

---

(5) ج6،ص126.

(1) المرجع السابق،ص144-145.

لقد أخذ عدد المسيحيين في التراجع مع تقدم العرب الفاتحين وهذا ليس بسـبب الإكـراه والاضطهاد، ولكن لأن الأهالي سرعان ما عادوا إلى الوثنية بعدما شعروا بأنهم أحرار إثـر زوال السيطرة البيزنطية.

المبحث الرابع

علاقة قبائل الأوراس بالقبائل البربرية خارجه:

أ- علاقة بربر الأوراس بقبيلة كتامة:

تعد قبيلة كتامة واحدة من أهم قبائل البرانس في المغرب الأوسط لما كانت عليه من القـوة والبأس، وطول الباع في الملك وهي« عند نسابة البربر من ولد كتام بن برنس.»[1]وان اختلـف حول أصلها البربري بين النسابين العرب والبربر[2]، والمشهور أنها من القبائل البربرية، لما كانت عليه من عجمة اللسان وإيلاف سكنى المنطقة.

وجمهور قبيلة كتامة كانوا كما يقول ابن خلدون:[3]« بأرياف قسنطينة إلى تخو م بجاية غربا إلى جبل أوراس من ناحية القبلة.» وكانت لهم في تلك المناطق بلاد مـذكورة مثـل إيكجـان

(1) كتاب العبر ، مصدر سابق،ج6،ص174؛ ابن حزم : المصدر السابق،ص495.

(2) ذكر الطبري أن كتامة من أصل عربي كان أول ملوكهم إفريقش بن قيس بن صيفي أحد ملوك التبابعة، الذي غزا إفريقية وافتتحها، والتي سميت بسمه، تركهم حامية بإفريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطي وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان في البربر. المصدر السابق،ج1،ص127.

(3) كتاب العبر، ج6، ص175.

وسطيف وباغاية ونقاوس وبلزمة وميلة وقسنطينة والقل وجيجل حتى أن بلادها تمتد من جبـــل أوراس إلى سيف البحر. [4]

وعليه فإن بلاد كتامة كما رأينا تدخل في إطار إقليم نوميديا الواســـع، وبحســـب التقسـيم الروماني الأخير تكون ضمن إطار موريتانيا السطايفية، فهي قريبة من قسنطينة، كما أن إشـــراف أرضها على الساحل يجعلها أكثر القبائل البربرية احتكاكا بالعناصر الأجنبية الوافدة على المغرب منذ العصور القديمة. كما تأثرت بالمذاهب والتيارات الخارجية، وأثرت هي الأخرى في المنـــاطق المجاورة لها. [5]

ظلت كتامة على ما يبدو آمنة في مواطنها الحصينة والغنية محتفظة بقواها البشـــرية والماديـــة منتظرة الفرصة المواتية، حتى جاءهم الدعوة الشيعية الإسماعيلية فخرجوا من السكون إلى الحركة والنشاط ليسندوا دولة العبيديين، عندما قامت على أكتافهم فانتصروا لها وانتصروا بها.

جاء عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب يحمل مشروع الدولة الشيعية بإيديولوجية إسماعيلية فوقع اختياره على بلاد كتامة، فقد رأى المنطقة أرضا بكرا، مناسبة لوضع المشروع الذي يحمله موضع التنفيذ، تحقيقا لأمر الإمام المعصوم في سلمية، من أجل إنشاء دولة منافسة لبني العبـــاس، الـــذين خطفوا الملك من العلويين.

لقد وجد الشيعي الرضا والقبول من أهالي المنطقة عندما أسفر عن دعوته لآل البيت. وهـــذا القبول مرده إلى الحب الذي كان البربر يكنونه للإمام علي بن أبي طالب باعتباره ابن عم رسول الله ρ وزوج ابنته فاطمة الزهراء، والذي كان للرسول ρ كما كان هارون لموسى. [1]

---

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) Gautier, Op.Cit, p341.

(1) الحديث أنت مني بمترلة هارون من موسى من حديث الآحاد رواه الشيخان (البخاري ومسلم) وهو غريب عند الترمذي، وانظـــر القرطبي الذي بين أسباب ورود هذا الحديث وأخطاء الإمامية في تفسيره. الجامع لأحكام القرآن،تح: أحمد عبد العليم البردوني، ط2، دار الشعب، القاهرة1372،ج1،ص266-268. كما أن الحافظ النّسائي قد أورد هذا الحديث من طرق عديـــدة لكنـــه أشـــار إلى الاختلاف فيه، أنظر كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ط1، دار ابن حزم ،بـــيروت 2004،ص35-45، وســـبب ورود الحديث أن النبي ε خلّف علي بن أبي طالب في غزوة تبوك فقال:« يا رسول الله ، تخلّفني بين النساء والصبيان ؟ فقال: أما ترضى أن تكون مني بمترلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي؟» وهنا يشير الرسولε إلى بقاء هارون في بني إسرائل عندما ذهب موسى إلى ميقات ربه. وحديث الآحاد هو خبر الواحد أو الجماعة الذين لا يبلغون حد التواتر ، وهو لا يفيد العلم وإنما يفيد الظن، هو حجة عنـــد مالك وغيره بشروط منها – أن يكون الراوي حين السماع مميزا سواء كان بالغا أو غير بالغ، وأن يكون عند التحديث عاقلا بالغا مسلما عدلا. ابن جزي الغرنـــاطي:تقريـــب الوصـــول إلى علـــم الأصـــول،تح:محمـــد علـــي فركـــوس،ط1،دار التـــراث الإســـلامي، الجزائر1990،ص121.

لذلك كان ولاء كتامة ومن بعدها المغاربة للعبيديين ليس تشيعا، ولا رفضا بالمعنى الشيعي الإسماعيلي، لأن المغاربة في عمومهم كانوا يكنون الاحترام لباقي الصحابة والفاتحين. لذلك فإن شيوخ كتامة عندما ساندوا الفاطميين في دعوتهم لم يكن ذلك نابعا من إيمان وتصديق وعقيدة راسخة بالمذهب الإسماعيلي، وإنما كان هذا التأييد لأغراض سياسية فرضتها المنافسة بين القبائل على تسنُّمِ القيادة والظفر بالملك، وربما كان هذا هو السرّ في زوال المذهب الشيعي الإسماعيلي من المغرب كله، بمجرد إعلان الزيريين العودة إلى مذهب مالك، وقطع الدعوة للعبيديين.[2]

كما يتضح ذلك في موقف بعض شيوخ كتامة من المهدي العبيدي قبيل اغتيال عبيد الله الشيعي فقد ذكر المقريزي[3] أن عبيد الله الشيعي قد أوغر صدور بعض رجال كتامة وحرضهم على العصيان ومواجهة عبيد الله المهدي حتى قام إليه بعضهم وقال له:« إن كنت المهدي فأظهر لنا آية ، فقد شككنا فيك.»

إن موالاة كتامة للفاطميين جرها للصراع مع قبائل منطقة الأوراس، وخاصة زناتة و قد تميزت هذه العلاقة في قيام صراع المسلح خاضته قبائل الأوراس مع الفاطميين وكتامة، و لم تشهد هذه العلاقة أي توافق وانسجام حتى تحت مظلة الدولة الجديدة، رغم سيادة النفوذ الكتامي الفاطمي على مجموع قبائل الأوراس، إلا أن سكان الأوراس ظلوا يتحينون الفرصة للثورة على الفاطميين متى وجدوا الفرصة مواتية، ومتى شعروا في أنفسهم القدرة على القيام والنهوض. ففي سنة 310هـ/922م وقبل أن تقوم ثورة النكار، ثار أهل أوراس على« أبو معلوف الكتامي من قواد عبيد الله كان قد أخرجه إلى هذا الجبل، فكلف أهله فوق وسعهم، وأمرهم برفع عيالاتهم إلى المهدية، فأظهروا الطاعة له، وشرعوا فيما أمرهم به، فلما كان في بعض الليالي، وثبوا عليه وعلى جند كتامة الذين كانوا معه؛ فقتلوهم أجمعين.»[1]

وهذا النص الذي أورده ابن عذاري يبن السياسة التي كان الفاطميون يسلكونها تجاه القبائل الرافضة لحكمهم، ولاشك أن رفض القبائل الأوراسية للسيطرة العبيدية مرده إلى تمكن المذهب الخارجي في المنطقة، كما أن الصراع مع كتامة فرض عليهم مقاومة نفوذها، وإن كان تحت مظلة الدعوة لآل البيت، وبالتالي ازداد حجم المقاومة مع توالي الأيام.

---

(2) ابن عذاري: المصدر السابق:ج1، 273-274؛ فيلالي، لعروق : المرجع السابق،ص47.

(3) اتعاظ الحنفا، ج1، ص150.

(1) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص187.

إن كانت السياسة التي سلكها الفاطميون « سياسة فرق تسد بين سكان المغرب على العموم، وشجعوا هذه السياسة ونموها بمرور الزمن، رغم أنها مدعاة إلى الفرقة، وعدم الانسجام حتى بين الموالين لهم. ولا شك أن القصد من ذلك هو العمل على خلق توازن بين هذه العناصر من السكان كي يضمنوا بقاء سيطرتهم عليها ويستغلوا كلا منها في جهة معينة ويضربوها ببعضها إذا ما دعت الضرورة إلى ذلك كما ضربوا بعض الزعماء ببعضهم لما حاولوا التمرد والعصيان.»(2)

لقد ازدادت حدة الصراع بين قبائل الأوراس وكتامة بعد قضاء الفاطميين على الدولة الرستمية وسقوط عاصمتها، ونهبها والإمعان في قتل أهلها، فثارت إباضية الأوراس انتقاما لإخوانهم في المذهب بزعامة أبي يزيد، ثم ابنه الفضل، لكن الثورة لم تحقق غايتها، في إسقاط الدولة الفاطمية إذ تمكن المنصور من إخضاع الأوراس بعد عناد طويل. فاستقرت بعض فروع كتامة به كما يقول ابن خلدون بجانب لواتة وهوارة وكانت يدهم عالية على من سواهم « تناهز خيالتهم ألفا وتجاوز رجالاتهم العدّة، وتستكفي بهم الدولة في جباية من تحت أيديهم بجبل أوراس من القبائل الغارمة فيحسنون الغناء والكفاية.»(3)

لكن كتامة تمردت على الزيرين خلفاء العبيديين مما جعل المنصور بن أبي الفتوح يغزوها بعساكره في أرضها وذلك سنة 378هـ« فمر على ميلة، وأمر بخرابها، وهدم سورها، وأمر أهلها بالمسير إلى بغاية...»(1)

لقد كانت علاقات قبائل الأوراس وقبيلة كتامة علاقة منافسة وصراع، تحولت بعد قيام الدولة الفاطمية إلى صدام مسلح أضعف الطرفان، فقد حاول الفاطميون استمالة زناتة، لكنهم لم يستطيعوا تطويعها لأن اغلب قبائلها كانت على مذهب الخوارج المناهضين للمذهب الشيعي. كما عرّضت زناتة الأوراس أمن الفاطميين إلى الخطر طيلة وجودهم بالمغرب إلى حين رحيلهم عنه، فلم تتواني في التحالف مع خصوم العبيديين خاصة الدولة الأموية في الأندلس.(2)

ب - علاقة بربر الأوراس بقبيلة صنهاجة:

---

(2) محمد الصالح مرمول: السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص155.

(3) كتاب العبر، مصدر سابق، ج6، ص137.

(1) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص243.

(2) مرمول: المرجع السابق،ص179.

تعد صنهاجة هي الأخرى - على غرار قبيلة كتامة - من أوفر قبائل البربر، وأكثرها عـددا، فلا يكاد قطر من أقطار المغرب تخلو منه بطونها، في سهل أو جبل، حتى قيل بأن صنهاجة تشكل ثلث أمم البربر.[3]

يقول ابن خلدون بأن:« صنهاج(أزناجة) هو صناك بالصاد المشمّة بالزاي والكاف القريبة من الجيم، الا أن العرب عرّبته وزادت فيه الهاء بين النون والألف فصار صنهاج.»[4]

وهم عند النسابة أنها من بطون البرانس، ومن ولد برنس بن بر.[5] ونسابة البربر يقولون هو صنهاج بن عاميل بن زعزاع بن كميتا بن سدر بن مولان بن يصلين بن يبرين بن مكسيلة بـن دهيوس بن حلحال بن شرو بن مصاريم بن حام.[6]

كانت مواطنهم بين أرض زواوة وأرض زناتة، لكن أمة منهم انحدرت إلى الجنوب في أعصر سابقة فكثروا في الصحراء حتى عمروا بين غدامش في الشرق ونول غربا حتى السودان جنوبـا، وبذلك تشعبت صنهاجة إلى شعبين عظيمين تباينت حياتهما بتباين المواطن، واختلفت عاداتهمـا بين عادات أهل القرار وعادات أهل الظعن والترحال.

وصنهاجة مغرب الوسط أهل مدر وقرار، أسلموا لأول الفتح، وأعتنق بعضـهم مـذهب الخوارج وضربوا فيه بسهم، فقد شارك عبد الملك بن سكريد الصنهاجي الصفري بـألفين مـن المقاتلة في حصار طبنة.حيث كان عمر بن حفص.[1]

ادعى بعض المؤرخين ولاء صنهاجة لعلي بن أبي طالب، وللعلويين عامة، فيما كان ولاء زناتة لبني أمية، فهم يحاولون في ما ذهبوا إليه من هذا التباين في الولاء إلى تبرير الصراع بين القبيلـتين، وقد حاولوا سوق بعض الأدلة التي تبرر هذا التصنيف بإسلام جد مغراوية وزمار وهو من زناتـة على يد الخليفة عثمان بن عفان الذي قلده الإمارة على قومه، لكنهم لم يوردوا سببا مقنعا يـبرر ولاء صنهاجة للعلويين.

وإذا كان هذا الولاء موجود فعلا فهو لا يعدو أن يكون تحقيقا لهـدف سياسـي صـرف، وصراع على النفوذ بين القبيلين، وإنما أخذت صنهاجة بدعوة بني عبيد منافسة منها لزناتة الثائرة عليهم.[2]

---

(3) ابن خلدون: كتاب العبر ، ج6،ص179.

(4) نفس المصدر والصفحة.

(5) ابن حزم : المصدر السابق،ص495، ابن خلدون: العبر، مصدر سابق،ج6،ص179.

(6) إبن خلدون، كتاب العبر،ج6،ص179-180.

(1) السلاوي: المرجع السابق،ج1،ص186.

لذلك كانت العلاقة بين زناتة وصنهاجة علاقة تنافس وعداء، فزناتة هي أكبر قبائل البتر، في حين تعد صنهاجة هي الأخرى أهم قبائل البرانس ، ويعود سبب هـذا الصـراع والعـداء إلى اختلاف أحوالهما الاجتماعية. كما كانت زناتة تغير على مزارع صنهاجة، مما دفع هذه الأخيرة إلى الاستعانة بالرومان، فعمل الرومان على توظيف هذا الصراع وتغذية هذا التنافر، فضربوا فريقا بفريق، فضمنوا بذلك الاستقرار لأنفسهم، وأحكموا السيطرة على بلاد المغرب.[3]

كما اشتد هذا الصراع في العهد الإسلامي، لأن زناتة البترية حالفت العرب منذ بدايات الفـتح بينما تولى البرانس عبء المقاومة بتأييد ودعم الروم.

لذلك كانت العلاقة بين القبيلين الكبيرين بدافع المنافسة على السلطة والملك والنفوذ والهيمنة، وقد وجدت صنهاجة الغطاء الذي مكنها من ممارسة هذا الدور في مشايعة الفاطميين وخدمتهم خاصة مع بدايات تقلص النفوذ الكتامي في دولة الفواطم ، وكأن ساستها أرادوا إحداث التوازن بين كتامة وصنهاجة حفاظا على الدولة من هيمنة قبيل على حساب قبيل آخر.

وهو الأمر الذي نبه إليه ابن خلدون عندما أشار إلى أن الدولة عندما تستقر « الرئاسـة في أهل النصاب المخصوص بالملك في _ تلك_ الدولة وتوارثوه واحـدا بعـد آخـر في أعقـاب كثيرين..واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرئاسة، ورسخ في العقائد دين الانقيـاد لهـم والتسليم وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية، فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة..ويكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم ودولتهم المخصوصة: إمـا بـالموالي والمصطنعين الذين نشؤوا في ظل العصبية وغيرها؛ وإما بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها.»[1]

وهذا الذي قامت به الدولة الشيعية عندما بدأت كتامة تتطاول إلى خارج الحدود التي رسمت لها فقد كافأ المهدي قاتل الشيعي عروبة بن يوسف الكتامي وعينه على مدينـة باغايـة سـنة 298هـ/ 911م، لكنه ثار ضد المهدي وأعلن تمرده عندما قتل أخاه حباسة.

لقد كان خلفاء الدولة الفاطمية يراقبون كتامة وتحدون من تزايد نفوذها باعتبارها القبلة التي بنت الدولة، في الوقت نفسه كانت الدولة تمكن للصنهاجيين وتقربهم إليها تمهيدا لتوليتهم حكم المغرب خلفاء للفاطميين. ويتجلى الدور الخطير الذي تؤديه صنهاجة في الجهود التي قام بها زيري

---

(2) نفس المرجع والصفحة.

(3) عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ص139-140.

(1) المقدمة ، ص171.

بن مناد في إمداد الفاطمين المحاصرين بالمهدية عندما حاصرها صاحب الحمار. فقد أورد النويري نصا نقله عن كتاب الأمير الزيري عزالدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس الموسوم (بالجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان) قال:« واتصلت المودة بين زيري والقائم بأمر الله، وسبب ذلك أن أبا يزيد لما حاصر المهدية ومنع الميرة[3] عنها، كتب القـــائم إلى زيري يعلمه ما النّاس فيه من الجهد والغلاء، فبعث إليه زيري بألف جمل حنطة، وأخرج معه مائتي فارس من صنهاجة، وخمسمائة من عبيده، فلما وصل ذلك إلى المهدية بعث القائم له هديـــة لم يسمع بمثلها كُسًا جليلةً وخيلاً مسوّمةً بسروج محلاة.»[4]

وكان بناء مدينة أشير من طرف الزيرين محمدةٌ أخرى شكرها القائم لزيرى، فقدم لـــه يـــد المساعدة بالمهندسين والصنّاع والبنائين، وأعلن استحسانه للأمر قائلا: « مجاورة العرب خير لنـــا من مجاورة البربر.» وذلك لأن زناتة كانت قد استطالت على أهل تلك الجهات من أيام الأغالبة وازداد ضررهم وتعاظم خطرهم أيام المهدي والقائم. فكان ما قام به زيري صيانة لأهل المنطقـــة وطمأنة للنفوس مما كان ينالهم من زناتة المعادية لصنهاجة.[1]

لكن هذا العداء بين القبيلتين تحول في بعض الفترات إلى ما يشبه التحالف، فبعد المثالب التي ارتكبها أبو يزيد نتيجة لسوء سياسته، اتجهت زناتة إلى التحالف مع العبيديين فقد كتب اسماعيل الفاطمي إلى« زناتة يأمرهم بالإغارة على سدراتة واستئصال من فيها، ففعلوا ذلـــك وقتلـــوهم، وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم فتوقف الناس عن المسير إلى أبي يزيد.»[2] كان ذلك قبيل وقعـــة باتنة التي قوضت حركة صاحب الحمار، وهذا ما يؤكد تبدل ولاءات القبائل البربرية وتغيرها تبعا لميلان موازين القوى، ومدى استفادة هذه القبائل من التطورات الحاصلة نتيجة الصراع عن الملك والثروة.

لكن الخليفة الفاطمي معدّ عقد لزيري على حرب زناتة، وأمده بالمال والعساكر،« وسوغه ما تغلب عليه من أعمالهم، فنهض إلى المغرب سنة إحدى وستين-361هـــــ/971م- وأوغـــر

---

(3) الميرة الطعام يمتاره الإنسان، ابن سيده الميرة جلب الطعام وفي التهذيب جلب الطعام للبيع وهم يمتارون لأنفسهم و يميرون غيرهـــم ميرا وقد مار عياله وأهله يميرهم ميرا وامتار لهم و الميار جالب الميرة و الميار .يقال ماره يموره إذا أتاه بميرة أي بطعام. وفي الحديث والحمولة المائرة لهم لاغية يعني الإبل التي تحمل عليها الميرة وهي الطعام ونحوه مما يجلب للبيع لا يؤخذ منها زكاة لأنها عوامل ويقال مارهم يميرهم إذا أعطاهم الميرة.ابن منظور: المصدر السابق، ج5، ص 188. وفي سورة يوسف جاءت الميرة في قوله تعالى:« وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ» الآية65.

(4) المصدر السابق، ج24،ص89؛ المقريزي:اتعاظ الحنفا، ج1،ص79.

(1) النويري: المصدر السابق، ج24،ص88.

(2) ابن حماد: المصدر السابق، ص41.

بالبرابرة منهم وتقرى أعمال طبنة وباغاية والمسيلة وبسكرة وأجفلت زناتة أمامــه، وتقــدم إلى تاهرت فمحا من المغرب الأوسط آثار زناتة ولحق بالمغرب الأقصى.»[3]وبــذلك خلــى الجــو لصنهاجة حتى ترث المغرب الأدنى والأوسط وهو خال من زناتة التي ظلت تواجه معارضيها بــلا هوادة.

ويبقى القول أن القبائل البربرية الثلاثة الكبرى زناتة، وكتامة، وصنهاجة كانت تتنافس فيما بينها منذ مراحل الفتح الأولى حيث كانت الغلبة في بداية الأمر لزناتة التي استطالت على كتامة، لكن ورود الأفكار الشيعية، وقيام الدولة الفاطمية في بلاد المغرب مكّن كتامة من ترجيح الكفــة لصالحها، فسيطرت على مناطق عديدة من الأوراس، لكن الأمر لم يطل بسبب ظهور صــنهاجة وتحولها إلى عصبية للدولة الفاطمية مما أدى إلى تراجع مكانة كتامة، فلما غادرت زناتة المغــرب الأوسط سارت كتامة مع الفاطميين إلى مصر فأصبح المغرب الأوسط صنهاجيا علــى عهــد الزيريين ثم الحماديين.

(3) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7، ص33.

المبحث الأول

النظام الاجتماعي:

يعتقد بعض الدارسين أن الغزاة الفاتحين الذين مروا بالمغرب من الفنيقيين والرومان والوندال والروم البيزنطيين لم يكونوا يهتمون بالمغرب إلا بقدر ما كان يحفظ لهم الأمن الداخلي، ويجعل الجباية مستمرة، وطرق المواصلات البرية والبحرية سالكة غير مخوفة. لا فرق بين هؤلاء الغزاة كلهم.

وهو ما جعل تأثير هؤلاء الفاتحين محدود الأثر، رغم المدد الطويلة التي بسطوا فيها نفوذهم السياسي والعسكري والاقتصادي والثقافي والديني على المغرب. لكن أثرهم ، وتأثيرهم زال بزوال ملكهم واضمحلال وجودهم .

إن جهل الأجنبي بأساليب الحياة القبيلة لبعدهم عن البداوة وأنماطها، واقتصارهم على بسط النفوذ على مناطق محدودة جغرافيا، وعدم التوغل في دواخل البلاد، وترفعهم عن السكان المحلين قضى على الحكم الأجنبي، وحكم عليه بالفشل. لأن معرفتهم بالسكان كانت قاصرة، فلم يخالطوهم حتى يعرفوا طبائعهم، وأنماط حياتهم الاجتماعية والثقافية، رغم المدة الطويلة التي تواجدوا فيها على أرض المغرب. وهذا بلا شك عائد في الأساس إلى النظرة الاستعلائية التي كان المحتل الأجنبي ينظر بها إلى العنصر المحلي، فقد نعته بالبربرية ووصفه بالوحشية، لأنه لا ينتمي إلى نفس العرق والجنس والحضارة. فلم يَسْعَ إلى مدِّ حبال التواصل بينه وبين سكان المغرب، بل عدَّهم خدما للسيد الجديد.

وربما جرى بعض التقارب في فترات محددة، لكنها لم تكن كافية لإزالة عوامل الشك والارتياب بين الطرفين. وليس أدل على ذلك من استمرار الثورات، وبروز انتفاضات محلية ضد الغازي بدافع العقيدة الدينية تارة، أو تحت ضغط العامل الاقتصادي تارة أخرى.

لقد توافرت عوامل الثورة وأسبابها فصّيرت السكان كتلة واحدة ثارت ضد المحتل من أجل الاستقلال ودفع الظلم والقهر.(1) لذلك كان الأثر الذي تركوه قليلا، بينما كان الجرح الذي خلفوه كبيرا.

---

(1) موسى لقبال: البتر والبرانس والمظهر الاجتماعي لسكان بلاد المغرب قبل الإسلام، الأصالة، ع24،مارس- أبريل 1975،ص160.

وقد كان المسلمون الأقدر منهم على فهم طبائع السكان، وطرائق حياتهم، مما سهّل عليهم فرص التفاهم معهم، ثم التأثير فيهم بل والاختلاط بهم. وهذا بدافع الدين الإسلامي الذي سوى بين البشر دون نظر إلى عرق أو لون.

كما كان التشابه في أنماط الحياة وأساليبها بين العرب والبربر قد سهّل عملية التواصل هذه. وهذا التشابه في الحياة وأنماطها مكنهم من سبر أغوار نفوسهم، وبالتالي المقدرة على التأثير فيهم. وكان أبلغ ذلك إقناعهم باعتناق الدين الإسلامي وتبني اللغة العربية.

كما أن البربر كانوا أيضا يحاولون التعرف إلى حقيقة هؤلاء الوافدين الجدد. فأخذوا في مقارنتهم بمن سبقهم من الغزاة. كما عمل التشابه الاجتماعي بين الفرقين على إزالة عوامل الارتياب والشك، وبالتالي تحوُّل البربر جزئيا أو كليا إلى الإسلام.

إن الذي مكّن الدعوة الإسلامية من تحقيق هدفها في بلاد المغرب لا يمكن عَزْوُه إلى بساطة العقيدة الإسلامية، والاستعداد النفسي والفطري للسكان من أجل تقبل الدين الجديد واعتناقه فقط، ولكن أيضا لِماَ كان العرب يألفونه من حياة الرحلة وحياة القرار في شبه الجزيرة العربية، مما مكنهم من فهم أنماط حياة سكان المغرب وطرق عيشهم، وبالتالي تمكنوا من معرفة طبائع السكان، فسهّل عليهم هذا التشابه نشر الإسلام والتمكين له، حتى وان استغرق الأمر كثيرا من الجهد والوقت.(1)

وما دمنا نتكلم على سكان الأوراس، فإن الطابع الغالب عليهم قبل الفتح وبعده أن أغلبهم جبليين وقليل منهم من الحضر المستقرين، ورغم أن التمدن بالنسبة للبدوي يكاد يكون غاية ومقصدا يجري إليها(2)، لكن في الأوراس الأمر يكاد يكون مخالفا لهذه القاعدة.

والبيئة الطبيعة لاشك أنها عملت على بروز ظاهر البداوة واستفحالها في المنطقة، لأن القرار يقتضي الثبات في منطقة معينة، ومزاولة نشاط اقتصادي يتلاءم والطبيعة الجغرافية. وهذا الذي يكون جعل ابن خرداذبة يقول عن البربر بأنهم يكرهون نزول المدن ويترلون الجبال والرمال لذلك بقيت المدن بيد الروم حتى فتحها العرب المسلمين.(3)

---

(1) بل: المرجع السابق،ص83؛ موسى لقبال: البتر والبرانس ،ص162-163.

(2) محمد العابد الجابري: العصبية والدولة ، معالم نظرية ابن خلدون في التاريخ الإسلامي،ط1، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1982،ص252..

(3) المصدر السابق،ص84.

ولما كان معظم سكان الأوراس من زناتة، فالغالب عليهم أنهم قوم رحالة ظواعن. ينتجعون من مكان إلى مكان آخر، أَلِفُوا الرحلتين وسكنى الخيام وركوب الخيل، ثم سايروا العرب وقلدوهم كما يقول ابن خلدون.[1]

النظيم القبلي:

يقوم النظام الاجتماعي عند البربر عامة وبربر الأوراس خاصة على القبيلة التي تعد إحدى أهم دعامات المجتمع البربري التقليدي على النحو الذي كان عليه العرب أيضا، وإذا كان التراث البربري القليل لا يسعفنا بنصوص تمكننا من تحديد مفهوم القبيلة ومدلولها، فعلى العكس من ذلك بالنسبة للعرب؛ لأن لهم تراثا قبليا غنيا بحكم أن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية المحورية التي صحبت مختلف مراحل التاريخ العربي القديم والحديث. مما جعلهم يفردون لمصطلح (القبيلة) مؤلفات وأبوابا ومحاور.[2]

ففي لسان العرب:[3]« القبيلة من الناس بنو أب واحد.. قال الزجاج: القبيلة من ولد إسماعيل (ع) كالسبط من ولد إسحاق(ع) سموا بذلك ليفرق بينهما،-و- القبيلة من ولد إسماعيل: الجماعة، يقال لكل جماعة من واحد[4] قبيلة، ويقال لكل جمع من شيء واحد قبيل» وقال الرازي في مختار الصحاح:[5]« القبيل: الجماعة تكون من الثلاثة فصاعدا من قوم شتى مثل: الروم والزنج والعرب..والقبيلة واحدة، قبائل العرب وهم بنو أب واحد.»
كما قسم العرب المجتمع إلى شعوب وقبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وعشائر..قال ابن عبد ربه[6]: « الشعوب العجم، والقبائل العرب، وإنما قيل للقبيلة قبيلة لتقابلها وتناظرها، وأن بعضها يكافئ بعضا، وقيل للشعب شعب لأنه انشعب منه أكثر مما انشعب من القبيلة، وقيل لها عمائر من الاعتمار والاجتماع، وقيل لها بطون لأنها دون القبائل، وقيل لها أفخاذ لأنها دون البطون، ثم العشيرة، وهي رهط الرجل خاصة.»
وقد وردت معظم هذه المصطلحات في القرآن الكريم :

---

(1) كتاب العبر، ج7،ص3.
(2) محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2002،ص53.
(3) ابن منظور: ج5، ص71.
(4) من جنس واحد.
(5) المصدر السابق،ص520.
(6) العقد الفريد، ج3، ص272.

المصطلح	النص	السورة والآية
الشعب والقبيلة	« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »	**الحجرات 13**
العشيرة	:«قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ »	**التوبة 24**
الفصيلة	«وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ »	**المعارج 13**
الرهط	« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»	**هود 92**

فالتنظيم الاجتماعي القبلي الذي كان عليه سكان الأوراس هو التنظيم الذي يتناسب وطبيعتهم الجبلية وشبه الصحراوية التي عاشوا فيها. فهم أهل بدواة وليسوا أهل قرار. وسكان البادية أحوج ما يكون إلى التعاون في حاجات المعاش كما يقول ابن خلدون[1].

والقبيلة عند البربر عامة وبربر الأوراس خاصة تنسب إلى أب أو جدّ، مما يجعل الرابطة الجامعة بين أفرادها هي الرابطة الدموية نظريا على الأقل. فأبناء القبيلة، هم بنو فلان من الناس أو بنو علان، لأن« القرابة والملازمة شرطان ضروريان لوجود العصبية، وهما أيضا اللذان يميزانها عن غيرها من الجماعات، ذلك لأن العصبية بهذا الاعتبار جماعة دائمة، فهي– بذلك- ليست من الجماعات المؤقتة التي تتشكل تلقائيا بمناسبة طارئة في مكان وزمان معينين، بدافع خارجي.»[2]

فالنظام الذي يقرون به، ويعملون على استمراره هو النظام القبلي الذي ألفوه، فأصبح مع توالي الأزمان لصيقا بهم، لا يجد الفرد نفسه إلا جزء من هذا النمط الاجتماعي، يمارس دوره كسائر أفراد القبيلة فلا تتحقق حرية الفرد إلا في حرية القبيلة.

---

(1) المقدمة، ص 132.

(2) الجابري: المرجع السابق،ص252.

يشعر الأفراد في القبيلة برابطة فزيولوجية قوية تجمع بينهم، مما يجعلهم لا يتوانــون في بــذل الغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن القبيلة وشرفها، والذود عن حياضها، فلا يتأخر الفرد منهم في نجدة أفراد القبيلة في جميع الظروف والمناسبات.[1]

يتزعم القبيلة شيخ من شيوخها يسمى عادة «أمغار» ويكون الشيخ من أوســط أفرادهــا، وأوفرهم مالا لأنه هو الذي يبادر في حالات الطوارئ إلى البذل من مالــه، وأرجحهــم رأيــا، وأكملهم عقلا لأن ضرورات السياسة تقتضي أن يكون زعيم القبيلة حسن الرأي راجح الفكرة، يتمتع بالسلطة المطلقة في والحرب، لكنه في أوقات السلم لا يتمتع بها. و يمكن أن يستعين بمجلس القبيلة، كمستشارين يساعدونه على إدارة شؤونها بما يحقق مصلحة أفرادها.

هذه القواعد المجتمعية أو القبلية تفرضها في العادة جمعية تلتئم في البداية من زعمــاء الأســر القريبة، ولا يمليها زعيم القبيلة لوحده بل الأمر موكول لمجلس الشيوخ، والقرارات لا يمكــن أن تتخذ بالأغلبية، بل بإجماع الحاضرين.[2]

يكنّ أفراد القبيلة في مجوعهم الاحترام والتقدير لشيخهم، وهذا الذي لاحظه ابن حوقــل في البربر حتى قال بأن لهم رؤساء « يطيعونهم فلا يعصونهم ويأمرونهم فلا يخالفونهم »[3]

إن تضامن القبيلة (العصبية) مع أفرادها ، ومع أي فرد منها مشروط باحترام مصلحة القبيلة والعمل على استجلاب المنافع لها ، أو على الأقل عدم التسبب في متاعب ومشاكل قد تعــرض كيان القبلة للخطر. في الوقت الذي يستطيع أن يضمن لنفسه الحماية من القبلة، وكأن الأمر عقد اجتماعي يحقق أهداف ومستلزمات الطرفين.[4]

وقد تنشأ نوع من الطبقية داخل المجتمع القبلي على الرغم من شيوع الحرية بين أفراد القبيلة، يحدث ذلك بسبب بروز طبقة ثرية مالكة للثروة وبخاصة قطعان الماشية التي تعتبر الثــروة الأولى لدى البدوي، فتكون هذه الثروة وسيلة للارتقاء الاجتماعي وتبوء مكانة متقدمة في هرم المجتمــع القبلي. لأن هذا السَّريُ الثَري يحسن توظيف ثروته في خدمة القبيلة فيكون مقصد كــل محتــاج ومعسر.

---

(1) نفس المرجع والصفحة؛ بن عميرة: المرجع السابق،ص22.

(2) بل: المرجع السابق، ص53.

(3) المصدر السابق، ص97.

(4) الجابري: المرجع السابق،ص255-256.

كما تنشأ داخل القبيلة شريحة واسعة من العامة وهم الذين يتساوون في أوضاعهم، وهناك موالي، وهم الذين ينحازون إلى القبيلة وهم لا يحملون دمها، وهناك أيضا فئة من العبيد، وهم من الأسرى أو يتم ابتياعهم من طرف أسياد القبيلة فيضافون إلى جماعته، وعصبته.

لم تكن القبيلة البربرية قادرة على أن تحافظ على نقائها، فأسماء القبائل التي سبق لنا ذكرها كانت تمثل جماعات متفاوتة من حيث الكم العددي وقوتها البشرية، إذ نجد بعضها يشكل أمة قائمة بذاتها كما كانت زناتة أو صنهاجة، فقد كان كل قبيل مكون من العديد من القبائل، لذلك كانت القبيلة الكبيرة تمثل في بعض الأحيان ما يشبه الكيان السياسي الاتحادي، فتدخل فيه أكثر من عصبية أو قبيلة، ويتم ذلك عن طريق حلف جامع، أو عن طريق الغلبة والقهر الذي تمارسه القبيلة الكبرى.

إن التركيبة السكانية القائمة على النظام القبلي في المغرب الأوسط كان لها الدور الكبير في قيام أشكال من الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية تقوت بفعل العصبية القبلية، فكان لذلك تأثير كبير وحاسم على العلاقات في كامل المغرب. فقد قصد دعاة الشيعة هذه المناطق حاملين مشروع الدولة، فلم يستقروا في إفريقية بل تجاوزوها، و لم يكن هذا التجاوز بقصد الابتعاد عن مقر سلطة الولاة، إنما بقصد كسب أنصار جدد في بيئة قبلية تمثل هياكل القبيلة فيها تربة خصبة لانتشار الدعوة وقيام الدولة.[1]

و هذا الشكل من الحياة قائم في الغالب على الظعن والترحال تجعل سكان منطقة الأوراس أقل خضوعا للسلطّ المتعاقبة على حكم إفريقية والمغرب الأوسط، كما كان الحال قبيل الفتح عندما شهد الأوراس قيام إمارة محلية مستقلة عن البيزنطيين، بل ودخلت في صراع مسلح مع قائدهم (سلمون) وخلفائه من بعده. لأن الحياة القائمة على الحركة والنشاط تجعل صاحبها أكثر حرية وأقوي شوكة، وأنزع للفتنة وأسرع لسفك الدماء. مما يجعلهم متسلطين على من جاورهم من الناس.[2]« لا يدخلون تحت طاعة سلطان لامتناع جبلهم العريض الطويل، ولما عندهم من الخيل والرجّالة والأسلحة.»[3]ولعل ذلك هو الذي جعل ابن خلدون يرى أن أهل البدو هم أقرب إلى

(1) الحبيب الجنحاني: العلاقات السياسية والاقتصادية بين إفريقية والمغرب الأوسط في القرنين الثاني والخامس للهجرة (الثامن والحادي عشر للميلاد) كتاب الأصالة (محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر) باتنة 1978، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر 1982،ص341.

(2) الحميري: المصدر السابق، ص65.

(3) ابن سعيد : المصدر السابق،ص145.

الشجاعة من سكان الحضر« لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحاميـــة وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يتقـــون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح ويتلفتون عن كل جانب في الطرق ويتجافون عن الهجوع إلا غرارا في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ويتوجسون للنبات والهيعات ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم واثقين بأنفسهم قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية يرجعون إليهـــا متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ.»[1]

---

(1) المقدمة، ص138.

المبحث الثاني

فئات المجتمع الأوراسي:

تعد زناتة كما سبق وأن رأينا في فصل سابق إحدى أهم القبائل البربرية عددا وعدة ، يشمل مجالها معظم بلاد المغرب وعلى وجه الخصوص جبل أوراس، وهي في الغالب تعتمد في حياتها على النجعة والظعن عبر السهوب والصحاري مثل الأعراب، يسكنون الخيام، ويملكون الإبل والخيل ويربون الأغنام.يقول ابن خلدون بأن زناتة:« أخذت من شعائر العرب كسكنى الخيام والتغلب على الأرض وإيلاف الرحلتين.» لذلك عمد المؤرخون إلى تقسيم زناتة إلى ثلاثة أصناف من الرحل:

رحالة كبار أو (البدو): وهم الذين يتنقلون بين تخوم الصحراء والسهول المرتفعة، وهم في أثناء رحلتهم يتجنبون السير في الجبال لدواعي الأمن، ويعتمدون في حياتهم على ركوب الخيل واتخاذ الإبل وسكنى الخيام.

أنصاف رحالة أو(أنصاف البدو): وهؤلاء يتميزون بوجود موطن لقرارهم لبعض الوقت من السنة فيما يرحلون في أوقات معلومة من السنة لانتجاع مناطق تتوفر على الماء والكلأ، وقد يمارسون أنشطة أخرى مكملة لنشاطهم الاعتيادي المتمثل في تربية المواشي، وهم العنصر الغالب على منطقة الأوراس، ذلك أن زناتة الأوراس في معظمها تستقر في السهول الشمالية أو سفوح الجبال مما جعلها تراوج بين الاستقرار والظعن.

الرحالة الصغار: يجمعون بين الرعي والزراعة في آن واحد، يمتلكون المزارع في الجبل، والمراعي في السهول، كثيرا ما يصعدون إلى الجبال في أوقات الصيف عندما تجف الحشائش، وتقل المياه.(1) وهذا التقسيم نظري افترضه أصحابه دون أن يكون له في الواقع أي سند، لأنه لا يمكن في منطقة مثل الأوراس ملاحظة هذه الفوارق التي حددها هؤلاء للتمييز بين السكان، وهو ما يجعلنا نميل إلى تصنيف آخر يقوم على الوظيفة والنشاط. فيكون سكان منطقة الأوراس خليط من الزراع والرعاة والتجار والحرفيين .

---

(1) محمد بن عميرة: المرجع السابق،ص21-22؛جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين(9-10م)ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر1992،ص249.

1- **الزراع**: وهم أكثر أهل الأوراس استقرارا لحاجة الزراعة إلى ذلك، لأن فترة الزراعة تستغرق فترة طويلة تستغرق شهورا بل أعواما من أجل إصلاح الأرض وزراعتها وغرس الأشجار المثمرة ، وهؤلاء ينتشرون في جنبات الجبل حيث تتوفر الشروط المساعدة لقيام هذا النشاط، من تربة خصبة ومياه جارية لسقي المزروعات.

والمصادر التي بين أيدينا تمدنا بنصوص غاية في الأهمية تبين غنى الأوراس وثرائه، فقد ازدهرت الزراعة فيه إلى الحد الذي جعل قطاع كبير من السكان يمارسون هذا النشاط مما أدى إلى وفرة وتنوعه.

ففي مدينة نقاوس يقول ابن حوقل بأن لها « مياه كثيرة وأجنة عظيمة»[1] وهو الذي شاهده ابن الحاج في القرن الثامن عندما زارها عندما قال:« وكانت نقاوس هذه على اتساع سوادها ، وعظيم أرفادها واستحكام أسباب استعدادها ، وما خصت به من كرم التربة وحسن الخطة والنصبة وتمنطقها بالأنهار وتوشحها بالأشجار ومحالفتها للخصب وجدعها لأنف الجدب وجمعها لأشتات المحاسن.»[2] كما اشتهرت طبنة هي الأخرى بكثرة المزارع والزروع[3]، وفيها كانت تجمع مياه الأمطار في صهريج كبير وتسقى بمياهه جميع الأراضي والبساتين [4]

يذكر صحب الروض المعطار[5] أن بادس كانت بها مزارع جليلة وأن أهلها« يزدرعون بها الشعير مرتين في العام على مياه سائحة كثيرة.»

2- **الرعاة**: وهم الذين يمتلكون قطعان الماشية ويجوبون بها السهوب التي تتوفر لمواشيهم العشب، وهذه المنطقة تشتهر بتربية الغنم والبقر وهؤلاء الرعاة هم الذين أطلق عليهم ابن خلدون الشاوية وقال بأنهم:« أهل القيام على الشاة و البقر لما كان معاشهم فيها.»[6] وقد ازدهر هذا النشاط لتوفر المسارح[7] والمراعي الكثيرة في الأوراس مما جعل ابن حوقل[8] يصفه بكثرة

---

(1) نفس المصدر، ص91.

(2) ابن الحاج النمري: فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة واعداد، محمد ابن شقرون، ط1، دار العرب الإسلامي، بيروت1990.

(3) المصدر السابق، ص85.

(4) البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص 50؛ مجهول : الإستبصار،ص172.

(5) المصدر السابق، ص75.

(6) كتاب العبر، ج2،ص20.

(7) المسارح جمع مسرح وهو الموضع الذي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي، لا تغيب عن الحي ولا تسرح في المراعي البعيدة .خوفا من أن ينزل به ضيف وهي بعيدة عازبة والسارح يكون اسما للراعي الذي يسرح، ابن منظور:المصدر السابق، ج2، ص 478.

(8) المصدر السابق، ص84.

المراعي.كما وصف بلزمة بأنها كثيرة الكراع والماشية[9]. وهؤلاء الرعاة يتنقلون بين السهوب والصحراء «فهم يضعنون في زمن الشتاء إلى الرمال حيث لا مطر ولا ثلج خوفا على نتاجهم »[1] ومن الرعاة من يربي الإبل ويستقر على حواف الصحراء، كما اشتهر سكان الأوراس بتربية نوع من الخيول وهي التي غنم منها عقبة بن نافع عندما حاصر مدينة باغاية، والتي وصفت بأنها أصلب الخيول وأسرعها و لم ير مثيلا لها، وهي التي تكون ساعدت العرب على فتح بلاد المغرب والأندلس.[2]

3- **التجار**: ظهرت هذه الفئة كنتيجة لتوفر الإنتاج الزراعي والحيواني ، فكانوا يبيعون هذه المواد والسلع في أسواق حواضر الأوراس، أو يقومون بنقلها إلى الأسواق خارجه.وقد وجدت المحارس في العديد من الأماكن في الأوراس تكون بنيت لتوفير الأمن للتجار وحماية طرق القوافل التجارية خاصة في الفترة الفاطمية، فقد تحدث ابن حوقل[3]عن مدينة دار ملول، بأنها تحولت بعد أن رزحت أوضاعها إلى منزلا ينزله المجتازون، وأن فيها مرصدا يفرض الضرائب على المجتازين. كما اهتم حكام الحواضر والمدن بتشجيع النشاط التجاري بما أقاموه من أسواق وشيدوه من فنادق وحمامات.[4]ولما ضاقت الأسواق التي أقيمت داخل المدن بالتجار والباعة أخرجت خارج الأسوار،[5] ولعلها تكون أسواقا موسمية تنعقد في بعض أيام الأسبوع، لأن في المدن أسواق دائمة كما قال الإدريسي[6]عن نقاوس بأن بها سوقا قائمة.

وقد تميزت منتجات الأوراس بالتنوع والجودة والوفرة حتى غذت بعض المواد ينقلها التجار إلى أسواق إفريقية والمغرب الأوسط، فقد كانت نقاوس التي يسميها البكري[7]«مدينة اللوز» تصدر اللوز والجوز إلى قلعة حماد وبجاية [8]ومعظم بلاد إفريقية[9].

---

(9) نفس المصدر، ص92.
(1) البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص145.
(2) نفس المصدر، والصفحة
p175-179
Gautier; Op.cit
.
(3) المصدر السابق، ص85.
(4) البكري: المصدر السابق، ص144.
(5) ابن حوقل: المصدر السابق،ص 84.
(6) المصدر السابق،ص 165.
(7) المصدر السابق، ص50.
(8) مجهول : الإستبصار،ص172.
(9) ابن حوقل: المصدر السابق، ص91؛ الإدريسي: المصدر السابق، ص165.

كان هؤلاء التجار بما حازوه من ثروة يشكلون طبقة غنية بين سكان الأوراس، فبنوا الـــدور وشيدوا القصور في الحواضر الكبرى، وهؤلاء هم الذين صادر الشيعي أموالهم عندما فتح طبنـــة وباغاية وبلزمة.

4- **الحرفيون:** وهم أصحاب المهن المختلفة من صناع، وصاغة وحدادين ونساجين، وهم الذين يستفيدون من الخامات التي ينتجها الأوراس[1] من معادن وقطن وكتان، وأوبار وأصواف وأشعار، وهؤلاء يتمركزون بشكل أساس في المدن حيث الأسواق والمستهلكين.

ومن أهم الصناعات التي اشتهر بها الأوراس الأنسجة الصوفية[2] والأكسية القطنية[3]، يروي أبو زكرياء أن صاحب الحمار عندما كان معسكرا بالأوراس يستجمع قواه اســتعدادا للقيـــام بالثورة سأله بعض الخارجين معه « ماذا تنتظر للأخذ بثأر يزيد بن فندين؟..فقال أبو يزيد : دعنا حتى نفرغ من نسج كسائنا. فإذا فرغنا منها وقعدنا في مصحات اشتغلنا في تنقية كساءاتنا.»[4]مما يبين ازدهار هذه الصناعة، كما أشار المقدسي إلى انتشار حرفة الصباغة بين البربر[5] مما يضـــفي مسحة جمالية على هذه الملبوسات ويزيد من قيمتها في الأسواق، كما كانت معاصـــر الزيتـــون منتشرة في منطقة الأوراس، يعصر فيها الزيتون، والذي كان السكان يشترونه من الأسواق بأسعار زهيدة ويستعملونه في طعامهم.[6] ولما كان بربر الأوراس يستهلكون لحوم الأبقار والإبل والغنم فقد احترف بعض البربر حرفة القصابة، يبيعون اللحوم في الأسواق[7]، كما كان هنـــا بعـــض صيادي الأسماك يصيدون من الأنهار الجارية ويبيعونها في الأسواق، وقد شاهد ابن حوقـــل [8]في مسكيانة الحوت الكثير والرخيص.

5- المحاربون والفرسان: أجمعت المصادر على أن سكان الأوراس كانوا يستطيلون على من جاورهم، لما كان لهم من خيل ورجل.[9]ولما كان الأوراس متعدد القبائل كثير القرى والمـــدن،

---

(1) البكري: المصدر السابق، ص145.

(2) كان صاحب الحمار يلبس جبة من صوف قصيرة الأكمام.الداعي إدريس:تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، القسم الخاص من كتاب عيون الأخبار، تح: محمد اليعلاوي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ص273.

(3) ابن حوقل: المصدر السابق، ص85.

(4) المصدر السابق، ص180.

(5) المصدر السابق، طبعة بيروت، ص192.

(6) البكري: المصدر السابق، ص145.

(7) نفس المصدر،والصفحة.

(8) المصدر السابق، ص84.

(9) نفس المصدر، ص85؛ ابن سعيد المغربي: المصدر السابق، ص154.

وافر الماشية والزروع والفواكه، فإن الضرورة تقتضي تشكيل فرق من الجند والحرس لضمان الأمن والاستقرار، وحماية طرق المواصلات والقوافل التجارية، وقد سبق الحديث من أن جميع أفراد القبيلة البربرية يشكلون عسكر القبيلة وجيشها الذي يدافع عن مجالها الحيوي ومزارعها ومسارحها، ويرد العدوان إذا تعرضت له القبيلة من عدو خارجي أو اشتركت في صراع محلي بين القبائل، وقد توظف القبيلة جند من غير أفرادها تستعين بهم لدفع الخطر، وعادة ما يكون هؤلاء من القبائل الأقل شأنا والأقل عددا. كما كانت بلزمة الموالية للإغالبة عامرة بالجند، وقد كانت فرقا منها تعمل في الجيش الأغلبي، خاصة أثناء الصراع مع الفاطميين، فكثرا ما كانت رقادة ترسل إليها لطلب المدد. كما استقر الجند العربي والخرساني في طبة ونقاوس وباغاية وغيرها من حواضر الأوراس.

المبحث الثالث

الأسرة والمرأة:

تشكل الأسرة في القبيلة البربرية الخلية الأساسية في المجتمع « فالأسرة ربها الرجل، وتقوم على الزواج.. وتعدد الزوجات – في المجتمع البربري وكما في المجتمع العربي- مباح. والنسب يحسب من حيث الأب. والأسرة تستمر من ذكر إلى ذكر والبنات يخرجن منها بالزواج.»[1]

يستنتج بعض الدارسين من قصة الكاهنة، والمركز الذي بلغته في قومها. أن نظام الأسرة الذي كان سائدا عند البربر خاصة بربر الأوراس هو النظام (الأموي أو الأموسي). وهو النظام الذي يسمح للمرأة من أن تتبوأ المكانة الأولى في الأسرة، لذلك نرى كثير من القبائل البربرية تنسب إلى أسماء جداتها. كما كان الحال بالنسبة لقبيلتي صنهاجة ولمطة[2]. وهو النظام المألوف عند صنهاجة الجنوب.[3]

وهذا الوضع المتمثل في تسنّم المرأة قيادة الأسرة يجعلها بذلك أكثر تحررا من التي تكون في مجتمع (أبوي). لذلك نرى الكاهنة تنشر شعرها وتكشف للغريب ثدييها، وتخالط الرجال دونما حرج أو وجل، وتشارك في المعارك بين الجند.وكل ذلك لم يمنعها أن تكون أما وملكة تقود قومها، وتجتهد لهم الرأي الصائب.

والمؤسف حقا أن لا نرى فيما عدا ذلك الأسرة الأوراسية بعد إسلام البربر و اعتناقهم الدين الجديد وعلى أي دعائم كانت تقوم. ولا شك أن سكوت المصادر عن هذا الجانب دليل على أن الرجل هو الذي أصبح يهيمن على الأسرة وبالتالي اختفت المرأة تحت جناحه كما يقال. فلم يعد لها ظهور في الأسرة والمجتمع على حد سواء، وهذا لأن الإسلام منحه القوامة، وأكد له الولاية على البيت. كما أن المذهب الإباضي الغالب على الأوراس والمتسم بالتشدد، يكون قد ساهم في

---

(1) الفرد بل: المرجع السابق، ص50.

(2) ابن حزم: المصدر السابق،ص495-496، سعد زغلول: المرجع السابق،ج1،ص116.

(3) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق،ج1،ص116.

تغييب المرأة ومنعها من الظهور أسوة بصويحباتها في المناطق الأخرى من المغرب. لهذا لا نجـــد في المراحل التالية بعد الفتح ذكر للمرأة إلا فيما ندر.

وعلى العكس من ذلك. نجد المرأة ظاهرة في المجتمع القيرواني في العصر الأغلبي وقَبْلـــه(1). كما نجدها أيضا في المجتمع الإباضي التاهرتي، وعند إخوانهم في جبل نفوسة، ثم في الدولة العبيدية الشيعية.

ولما كان المجتمع الأوراسي في غالبيته مجتمع ريفي يعتمد أساسا على الرعي وتربية الماشية، فإن المرأة لا يمكن أن تكون إلا عنصرا فاعلا في هذا المجتمع، لما يقتضيه مثل هذا النشاط من جهـــود جميع أفراد الأسرة لا فرق في ذلك بين المرأة والرجل. بل ونرى اليوم في بعض مناطق الأوراس ما تقوم به المرأة من رعي قطعان الماشية وممارسة الزراعة، وأعمال البستنة، وجلب المياه من العيـــون والينابيع. وبالتالي فهي لا تكتفي بعملها الفطري والمتمثل في إنجاب الأطفال وتربيتهم، وإعـــداد الطعام وتوفير ظروف الراحة للزوج والأسرة.

ولما كانت المرأة البربرية على قدر كبير من الحميّة، ربما حاربت بجانب زوجهـــا وشـــاركته المعارك، ومن هؤلاء النسوة من جلسن على عرش الملك. وهو الأمر الذي لم يَرُق للعرب كمـــا حصل مع الكاهنة كما يرى غوستاف لبون.(2)

و البربري شديد الغيرة على أهله لا يتساهل في أمور الشرف، وربما دفعه ذلك إلي ارتكـــاب جريمة القتل متى تحقق من خيانة زوجته له. فقد أورد صاحب الإستبصار قصة يقول فيهـــا انـــه «كان في مدينة شقبنارية _ وهي مدينة قربية من جبل أوراس _ كنيسة، وفيها مرآة صنعت من أخلاط عجيبة؛ وإذا اتهم الرجل أهله بأحد، نظر في تلك المرآة فيرى وجه المتهم. فيقال إنه كان في تلك الناحية رجل بربري يدعى أنه من أهل الإصلاح، فاتهم ملك شقبنارية أهله بذلك البربري فنظر في المرآة فرأى صورة البربري مع امرأته، فأوقف على ذلك الشهود وأخذ البربري فقتلـــه، فغضب لذلك أهل البربري ودخلوا الكنيسة فكسروا تلك المرآة ونزعوها.»(3)

وهي قصة أسطورية يصعب تصديق حدوثها، لكنها في المقابل تبين قداسة العلاقة الزوجية عند البربر، وما يحاط بها من سياج يحميها ويصونها، وهو ما يناقض الرواية الأخرى التي ساقها ابـــن

---

(1) دلال لواتي: عامة القيروان في العصر الأغلبي (184-296هـ/800-908م)رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط، جامعة قسنطينة ، 1422-1423هـ/2001-2002م ،ص260-270.

(2) حضارة العرب، تر: عادل زعيتر،ط4، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1964،ص249.

(3) الإستبصار، مصدر سابق،ص165.

سعيد المغربي واتهامه لسكان الأوراس بأنهم أهل«دعارة وعصيان»[4] وإذا وجدت هذه الظاهرة الشاذة في الأوراس فهي على غرار المجتمعات الأخرى تكون ضيقة، ولن تكون بالشكل الذي تصوره الكاتب، خاصة وأن المجتمع البربري عموما كان يقرر تعدد الزوجات، كما لا يستبعد شيوع « التسري بالجواري وعليه شواهد، خصوصا لدى الزعماء منذ العصر القديم.» [1]لذلك تكون دواعي إتيان الفاحشة ضئيلة. وقد زاد الإسلام من وسائل صيانة الأسرة وحماية المجتمع بما وضعه من قوانين تنظم الأسرة وتحدد طبيعة العلاقة بين أفرادها.

ولما كان سكان الأوراس خوارج ازداد بذلك تشددهم الديني وغالوا في التمسك بالنصوص الشرعية إلى الحد الذي رأينا فيه محكم الهواري يوصف من طرف الإمام أفلح بأنه :« رجل نشأ في بادية ولا يعرف لذي القدر قدره ولا لذي الشرف شرفه...»[3][2] مما يؤكد عمق تديّن أهل الأوراس وخشونة طباعهم على غرار المناطق الجبلية الأخرى في المغرب الإسلامي.

المرأة :

قليلة هي المصادر التي تتحدث عن المرأة الأوراسية في العصر الوسيط للأسباب التي ذكرناها من أن المنطقة اعتبرت من طرف الدارسين منطقة عبور وليست منطقة استقرار، كما أن افتقادنا للمصادر الإباضية بعد سقوط الدولة الرستمية زاد من هذا الغموض، وكل الذي بين أيدينا من مواد تتحدث بإسهاب عن الكاهنة وحروبها مع المسلمين وقيادتها لقومها وللقبائل الزناتية. أو تشير إشارات قليلة إلى مصاهرات بين العرب والبربر كما حدث عندما تزوج حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع من إحدى قبائل الأوراس، ولكن مع الأسف لا تذكر المصادر هذه القبيلة. كما تحدثت بعض المصادر عن زوجة أبي يزيد مخلد بن كيداد والدور الذي لعبته في الثورة.

فالأشهر بين نساء الأوراس والأظهر هي الكاهنة وهي:« دهيا بنت تابنة بن نيقان بن باورا بن مصكسري بن أفرد بن وصيلا بن جراو»[3]ملكت على البربر خمسا وثلاثين سنة. وعاشت فيهم مائة وسبعا وعشرين سنة. كان لها بنون ثلاثة[4]ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم،

---

(4) المصدر السابق،ص145.

(1) بل: المرجع السابق،ص51.

(2) ابن الصغير: المصدر السابق، 57-58.

(3) ابن خلدون: كتاب العبر ، ج7،ص11.

(4) الذي انفرد بهذه الرواية هو ابن خلدون ،العبر،ج7،ص11، لكنه سرعان ما يسقط الابن الثالث أما المصادر الأخرى فتشير إلى أن للكاهنة ابنين يسميهم الرقيق باسميهما(قويدر و يامين)،مصدر سابق،ص26، واسم الولد الثاني أشكل على المحققين.أنظر هامش الصفحة

ولما كانوا صغارا على ما يبدو «استبدت عليهم وعلى قومها بهم.»[1]إضافة إلى ما كانت عليه من تعاطي الكهانة والسحر، وادعائها معرفة غيب الأحوال، وعواقب الأمور يزعم بأنها « كانت تخبر بأشياء فتقع كما أخبرت عنها»[2]مما جعل قومها يطيعونها ويولونها رئاستهم. وهي التي تكون حرضت كسيلة على عقبة[3]، ثم ثارت على المسلمين بعدما مقتل كسيلة، وهذا هو الأمر المستفاد من النصوص التي توردها المصادر العربية.[4] مما يجعل ثورة البربر بقيادة الكاهنة هي تتمة للثورة السابقة التي تزعمها كسيلة.

كانت كما يقول عثمان الكعاك:« أشجع امرأة ظهرت في التاريخ القديم وأبدت من البسالة والحمية ما بهر العقول وسحر الألباب، فجمعت جموع البربر من حولها ونفثت فيهم روح الوطنية والحماس واستعدت لمقابلة العرب.»[5] ورغم شهرتها في تاريخ المغرب القديم إلا أن الناس اختلفوا في شأنها بين مؤكد لوجودها، مبينا لدورها في مقاومة الفتح العربي، وبين منكر لهذا الوجود. اعتمادا على ما يشوب قصتها من مسحة أسطورية، هي أقرب إلى الخرافية التي تحفل بها المصادر القديمة منها إلى الحقيقة التاريخية.

وهذا الزعم أورده بعض المؤرخين الأوروبيين. بل منهم من قال بأن الكاهنة ليست إلا البطريق يوحنا الذي قاد حملة لمواجهة العرب الفاتحين في إفريقية واستولى على قرطاجنة.[6] وهو قول عار من الصحة، لا يستقيم للنقد، مع توافر النصوص التي تتحدث بالتفصيل عن الكاهنة والمقاومة التي خاضتها ضد الفاتحين العرب. كما تذكر أيضا شخصية يوحنا هذا.

والحقيقة أن لفظة (الكاهنة) ليس اسم هذه المرأة وإنما هو لقب اشتهرت به لما تميزت به من علم ودراية بفنون السحر وفراسة، وقراءة المستقبل، والتنبؤ بأحداثه ووقائعه، وهي صفة درج عليها الكهان قديما. وهو الحال الذي كان عليه البربر قبل الإسلام.[7]

نفسها؛ وسليمان بن داود بن يوسف: الأوراس قلعة الثورات ضد الظلم والاستعمار والكفر قديما وحديثا ، كتاب الأصالة،محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر بباتنة ،ج1،وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ، الجزائر بلاتا،ص22.

(1) ابن خلدون: كتاب العبر، ج7،ص11..

(2) النويري: المصدر السابق، ج24،ص19.

(3) ابن خلدون:كتاب العبر، ج7،ص11؛ابن الأثير: المصدر السابق،ج4،ص32.

(4) ابن الأثير: المصدر السابق،ج4،ص32؛ السلاوي : المرجع السابق،ج1،ص49.

(5) موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، تقديم ومراجعة أبو القاسم سعد الله وآخرون،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2003،ص103.

(6) حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب،ص242.

(7) سعد زغلول عبد الحميد: المرجع السابق،ج1،ص217.

كما أن الكهانة عند البربر قديما كانت مقتصرة على النساء دون الرجال كما عند العــرب، لأنه من النادر أن تذكر المصادر رجال عرافين وكهانا.

«كانت إقليدة _أو كبيرة الإقطاعيين _ في منطقة أوراس، وأفصالها من قبيلة جراوة البتريــة المستقرة التي كانت لها الزعامة والرئاسة على البتر كلهم.»[1]

كانت مع قومها فيما يُزعم تدين باليهودية، وهو القول الذي يورده ابن خلدون من دون أن يؤكده، عندما قال:« ربما كان بعض هؤلاء البربر دانوا بدين اليهودية أخذوه عن بني إسرائيل عند استفحال ملكهم، لقرب بلاد الشام وسلطانه منهم، كما كان جراوة أهل جبــل أوراس قبيلــة الكاهنة مقتولة العرب لأول الفتح.»[2]

وقد تلقف بعض مؤرخي المدرسة الاستعمارية هذا القول، فراحوا يؤكدونه، وينشرونه وكأنه من الأمور المسلم بها. حتى زعم (غوتي) أن تسمية الكاهنة جاءت من الاسم العبراني (كــوهين) الشائع عند اليهود[3]، وهو الزعم الذي يفنده جوليان.[4]

يقول المسيري « ولا يمكن رؤية مقاومة داهية (الكاهنة) للزحف الإسلامي باعتباره جزءاً من العداء الأزلي بين المسلمين واليهود ولا يمكن فهمه من خلال نموذج تفسيري يهودي. ففي مناطق أخرى ومدن أخرى ساعد أعضاء الجماعات اليهودية المسلمين. ولذا يجــب أن تُوضَــع هــذه المقاومة في سياق أكثر عمومية وهو مقاومة القبائل الوثنية للزحف الإسلامي. ونحــن لا نعــرف كثيراً عن نوع اليهودية التي كانت تتبعها الكاهنة. بل إن بعض المؤرخين يشــككون أصــلاً في انتمائها اليهودي. لكل هذا يكون الحديث عنها باعتبارها عبقرية يهودية أمــراً لــيس ذا قيمــة تفسيرية تُذكَر.»[5]

لقد نجحت الكاهنة في جمع قبائل الأوراس حولها، من جراوة وبنو يفرن، ومن كان بإفريقيــة من سائر زناتة البتر. لمواجهة حسان بن النعمان. وقوتها هذه هي التي جعلت بعــض المــؤرخين

---

(1) موسى لقبال: المغرب الإسلامي، مرجع سابق،ص62.

(2) العبر، مصدر سابق، ج6،ص126.

(3) Gautier: Op.cit.p210.

(4) المرجع السابق، ج2، ص25.

(5) عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية،بيت العرب للتوثيق العصري والنظم، القاهرة. 2001.

العرب يصفونها« بملكة البربر»[1]حتى أُخبِرَ حسان بأنه إن تمكن من قتلها دان له المغرب، وأسلم أهله.

من خلال قصة الكاهنة، والدور الذي لعبته في قيادة الثّورة ضد المسلمين يجعلها في نظر بعض الدارسين رمزا من رموز المقاومة في شمال إفريقية، بل وتبين الدّور الذي قامت به المرأة في المجتمع المغربي الوسيط وانخراطها الفعال في قيادة المقاومة، كما تبرز الموقع القيادي للمرأة في المجال السياسي والعسكري، فهي في نظرهم تبرز المكانة المرموقة التي كانت المرأة الأمازيغية تعتليها في المجتمع، وما اجتماع البربر حولها والانقياد لحكمها إلا اعترافا بقدرتها على السياسة وممارسة القيادة.[2]

لقد حجبت الكاهنة المرأة الأوراسية حتى اختزلت فيها، فلا نكاد نعثر على امرأة اشتهرت في الفترة التي ندرسها في كامل المنطقة، وهذا راجع بلا شك إلى أن الأوراس كان إباضيا وهبيا، مع وجود أعداد من الإباضية النكار. وكلنا يعلم أن المذهب الخارجي متشدد في شؤون المجتمع والأسرة إلى حد الغلو، فكان ذلك سببا كافيا لعدم ظهور المرأة وبروزها على الصعيد الاجتماعي.

ورغم ذلك فإن المصادر الإباضية تمدنا ببعض المعلومات القليلة عن المرأة البربرية، فقد ذكر أبو زكريا أن امرأة بربرية تدعى(الغاية) « سمعت من قرأ القرآن قراءة السر في الصلاة بتكييف، و لم يحرك شفتيه أنه يعيد صلاته، فلما جنها الليل أقبلت على الصلاة تحتاط لصلوات سنة في ليلة واحدة. وكانت عادتها قبل ذلك الصلاة بالتكيف.»[3] والنص يوضح لنا ما كانت عليه المرأة البربرية الإباضية من عبادة وورع.

كما أن زوجة صاحب الحمار كانت كما قال المنصور الفاطمي أعقل منه فقد حذرته من سوء العاقبة وأمرته بالاعتراف بذنبه والتوبة إلى الله فلو أنه أطاعها كما ذهب المنصور لأصاب رشده.[4]

---

(1) ابن عبد الحكم: طبعة بيروت، ص63؛ البلاذري: المصدر السابق،ص227.

(2) عائشة كنتوري ، ومحمد الغرايب: ندوة "المقاومة المغربية عبر التاريخ ، أو مغرب المقاومات" الرباط 04ديسمبر2003.
http://www.map.co.ma/mapara/akhbar/culture

(3) المصدر السابق، 206.

(4) المقريزي: المقفى الكبير، تراجم، ص170.

وزوجة الثائر هذه تدعى تاخيرت، وهي التي صاحبته خلال مراحل الثورة، وكانــت لهــا مواقف مخالفه لمواقف زوجها، فقد ذكر الداعي إدريس أنها سلمت أحد البربر إلى أهل القـــيروان بسبب قتله رجلا منهم فقتلوه. وقد امتنع أبي عمار قبل ذلك عن تسليمه.[1]

وإذا كانت المرأة في جبل أوراس أقل ظهورا رغم أن سكان الأوراس كانوا في غالبيتهم مـــن الإباضية فعلى العكس من ذلك نرى المرأة في جبل نفوسة أكثر بروزا ، وأكثر ظهورا ومشاركة في الحياة العامة، العلمية والاجتماعية كعالمات وعابدات، وكتب الطبقات الإباضية تحفل بالكثير منهن.[2]

---

(1) المصدر السابق، ص236.

(2) أبو العباس الشماخي: كتاب السير، مخطوط المعهد الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة، ص267. أبو زكرياء المصـــدر الســـابق، 206.

المبحث الرابع

الأوضاع المعيشية لسكان الأوراس:

تبين النصوص العديدة التي أوردها كتب الجغرافية الثراء الذي كان عليه جبل أوراس حواضره وبواديه، فهو جبل خصيب كثير المياه وافر الزروع، متنوع الإنتاج مما أدي إلى ازدهار الكثير من الأنشطة الاقتصادية من زراعة وتجارة وصناعة وحرف. أدى إلى تحسن الأحوال المعيشية للسكان والتي تتضح من خلال.

الطعام:

يمتاز بالوفرة والتنوع، يتمثل في خبز الحنطة والشعير، وهذا الأخير يعد من الأطباق الرئسية التي يتناولها إنسان الأوراس، ينتج بكميات كبير في طبنة[1] وباغاية[2] وقد رأينا الكاهنة تصنع نوعا من الطعام من دقيق الشعير ثم تجمع عليه ولديها، وخالد بن يزيد ليأكلوا منه[3] عندما عمدت إلى دقيق شعير ففلتته بزيت.[4] وتسمى بعض المصادر هذا الطبق «البسيسة»[5] والظاهر أن هذا النوع من الأطباق كان له شهرة في المنطقة مما جعله أفضل من غيره من الأطباق يستخدم لتكريس إحدى عادات البربر المشهور الخاصة بالتبني.

وقد ذكر ابن حوقل[6] أن سكان جبل نفوسة وعلى غرار سكان الأوراس يشتهرون بزراعة الشعير «وإذا خبز كان أطيب طعما من خبز الحنطة، ولشعيرهم لذة.»

كما شاع عند أهل الأوراس إنتاج زيت الزيتون، فقد كان جبلهم من المناطق التي تغرس فيه هذه الشجرة المباركة. والزيتون يستخدم لإنتاج الزيت كما يستهلك كغذاء للإنسان والحيوان. وقد تتحول زيت الزيتون إلى دواء للعلاج. خاصة وأن برودة الجو في الأوراس وامتداد فصل

---

(1) ابن حوقل : المصدر السابق،ص 85.
(2) الإدريسي: المصدر السابق، ص177.
(3) ابن عذاري: المصدر السابق،ج1،ص37.
(4) الرقيق: المصدر السابق، ص27.
(5) الحميري: المصدر السابق،ص65.
(6) المصدر السابق، ص92.

الشتاء طويلا، وهطول الثلوج بكثافة[7] مما يزيد من حاجة جسم الإنسان إلى الطاقـة. ويمكـن استخدامه أيضا كوقود لإيقاد المصابيح.

ولما كان الأوراس أرض زرع وضرع فإن اللحوم والألبان، كانت من الأغذية الوفيرة، فقـد كانت تباع في الأسواق وبأسعار مغرية كما يقول البكري عن أسواق مدينة باغاية.[1]

كما لاحظ ابن حوقل[2] وفرة السمك في سوق مسكيانة والذي يباع بأسعار رخيصة. كما يستهلك سكان الأوراس مختلف الفواكه من جوز ولوز وعنب والتمر.[3]

اللباس:

أما اللباس فإن عامة البربر يرتدون برانس سود وهذا لوفرة مادة الصوف التي تشكل المـادة الأولية لصناعة هذه الثياب، ولكن خشونة ملمس الصوف تجعل البربري يرتدي تحتـه إزار مـن كتان أو قطن. خاصة وأن القطن والكتان كانا ينتجان أيضا في طبنة وبعض مناطق الأوراس، أما سكان الحواضر من الأغنياء والميسورين فيرتدون الأكسية أما العوام فهم كما يقـول المقدسـي « والسوقة بمناديل»[4] لعله يريد القول بأنهم يكتفون بلحاف يلفون به جسومهم، وأهل البوادي كما يقول ابن خلدون يستغنون عن الثياب الفاخر لأنها من مذاهب أهل الحضارة، لذلك فهـم يشتملون الأثواب اشتمالاً. كما يضع البربر على رؤوسهم قلانس مصبوغة.[5]

السكن والمساكن:

ولما كان سكان الأوراس يغلب عليهم حياة الترحال، فقد كانت مسـاكنهم هـي الخيـام ينسجونها من أشعار الحيوانات وأوبارها، يحملونها إلى المناطق التي يرتادونها، وهم بالتالي كـثيري الشبه بالعرب في صحرائهم قبل أن ينغمسوا في مباهج المدنية والحضارة.

أما إذا قرّ قرارهم فإنهم يعيشون في منازل يبنونها بالحجارة والطين والحصى وجذوع الشـجر ويغطون سقوفها بأغصان الأشجار وبعض النباتات. وعادة ما تكون هذه البيـوت في سـفوح

(7) اليعقوبي: صفة المغرب، مصدر سابق،ص11.
(1) المصدر السابق،ص145.
(2) المصدر السابق، ص84.
(3) البكري: المصدر السابق، ص50؛ مجهول: كتاب الاستبصار، ص172.
(4) المقدسي: المصدر السابق،ص192.
(5) نفس المصدر والصفحة.

الأودية، كما نشاهد ذلك اليوم في منخفض وادي غوفي حيث تظهر صفوف من المساكن على هذا الطراز.[6]

كما سكن الإنسان الأوراسي الكهوف في الجبال حتى يستفد من الأراضي الزراعية القليلة في إنتاج بعض المحاصيل المحلية. وعادة سكنى الكهوف والغيران كما يقول ابن خلدون هي عادة أهل البداوة، إذ يبادرون إلى اتخاذها مساكن من غير علاج ولا إصلاح.[1]

دور العبادة:

لا تخلو حواضر وقرى جبل أوراس من دور العبادة[2] تقام فيها الصلوات المكتوبة، وصلاة والتراويح في ليالي رمضان.[3]كما كانت تخصص أماكن داخل أسوار المدن أو خارجها كمصليات لإقامة صلوات العيد[4] إذ كان المسلمون في القرون الأولى يلتزمون السنة في إقامتها صلاة العيدين خارج المصليات والمساجد.

وقد ذكرنا أن الدعاة الخوارج كانوا يؤسسون المساجد ويقيمون المصليات لنشر المذهب الخارجي بين سكان الأوراس. كما كان أهل السنة يفعلون في الحواضر الكبرى.

المقابر:

لا تكون بعيدة عن المدينة، لأنها تعدّ من المرافق العامة التي يجب حمايتها، كما كان الحال بطبنة حيث تقع مقبرتها بشرقييها.[5] والمقابر تكون في العادة خارج المدينة، وهي من المصالح التي يصرف عليها من الأوقاف والأحباس، يرتادها الناس للعبرة والعظة ترقيقا للنفس وتهذيبا للروح.

والبربر كما يقول المقدسي لا يأخذون الميت إلا من رأسه ورجليه.[6]يريد القول بأنهم عندما يشيعون الميت إلى المقبرة، وهي العادة التي لا تزال قائمة إلى اليوم، والغريب كيف ساق المقدسي هذا القول وما وجه الاستغراب فيما رأى؟!

---

(6) G.Yver:دائرة المعارف الإسلامية، مادة (أوراس). ،ج3،ص120

(1) المقدمة،ص451.

(2) البكري: المصدر السابق، ص145؛ الحميري: المصدر السابق، ص75.

(3) المقدسي: المصدر السابق،ص192.

(4) البكري: المصدر السابق ،ص51.

(5) نفس المصدر والصفحة.

(6) المقدسي: المصدر السابق، طبعة بيروت،ص192.

الملاعب والملاهي: لا يظن ظان أن البربر كانوا مجرد ثوار مقاتلين يشنون الغارات، ويتحدون السلط المتعاقبة على المنطقة، فهم بقدر الشجاعة التي جبلوا عليها، والتي عملت الطبيعة القاسية التي عاشوا فيها على تأصيلها في نفوسهم، بقدر ما هم أيضا بشرا يسرهم ما يسر سائر البشر، ويعتريهم الملل وأحيانا اليأس وهم يكابدون مشاق الحياة ومصاعبها، لذلك فهم يمارسون ألعابا شتى تسلية وتلهية، وقد ذكر الحميدي أن مدينة تبسا(تبسة)كان بها دار ملعب.[1] ومن الألعاب التي يمارسها البربر ركوب الخيل، والعاب تقام في مناسبات كقدوم فصل الربيع الذي يسميه البربر (تافسوت) ويمارسون فيه لعبة تشبه إلى حد كبير لعبة الهوكي الحالية تسمى(تاقوست) وهي كرة تصنع من خشب، يجتمع حولها عدد من اللاعبين، يتقاذفونها بعصي طويلة يمنة ويسرة، وفي كل مرة تكون الكرة في حماية أحد اللاعبين، فإذ ما لمسها لاعب آخر بادر من يحمي الكرة إلى لمس اللاعب بالعصا الطويلة التي يحملها قبل توقف الكرة، فتنتقل الحماية إلى اللاعب الملموس.[2]

(1) الحميدي: المصدر السابق، ص129.

(2) هذه اللعبة اختفت تقريبا من البوادي والجبال فما عاد الناس يمارسونها.

المبحث الخامس

العادات والتقاليد والذهنيات:

أ- العادات والتقاليد:

لاشك أن البيئة الجغرافية للأوراس، ونمط الحياة القائم على البداوة قد جعلت عادات أهله على قدر كبير من البساطة وحتى الواقعية.

فقد ثبت بالعلم والتجربة أن الوسط الجغرافي الذي يعيش فيه الإنسان يؤثر في سلوكه الاجتماعي وفي نوع النشاط الذي يمارسه، وحتى نوع الغذاء الذي يتناوله، وشكل اللباس الذي يرتديه. يقول الأستاذ حسين مؤنس :« إن البيئة الجغرافية التي ينشأ فيها شعب من الشعوب لها أكبر الأثر في الشكل الحضاري الذي ينشئه. لأن الإنسان يأخذ مادة حضارته مما حوله، والظروف الطبيعية التي تحيط به لها أعظم الأثر في حفز همته إلى العمل والإنشاء والابتكار ، أو في تثبيط همته وحرمانه من كل تطلع إلى جديد.. » [1]

من العادات التي أشارت إليها المصادر ظاهرة التبني عند البربر والتي تتمثل بجلاء في قصة الكاهنة مع أسيرها خالد بن يزيد العبسي الذي أسرته، ثم تبنته ليكون أخا لأبنائها فقد قالت له يوما« ما رأيت من الرجال أجمل منك، ولا أشجع! وأنا أريد أن أرضعك، فتكون أخا لولديّ! .. وقالت له نحن جماعة من البربر لنا رضاع إذا فعلناه نتوارث به!»[2] ثم عمدت إلى دقيق من الشعير فلتته بزيت، ووضعته على ثديها، ثم دعت ولديها، وقالت لهما كولا مع خالد على ثدي فلما فعلا قالت لهم قد صرتم إخوة.[3]

(1) الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها ، ط2، عالم المعرفة، الكويت1998،ص 27.

(2) ابن عذاري : المصدر السابق،ج1،ص37.

(3) الرقيق: المصدر السابق،ص27.

وهي عادة تشبه إلى حد ما كان عليه العرب في جاهليتهم من التبني، حتى جاءت النصوص الشرعية بتحريمه. وقد يكون هذا النوع من الرضاع وهذا الشكل من التبني بدافع ظروف طارئه. وهي التي كشفت عنها الكاهنة في آخر أيامها لما قالت لخالد « إنما كنت تبنيتك لمثل هذا اليوم، أما أنا فمقتولة ولكن أوصيك بأخويك هذين خيرا.»[4]

ومع أن سكان الأوراس « دخلوا في الإسلام منذ أيام الفتح العربي فإنهم احتفظوا ببعض آثار الديانات التي تتابعت عليهم كالوثنية واليهودية والكاثوليكية والدوناتية ، وهذا يعلل ما بقي بينهم من بعض الظواهر مثل وشم الصليب أو صورة الحرفين(W.A) وتقديم القرابين في أماكن مقدسة قديمة ، وحلف اليمين عند الآثار الحجرية ، وإقامة الأعياد في بعض فصول السنة.»[1]وهذا القول الذي أورده مؤلفوا دائرة المعارف الإسلامية لا يخلوا من حقائق كما لا يخلوا أيضا من مبالغات.

لأن بربر الأوراس مازالوا إلى اليوم –خاصة في الجهات الجبلية- محافظين على عادات بربرية أصيلة، توارثوها عن أجدادهم القدامى قبل الفتح وربما بعده، ولكن يصعب تفسير تلك الرموز ومعرفة مدلولها، هل تكون رمزا لشيء مقدس، أم هي تعويذة لحماية الإنسان من العين والأرواح الشريرة، أو هي مجرد أشكال ورموز ابتدعتها أنامل البربري على غرار إنسان الطاسيلي الذي رسم لوحاته على الصخر، بينما رسمها الأوراسي على الوجوه والأيدي.

كما أن ظاهرة الوشم هذه هي عادة اشتهرت عند جميع الأمم والشعوب خاصة الرحالة منها. والأشكال المتداولة في الوشم في الأوراس هي عبارة عن خطوط متقاطعة وزوايا متقابلة، لا تعني عند أصحابها شيء سوى أنها من ألوان التجميل، وضروب التزين، وهي عادة اشتهرت عند النساء أكثر منها عند الرجال، وبالتالي فلا يمكن عزو ذلك إلى التأثير اليهودي والمسيحي، وإلا كيف بقيت هذه العادات، وهذه التقاليد إلى اليوم رغم زوال هذه المؤثرات.

كما توارث البربر عادات أخرى مرتبطة بمواسم الحرث، أو مواسم جني المحاصيل، أو تكاثر المواشي، كما اعتاد البربر الاحتفال برأس السنة البربرية حيث يتم تنظيف البيت، وتبديل الأثافي[2] التي توضع عليها البرمة.والتقويم المعمول به عند سكان الأوراس هو التقويم اليولياني، لذلك فهم

---

(4) الحميري: المصدر السابق،ص66.

(1) G.Yver: دائرة المعارف الإسلامية، مادة (أوراس)، ج3، ص122.

(2) أثف: الأُثْفِيَّةُ والإِثْفِيَّةُ: الحجر الذي تُوضَعُ عليه القِدْرُ، وجمعها أَثافِيُّ وأَثافٍ ، ابن منظور: المصدر السابق، ج 9، ص3.

يسمون الشهور بأسماء لاتنية فيسمون(يناير= ينار، وفبراير= فورار)[3] لكنهم يسمون (أبريل = نيسان) مما يؤكد اعتمادهم أيضا التقويم العربي. ويحتفلون أيضا بمقدم فصل الربيع بالرقص والغناء[4]. ومن أشهر أدوات الموسيقى في الأوراس الناي المصنوع من نبات القصب، والدف الذي يصنع من جلد الماعز أو الغنم.

كما تأثر بربر الأوراس بعد إسلامه وتعربهم بالعرب الذين استقرت أعداد منهم في حواضر الأوراس وبواديه، وقد ظهر هذا التأثر من خلال تقليدهم للعرب كما يقول ابن خلدون في سكنى الخيام واللباس، وركوب الخيل، وترك رطانة البربرية.[1]

من المؤسف أن ما يتعلق بحياة الناس اليومية لا تجد عنه شيئا في المصادر العربية المكتوبة، إلا ما تم استنباطه من بعض الأخبار والروايات التي تتحدث عن الحروب والصراعات، وقد تجرأ مؤرخوا المدرسة الاستعمارية « فاستخرجوا من الشذرات المروية فرضيات مستلذة لا تعدو في الواقع أن تكون تخمينات بعيدة.»[2]

ب- المظاهر الذهنية:

لعبت الجغرافيا دورا كبيرا في التأثير في سكان الأوراس فصبغتهم بصبغتها، حتى أصبحوا وكأنهم جزء لا يتجزأ منها. فقساوة الطبيعة، وعزلة الأوراس، وبعده عن الحواضر الكبرى، والحصانة الطبيعية التي يتمتع بها، جعلت سكانه مستقلين عن النظم التي قامت في إفريقية، والمغرب الأوسط، وظلوا يتمتعون بالحرية في إطار النظام القبلي الذي اعتمدوه.

فالعيش تحت الخيام (خيام الوبر) يشكل عند سكان البوادي رمز الحرية والشـــرف، بينمـــا تشكل حياة الحضر رمز الذلة والعبودية. ولما كان معظم سكان الأوراس من الرحل فهم يعتزون بحريتهم، مما جعلهم يستبسلون في الدفاع عنها إذا شعروا بأنها مهددة من العدو الخارجي. وقـــد زادهم المذهب الخارجي استمساكا بها ودفاعا عنها. فكانوا بذلك أكثر الناس عنادا، وأثبتهم في المصاعب، لا يبالون أوقعوا على السيف أم وقع عليهم، وهذا الذي جعل القائم العبيدي يحـــث كتامة على الخروج لقتال أهل أوراس ويسميهم بالمارقين.[3] كما أنهم كانوا أخلص الناس للثائر

---

(3) G.Yver ائرة المعارف الإسلامية، مادة(أوراس)، ج3، ص122.

(4) نفس المرجع والصفحة.

(1) كتاب العبر، ج6، ص168.

(2) العروي: المرجع السابق، ج1، ص140.

(3) الداعي إدريس: عيون الأخبار، ص199-200.

وأثبتهم عندما تخلى عنه عامة البربر. مما جعل ياقوت الحموي يصف البربر بأنهم أجفى خلق الله وأسرعهم إلى الفتنة وأسفكهم للدماء.(4)

كما كان سطحية التدين في الأوراس خاصة في المراحل الأولى، قد بلغ حدا من السذاجة، مما أغرى بعض الطامحين من أبنائه إلى التكهن، بل وادعاء النبوة. وهذا لوجود رواسب كانت في المنطقة قبل الفتح الإسلامي. فهذا أحد زعماء ورفجومة وهو (عاصم بن جميل) ولما كان في موقع الصدارة والقيادة بين قومه اعتقد أن ذلك يخول له ادعاء النبوة، من أجل تقوية سلطته، وكسب شرعية دينية. فعمد إلى تبديل الدين، فزاد في الصلاة، وأسقط ذكر النبيε من الآذان.(1)

لم يكن عاصم ليجرؤ على ذلك لولا سطحية تدينه هو وقومه، ثم لوجود أتباع يعتقدون بصدقه ويؤمنون بما يظهره من خوارق العادات. فهو في هذا ينهج نهج سابقته الكاهنة في قراءة الغيب و التنبؤ بالمستقبل. كما ظهر أيضا في عهد المنصور الفاطمي رجل ثار في جبل أوراس «تسمى بالناصر لدين الله، ادعى النبوة وأتى بمخاريق كثيرة، وألوان عجيبة، استمال بها العامة ..فأمر- المنصور- أن يشهّر ويطاف به على جمل، ثم أمر بضرب عنقه وصلبه.»(2)

يرى الأستاذ أحمد المحمودي أن الواقع السياسي المضطرب والظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة هي التي فتحت المجال أمام أشخاص انتحلوا النبوة أو ادعوا المهدوية، فوجدوا التأييد والتصديق.(3)

لذلك نجد عامة البربر وخاصة في منطقة الأوراس كثيرا ما ينساقون وراء كل دعي زعم أنه نبي، أو ساحر، أو منجم. والمتتبع لأحوال الكاهنة والغرائب التي كانت تأتي بها في كل مرة تتوجس فيها الخطر من عدوها هي التي جعلت حتى بعض الكتاب المسلمين يتحدثون عن هذه الطقوس وكأنها حقائق ثابتة. فهل كانت الكاهنة تستخدم الشياطين والجن في معرفة غيب الأحوال، خاصة وأن المصادر تصفها بأنها «كانت من أعلم أهل زمانها بالكهانة.»(4) وبالتالي يسهل تفسير سبب انقياد البربر لكل من يدعى معرفة الغيب، وكل شخصية يكتنفها الغموض

---

(4) معجم البلدان، ج1، ص369.

(1) ابن الأثير: المصدر السابق،ج4،ص280؛ عمر فروخ: المرجع السابق ،ص177.

(2) الداعي ادريس: عيون الأخبار، ص262.

(3) المظاهر الذهنية لعامة المغرب الأقصى في المغرب الموحدي، محاضرات ملتقى (التغيرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور)، منشورات مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة أفريل 2001، ص119.

(4) الحميري:المصدر السابق، ص65.

وتتلبس بمثل هذه الأحوال. وربما يكون ذلك هو السبب الذي مكن الكاهنة من الاستبداد على قومها، ودفعهم في النهاية إلى القيام بتدمير المزارع والمدن، فلم تجد معارضة من قومها، و لم تتكلم المصادر عن نقاش بينها وبين قيادة أركانها، وهل أيدوا هذه الخطة المنطوية على تدمير اقتصاد البلاد كله، بل إن النصوص المتوفرة بين أيدينا تؤكد سرعة تنفيذ أتباعها لأمر التخريب. في حان كان ذلك سببا في انفضاض الروم من حولها.(5)

كما يتهم البربر بأنهم كانوا ولا يزالون يميلون إلى الفوضى، وبالتالي فهم أبعد ما يكونون عن النظام وضبط السلطان، فنتج عن ذلك تتابع الثورات والفتن بغير انقطاع في مواطنهم، الأمر الذي لم يمكنهم من إقامة حكم موحد يجمع شملهم، حتى زعم (R.Basset) بأن البربر ظلوا عاجزين عن الإتحاد، وأنه إذا كان وسط المغرب وغربيه شهد نشوء قيام نظام سياسي فإن شرقيه قد ظل تسوده الفوضى والإضطراب(1)، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال بأن ماسينيسا لم يستطع توحيد نوميديا إلا بمعونة روما ومساعدتها.(2)

وإذا كان بربر الأوراس لم ينتظموا في ملك يوحدهم وظل كل قبيل منهم مستقل بجهته، فذلك لا يعنى تأصل النزعة الفوضوية فيهم، وأن ذلك خاصة تميزهم، ولكن الحقيقة هي أن الطبيعة الجغرافية هي التي كيفتهم على هذا النحو، فجعلت المجتمع الأوراسي مجتمعا أقرب إلى البداوة منه إلى الحضارة والتمدن؛ وذلك بحكم عاملين اثنين الأول يتمل في اختلاف مناطق الأوراس خصبا وجدبا، وبرودة ودفئا، والثاني هو وجود هامش صحراوي شاسع ظل يشكل مجالا تتحرك فيه القبائل، مما جعل قبائل الأوراس في عمومها تعتمد نمط العيش الإنتجاعي.

التدين: يعتقد البعض أن الوازع الديني لدى القبيلة البربرية ضعيف، وأنه لم يكن في فترة من الفترات من العناصر المحركة لها، وأن أساس الالتحام الذي رأيناه في القبيلة الأوراسية، ليس إلا تلاحم قرابي يستند إلى عصبية عرقية فقط.

لكن المتأمل في حياة البربري يرى أنه ينقاد كثيرا للوازع الديني ويخضع له، فقد كانت الكاهنة سواء أكانت يهودية أو نصرانية أو وثنية توظف العامل الديني في تجميع قبائل البربر في الأوراس بما كانت تدعيه من علم غيبي الأحوال وما تأتيه من خوارق العادات. ثم رأينا بعد ذلك عاصم بن جميل يجمع حوله ورفجومة بما ادعاه من النبوة ، كما كان الحال أيضا في برغواطة بالمغرب

---

(5) نفس المصدر، ص66.

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة (البربر)، ج3،ص502-504.

(2) نفس المرجع ، ج3، ص502.محمد شفيق: المرجع السابق، ص101.

الأقصى وهذا ما يؤكد دور الدين في بناء القبيلة البربرية. كما أن انتشـــار الفكـــر الخـــارجي بالأوراس وعموم المغرب جاء كنتيجة لما كان دعاتهم يظهرونه من تدين وتقشف، لذلك وجدنا فيما بعد الطرق الصوفية تنتشر بقوة في منطقة الأوراس وتستقطب أعدادا كبيرة مـــن ســـكانه، فينخرطون في مقاومة الاستعمار بدافع الانتماء إلى هذه الطرق.

خاتمة

في نهاية هذه الدراسة المتواضعة، والتي استغرقت الفترة الممتدة من بدايات الفتح الإسلامي لمنطقة الأوراس وعموم المغرب الإسلامي ، وبعدما استعراضنا هذه الفترات، بما كان فيها من تغيرات وتقلبات. ساهمت كثيرا أو قليلا في إظهار شخصية جبل أوراس ودفعته للمشاركة في صنع أحداث المغرب الأوسط وإفريقية، فكان تأثيره ظاهرا، ودوره في قياس توتر الأوضاع بارزا، فقد كان يشكل جهاز ترمومتر يرصد حجم التغيرات في المنطقة من خلال موقفه منها. فإذا كان الهدوء والاستقرار يعم جبل أوراس يكون ذلك دليل على استقرار الوضع في عموم إفريقية والمغرب الأوسط . وإذا كان الأوراس في حالة الفورة، والاضطراب والثورة. علمت أن المنطقة كلها تكون على صفيح ساخن، وتوتر بارز بما يشهده من تدافع بين القوي السياسية والمذهبية والفكرية.

وفي خاتمة هذه الكلمة الموجزة أراني ملزما بسوق بعض النتائج التي أراها هامة لبيان شخصية الأوراس في تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط مما جعله محط أنظار الساسة والدعاة ، وأصحاب الملل والأهواء والنحل، وكل يريد استثمار ما كان يعرف به الأوراس من الـترو ع للمقاومة، وميله للثورة .

1- اعتناق الأوراس للمذهب الدوناتي كان كردة فعل تجاه سياسة الكثلكة الرومانية ومن بعدهم البيزنطين، فكانت غطاءً لتجميع القوى المعارضة للدولة، وتعبيرا عن الترعة الاستقلالية للمنطقة، وسلاح لمقاومة سياسة الرومنة والكثلكة ، فلم تفلح جهود القديس أوغسطين في الترويج لمذهب الدولة . و لم يستطع عن طريق المحاورة والمناظرة إسكات صوت المعارضة. فسوغ للدولة محاربة الزائغين الدوناتيين بدون هوادة، مما أدى إلى سقوط أعداد كبيرة من الشهداء دفاعا عن شخصية المنطقة التي استعصى إذابتها وصهرها في شخصية المستعمر.

2- طول المدة التي إستغرقها فتح الأوراس والمغرب الأوسط، عائد لاشك إلى تلك الترعة الاستقلالية التي ظلت تطفوا على السطح، والتي غذتها التجارب السابقة مع الغزاة منذ العصر الروماني وتصور سكان الأوراس بأن العرب لا يختلفون عن سابقيهم، فكانت الكاهنة تقول لقومها وهي تسعى لمنع العرب من الوصول إلى مناطق نفوذها بأن العرب لا يطلبون من

إفريقية إلا المدائن والذهب والفضة والشجر. وهو ما يوحي بسابق معرفتها بالصلح الذي عقده عبد الله بن سعد بن أبي السرح مع البربر لقاء حصول المسلمين على جزية سنوية ، حتى يكف عنهم ويخرج من بلادهم. لكن الأمر اختلف في خلافة عمر بن عبد العزيز الذي أمر برفع الجزية عن البربر وبعث الفقهاء العشرة لتعليم البربر دينهم فأثمرت جهوده ودان له البربر بعد طول مشاكسة، وكثير عناد.

3- سرعة اعتناق الأوراس للفكر الخارجي بمذهبيه الصفري والإباضي، لا يعدو أن يكون ردة فعل تجاه ظلم ولاة بني أمية الذين ساموا سكان المغرب الأمرين، بإرهاقهم بالضرائب، والتحايل عليهم بأخذ كل جميلة منهم ليتسرى بها رجال الدولة المتنفذين الطامعين. فلم تنفع الشكوى التي رفعها البربر للخليفة هشام. إضافة إلى ما كان يبديه دعاة الخوارج من تديّن وتوقف عند النصوص الشرعية، ونشدانهم التطبيق الصحيح والصريح لأي القرآن وصحيح السنة. فكان هذا سببا في حصولهم على القبول عند البربر الذين قارنوهم بولاة الدولة. فقالوا للخليفة بشأن ممارسات ولاته« لم نجد هذا في كتاب وسنة، ونحن مسلمون فأحببنا إن نعلم أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا ؟»[1] كما كان عزوف دعاة الخوارج عن متع الدنيا ومباهجها يرضي البربر، ويجعلهم في محل القدوة والأسوة.

4- مشاركة الأوراس في الحرب الأهلية التي اشتعلت بين الفهريين جاء بدافع العصبية القبلية، وبحكم الولاء الذي اقتضته المصاهرة، مما قاد إلى صراع بين الخوارج أنفسهم الصفرية والإباضية ، وما قامت به قبيلة ورفجومة من إستباحة الحرمات دليل على سطحية تدينها . فلم يكونوا يدركون عظم هذه الحرمات فيصونوها ويحفظوها، فكان ذلك سبا في زوال المذهب الصفري وتراجعه لصالح الإباضيين في طرابلس وجبل نفوسة ثم تاهرت بعد انتصاب الدولة الرستمية.

5- مشاركة الأوراس في ثورة النكار بقيادة الشيخ أبو يزيد كان بدافع العصبية القبلية والحميّة التي يمتاز بها أهل أوراس، ولما لحقهم من ظلم الدولة الفاطمية وتنكيلها بهم في العديد من المرات. فكان الأوراس قاعدة انطلاق وإمداد الثورة مما جعل القائم يحث على « جهاد

---

(1) ابن الأثير : المصدر السابق: ج3،ص47.

الفاسقين الكفرة المارقين ، أهل أوراس ، إذ جهادهم أفضل من جهاد المشركين.»[1] وهـــي الثورة التي وجدت الدعم المادي والمعنوي من مالكية إفريقية، وهي المرة الأولى التي يلتقي فيها أعداء الأمس ضد عدو مشترك. فقد كانت فتاوى علماء المالكية أهم عامل قوّى الثورة، ومدّ في عمرها فتكللت بنجاح منقطع النظير لولا غرور قائدها وتنكره للمبادئ التي نهض من أجلها ، فانقلبت المالكية عليه مما أفقده القدرة على مواصلة الثورة ، ولئن انفض من حولـــه كـــل الأتباع فقد بقي معه أهل الأوراس حتى قتله المنصور.

6- بقاء الطابع القبلي وحياة البداوة التي ألفها السكان رغم وجود حواضر غنيـــة في جوانب الجبل تمتعت بالغنى والخصب، فلم يتمكن سكان الأوراس من إقامة دولـــة جامعـــة لشتاهم موحدة لقبائلهم، لما كانوا يألفونه من حياة الفرقة التي ألفوها. وللحرية الواسعة الـــتي اعتادوها، فلم يكن ممكنا جمعهم، وضبطهم في دولة تضبط شخصيتهم بضابط من قـــانون أو شريعة. ومع صعوبة تخليهم عن نظامهم الاجتماعي القبلي فقـــد قلـــدوا العـــرب وتخلقـــوا بأخلاقهم، وقد كان منهم من تخلى عن نسبه البربرية وادعى له نسبا عربيا كما كان حـــال هوارة.

7- كان معتقدا أن مدينة باتنة مدينة حديثة تأسست في منتصف القرن التاسع عشـــر من قبل الإدارة الاستعمارية، لكن نصوص عديدة تؤكد بأنها مدينة قديمة خربت. سماها ابـــن حماد باسمها(باتنة) وقال بأن اسمها القديم (باذنة) بينها وبين المسيلة اثنا عشر ميلا.[2]كما ذكر ابن الحاج مدينة باتنة وقال بأن بها قصرا فخما للعرب نزل به السلطان أبي عنان المريني قبل أن يأمر بتعفية أثاره نكاية في من سكنه من الأعراب.[3]

8- بقاء الأوراس طوال فترة الدراسة متمردا مضطربا، نزاعا للثورة متأهبا للعصـــيان، هو نتيجة للتراكم الذي شهده خلال فترات التاريخ القديم والوسيط، فقد خاض حروبا طويلة ضد الرومان والوندال والبيزنطيين ثم العرب الفاتحين، وقد استمر الأوراس على الحالة نفســـها حتى العهد الزياني والمريني، فلم يركن إلى الهدوء مما جعل السلطان أبي عنان يسير جيشا جرارا

---

[1] الداعي إدريس :عيون الأخبار،ص199.

[2] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح: التهامي نقرة وعبد الحليم عويس،ط1، دار الصحوة ، القاهرة1981،ص71؛ في طبعة الجزائر نقص عن طبعة القاهرة، فلم يذكر فيها .

[3] المصدر السابق، ص419.

لإخضاع الأوراس وبلاد الزاب بعدما فتح قسنطينة وأحكم السيطرة على المغرب الأوسط. فعلى الرغم من رحيل قبائل زناتة، ومغادرتها الأوراس، وحلول العرب الهلالية محلها، إلا أن طبيعة الأوراس الثائرة ظلت فائرة.[1] مما استلزم إخضاعه لأنه مفتاح خضوع بقية المناطق في إفريقية والمغرب الأوسط.

9- عدم ظهور المرأة الأوراسية بما يكافئ دور المنطقة، إذ لا يكاد الباحث يجد للمرأة في الأوراس ذكرا، ما عدا الدور الذي لعبته الكاهنة في المراحل الأولى للفتح عندما قادت مقاومة جبل أوراس للعرب الفاتحين. وسبب هذا الغياب يعود بلا شك إلى جملة من الأسباب والعوامل تداخلت فيما بينها فمنعت المرأة من آداء دورها أسوة بأختها في جبل نفوسة. ومن ذلك طبيعة الأوراس الجغرافية المغلقة، وكون قبيلة زناتة كانت بترية غلب عليها الطابع القبلي المحافظ إلى حد الغلو والتطرف، كما عمل المذهب الإباضي الذي انتشر في الأوراس منذ مرحلة عصر الولاة على زيادة هذا الغلق. فصار الأوراس لذلك منطقة معزولة عن التأثيرات الخارجية، في الوقت الذي كان هو يصنع الأحداث وتؤثر في غيره من المناطق في إفريقية والمغرب الأوسط.

10- تميزت العلاقات بين جبل أوراس وحواضره بالتجاذب في الكثير من الأحيان فإذا كان الجبل قد شهد في أغلب فترات الدراسة استقلالا عن السلط المركزية وحافظ على نقاوة العنصر البربري الذي سكنه، فقد خضعت هذه الحواضر للسلط الحاكمة في إفريقة أو المغرب الأوسط (الأغالبة ثم الفاطميين) كما سكنها أخلاط من الناس من عرب وعجم وبربر ويهود. لذلك سيجد الدارس هذا الفصل أو التباين بين جهات الأوراس.

(1) ابن الحاج: المصدر السابق، ص410-471.

Université Mentouri-Constantine **faculté des sciences humaines**

et Vice rectorat de la post- graduation sciences sociales

et la recherche scientifique Département d'Histoire et d'Archéologie

Titre:

L'Aurès au Moyen Âge

De La Conquête Islamique jusqu'au Transfert du Khalifat Fatimide en Egypte

27-362H / 637-972G

Etude sociale

Présenté par L'étudiant:

Rahmani Moussa

Résumé de la thèse:

L'Aurès est resté pendant les trois premiers siècles de l'Hejir, l'une des régions les plus influentes dans l'Histoire du Maghreb Islamique en général, et du Maghreb central et **IFRIQIYYA** en particulier, parce qu'il a été toujours au centre des événements, soit dans son espace naturel ou dans d'autres espaces.

De plus, cette région à payer un lourd tribu à la résistance contre la conquête arabo-musulmane du Maghreb, pendant plus d'un demi siècle, et on a pas pu la conquérir jusqu' a l'élimination de la KAHINA reine des Berbères des Aurès.

En embrassant la doctrine KHARIJIT, il fut l'une des régions participer au soulèvement contre les représentants de la dynastie des OMMEYADES .

Sous l'influence d'un tribalisme exacerbé. il participa aussi à la guerre civile entre les descendants d'OKBA IBN NAFAA.

Depuis l'époque des WOULATES jusqu' au départ des Fatimides en Égypte, l'Aurès est devenu pratiquement indépendant des pouvoirs centraux successifs au Maghreb central et **IFRIQIYYA** ,et son allégeance n' était que la manifestation de la protection de ses intérêts politiques et spirituels, qui n' a jamais été une contrainte ou une soumission totale.

Et lorsque, l'Aurès s'est rendu compte des visées d' assujettissement politique, militaire et doctrinale, il s'est rebellé sous la conduite de son chef IBN ABI YAZID EL KHARIJI et ça a été la révolution qui avait déstabilisé leur état, et les avaient poussé à changé leur politique dans un premier temps , et puis le transfert du centre de décision de leur KHALIFAT en Égypte.

Celui qui se penche sur l'étude de l'histoire de l'Aurès au moyen âge, il prendra conscience qu'il était le Baromètre de toutes la région du Maghreb s'il était stable toute la région l'était, s'il connaissait des troubles toute la région était menacée du même danger.

C'est cela , la personnalité Aurèssienne, ce fameux triptyque, du relief de la région , de cet esprit tribal de ses population qui a toujours favorisé ce sentiment d'indépendance , ainsi que cet spiritualité Kharijite qu'a exacerbé encore plus ce sentiment.

C'est pourquoi ,le rôle avéré de l'influence de l'Aurès dans le cours des événements de toute la région du Maghreb.

En effet, toute l'organisation de la société Aurèssienne ,ses us et coutumes et toute la symbolique de sa tradition, qui lui a donnée cette dimension, l'essence même de ce triptyque.

Mentouri University Constantine ***College of human and Social sciences***
University Vice Presidency Department of History for the
Scientific Research and Archeology

Title

The Aures in the Middle Age

From the Islamic conquest until the transfer of the Fatimid Caliphate to Egypt

(27-362H / AD 637-972)

Social Study

***Prepared by the student* :Moussa Rahmani**

***Summary* :**

During the first three centuries of the Hegira, the Aures was among the most effective areas in the Maghrebian and Islamic History in general and precisely in the central Maghreb and IFRIQIYYA that is because the Aures was either making the events or taking part in them.

For more than 50 years, the Aures has resisted against the Arabs conquest the resistance lasted until the killing of KAHINA, the queen of the Aures and all the Berbers.

The Aures participated in the revolution against the wallis of Beni Omiya affected by its adoption of the Kharijite doctrine, and participated in the civil war that broke between the sons of Okba Ibn Nafaa.

In the (Wallis) period and up to the moving of the Fatimid's to Egypt the Aures became independent from the successive central authorities in the central Maghreb and IFRIQIYYA . The Aures had no real loyalty or obedience but for the profit of its doctrine and policy .

When the Aures realized that the Fatimids aimed to put it under their military, political and doctrine authority, it revolted against them led by Abu Yazid al Khariji that revolution squeezed their state and obliged

them to change their policy at the beginning then to transfer the Caliphate to Egypt.

Who studies the History of the Aures in the middle age realizes that it was the standard which defined the degree of tenseness in the Maghreb. When the Aures was stable and calm, all the other regions were the same and vice-versa. The examples on this fact are too many to be mentioned here .Three main elements affected the personality of the Aures.

- The mountainous nature which formed its population by its rudeness and its difficulty.
- The Aures was a safe refuge for Zenata and its tribes.
- The tribal order that the Berbers of the region lived developed in them a tendency for independence.

This tendency to independence grew more when the population adopted the Kharijite doctrine.

The effect of these three element was clearly found in the Aurasian society; in it organization; style of life; habits and customs and mental appearances. And it is the matter that makes it difficult for researches to clarify different sides in the history of the region especially those related to the social side.

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة منتوري- قسنطينة
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
نيابة رئاسة الجامعة للبحث العلمي قسم التاريخ والآثار

الأوراس في العصر الوسيط

من الفتح الإسلامي إلى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر

27-362هـ/ 637-972م

دراسة اجتماعية

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المجتمع المغاربي

إعداد الطالب: موسى رحماني

ملخص الرسالة:

ظل الأوراس طوال القرون الثلاثة الهجرية الأولى من أهم المناطق تأثيرا في تاريخ المغرب الإسلامي عامة وتاريخ المغرب الأوسط وافريقية خاصة، لأنه ظل يصنع الأحداث أو يشارك في التي صنعها غيره من المناطق، فلم يكن بالتالي معزولا رغم أنه يعد من المناطق الطرفية.

لقد تحمل الأوراس لوحده عبء مقاومة العرب الفاتحين لنيف وخمسين سنة، ولم يخضع لسلطانهم حتى قتلت الكاهنة ملكة الأوراس وعموم البربر. وشارك في الثورة على ولاة بني أمية بتأثير اعتناقه للفكر الخارجي، كما ساهم في الحرب الأهلية بين أبناء عقبة بن نافع تحت تأثير العصبية القبلية.

أصبح الأوراس منذ مرحلة عصر الولاة حتى رحيل الفاطميين إلى مصر شبه مستقل عن السلط المركزية المتعاقبة في المغرب الأوسط وإفريقية، ولم يكن ولاؤه إلا شكلا من أشكال المصلحة المذهبية أو السياسية، فلم يكن هذا الولاء بالتالي ولاء انقياد وخضوع.

ولما أدرك الأوراس أن الفاطميين يسعون لإخضاعه لسلطانهم السياسي والعسكري والمذهبي ، ثار ضدهم بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي، وهي الثورة التي هزت أركان دولتهم، ودفعتهم لتغيير سياستهم أول الأمر ، ثم الانتقال بخلافتهم إلى مصر بعد ذلك.

إن الدارس لتاريخ الأوراس في العصر الوسيط يدرك بما لا يدع مجالا للشك أنه كان يشكل مقياسا لقياس حجم التوتر في بلاد المغرب، فإذا كان الأوراس ينعم بالهدوء والاستقرار كانت باقي مناطق المغرب هي الأخرى على درجة من الاستقرار والهدوء، وإذا كان الأوراس مضطربا وفائرا، انتقل اضطرابه وانتقلت فورته إلى تلك المناطق. والأمثلة في ذلك كثيرة يضيق المجال هنا لذكرها.

تلك هي شخصية الأوراس، وهي نتاج تفاعل ثلاثة عوامل ساهمت في تشكيلها:

- الطبيعة الجبلية التي صاغت سكانه بما تميزت به من وعورة وقساوة، فقد كان جبل الأوراس حصنا منيعا وفر الملجأ المنيع لزناتة وقبائلها.
- كما ساهم الطابع القبلي الذي درج عليه بربر الأوراس على تقوية النزعة الاستقلالية للمنطقة.
- وازداد تكريس هذه النزعة مع اعتناق سكانه للمذهب الخارجي.

لذلك كان دور الأوراس في أحداث المغرب تحت تأثير هذه العوامل الثلاثة مجتمعة. كما أن المجتمع الأوراسي في تنظيماته ومعايشه وعاداته وتقاليده ومظاهره الذهنية لم يفلت من قبضته هذا الثالوث.[الطبيعة الجغرافية والطابع القبلي واعتناق المذهب الخارجي.]

ملحق : 01

أعلام الأوراس

الرقم	اسم العلم	المولد والوفاة	مكان التواجد	الفن الذي برع فيه	مصادر ومراجع الترجمة
01	**الطبني**، أبو جابر يحي بن خالد	ت 245هـ/859م	طبنة	فقيه مالكي - تولى القضاء بطبنة	السمعاني: الأنساب، ج4، ص50، معجم أعلام الجزائر، ص204.
02	**الهواري**، محكم الأوراسي	كان حيا سنة 240هـ/854م	تيهرت	فقيه اباضي— تولى القضاء للرستميين	ابن الصغير، ص61، ،معجم أعلام الجزائر، ص337-338، معجم أعلام الإباضية ،ج2،ص443.
03	**الهواري** ، هود بن محكم الأوراسي الهواري	كان حيا في القرن 3هـ/9م	تيهرت	فقيه اباضي— مفسر يعد أقدم مفسر للقرآن في المغرب الأوسط	هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز ،ج1،مقدمة المحقق،ص 17، معجم أعلام الإباضية،ج2،ص 443 .معجم أعلام الجزائر338.
04	**الملشوني**، إسحاق بن أبي عبد الله	ق3هـ/ق9م	رقادة	فقيه — محدث	أبو العرب: الطبقات،ص98. المالكي:ج1،ص401-403.ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5،ص 192،البكري: المسالك

					والممالك،ج2،ص231. عبد الرحمن الجيلالي:شخصيات لامعة من الأوراس، الأصالة،ع61/60، ص106.
05	**الطبني**، أبو عمر محمد بن الحسين بن محمد بن إبراهيم	ت 390هـ/1000م	قرطبة	محدث وفقيه	ابن حزم: الجمهرة، ص221، ، معجم أعلام الجزائر، ص201.
06	**الطبني**، أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد	300-394هـ/912-1004م	الأندلس	شاعر - أديب	الحميدي: الجذوة،ص 45، ابن بشكوال: الصلة،ج2، ص462.معجم أعلام الجزائر،ص203.
07	**البغائي أو (البغاني)**، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الربعي	345-401هـ/956-1011م	قرطبة	فقيه مالكي– حافظ – مفسر	القاضي عياض: ترتيب المدارك، ج2،ص680. ابن فرحون: الدباج المذهب، ص 99-100. ابن بشكوال: كتاب الصلة،ج1،ص 84. ياقوت الحموي:معجم البلدان، ج1،ص325.قاسم علي سعد: جمهرة الفقهاء المالكية، رجال المالكية من ترتيب المدارك،ج3، ص1417.

08	**الطبني**، أبو الحسن عبد الرحمن بن زيادة الله بن علي بن الحسين	367-401هـ/977-1010م	قرطبة	متأدب- محدث	ابن باشكوال: الصلة، ج1، ص255، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب،ج1، ص93.
09	**الطبني**، أبو مضر زيادة الله بن علي بن الحسين بن محمد	336-415هـ/947-1024م	قرطبة	شاعر رفيع الطبقة	ابن حزم : الجمهرة،ص 221، الحميدي: جذوة المقتبس،ص194، ابن بسام : الذخيرة، ج1، ص236. ابن سعيد: المغرب،ج1،ص93، ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص267.
10	**الطبني**، عبد العزيز بن زيادة الله	ت 436هـ/1044م	قرطبة	محدث	ابن باشكوال: الصلة، ج1، ص299، معجم أعلام الجزائر، ص202.
11	**الطبني**، أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله بن علي بن الحسين	396-457هـ/1006-1065م	القيروان – مصر- مكة- قرطبة	شاعر – عالم باللغة والأدب والحديث والفقه	ابن حزم: الجمهرة، ص144، جذوة المقتبس،ص251، المقري: نفح الطيب، ج2،ص968،ياقوت الحموي: معجم البلدان،ج4،.، الذهبي: سير أعلام النبلاء،ج17،ص615، ابن فرحون : الديباج المذهب،ص150. ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج1،ص92، ابن

					بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ج1،ص 535-542.
12	**الطبني**، أبو محمد القاسم بن علي بن معاوية	ق5هـ/ق11م	مصر	محدث وفقيه	معجم البلدان، ج4، ص21. معجم أعلام الجزائر،ص203.
13	**الطبني**، أبو الفضل عطية بن علي بن الحسن بن يزيد الطبني	ت 532هـ/ 1138م	القيروان – مكة بغداد	شاعر - كما عد في جملة أصحاب الحديث	السمعاني: الأنساب، ج4، ص50، معجم البلدان،ج4، ص21.
14	**الأريسي**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد	ق7هـ/13م	بجاية	شاعر – أديب	الغبريني:عنوان الدراية، ص217، معجم أعلام الجزائر، ص15-16.
15	**الأريسي**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن عبد الله	ق7هـ/13م	بجاية	فقيه مالكي	الغبريني: عنوان الدراية، ص287. معجم أعلام الجزائر،ص 15.
16	**الأوراسي**، أحمد بن عيسى بن علي بن يعقوب بن سعيد الداودي	كان حيا سنة 849هـ/1445م	تونس – القاهر- الحجاز	أصولي – منطقي- فقيه مالكي	معجم أعلام الجزائر،ص24.
17	**النقاوسي**، أبو العباس	القرن 8هـ/ق14م	تلمسان – تونس	نحوي- فقيه	معجم أعلام الجزائر،ص332.

	أحمد بن العباس			مالكي- له مشاركة في الحديث والتفسير واللغة والمنطق	
18	**النقاوسي**، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن	ت 810هـ/1408م	بجاية	فقيه مالكي- له مشاركة في علمي المعقول والمنقول	احمد بابا التنبكتي: كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج1، ص48.
19	**النقاوسي**، أبو الطيب محمد بن محمد بن محمد بن يحي	بعد 897هـ/1491م	قسنطينة – تونس – مصر – الحجاز	لغوي- مفسر – من فقهاء المالكية	معجم أعلام الجزائر، ص332-333.
20	**الشاوي**، أبو زكرياء يحي بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى	ت 1096هـ/1685م	مصر – تركيا	النحو- من فقهاء المالكية، مفسر	الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص221-223. محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، ص458. أعلام الجزائر، ص186. عبد الرحمن الجيلالي، شخصيات لامعة من الأوراس، ص110.